

البابا شنودة الثالث

حياة التواضع والوكالات



قصة هذا الكتاب

فكرت في هذا الكتاب في أواخر الخمسينات ، منذ أكثر من أربعين عاماً، قبل أن أنزل إلى عمل الأسقفية . وقرأت له كل ما استطعت قراءته من كتب الآباء، وترجمت الكثير منها، وأعددت كارتات عديدة لكافة نقاط الموضوع. ثم أعلنت عنه في الستينات بعد أن صرت أسقفاً.

الفكرة بدأت في حياتي الرهبانية، والتفكير في النشر كان في حياتي الرعوية. وواجهت مشكلة أساسية، وهو أن التواضع والوداعة في المفهوم الرهباني أصعب من احتمال العلمانيين الذين سيُنشر الكتاب بينهم...

كيف أوفق بين المثالية في عمقها، وبين الإمكانية العملية للناس في التنفيذ؟! ومع ذلك فحياة التواضع والوداعة مُطالب بها الكل. الراهب الذي مات عن العالم وعن كل ما فيه من كرامة، وكذلك الذي يعيش في العالم، ويجاهد أن يكون له مركز، وطموح، وتدرج في الترقى.. وفي نفس الوقت يود أن يمارس هذه الفضيلة التي اتصف بها السيد المسيح نفسه، وأوصانا أن نتعلمها منه (مت ١١ : ٢٩). ودعا إليها الجموع في أول عظته على الجبل (مت ٥ : ٣ ، ٥).

وظللت أتصفح أوراقى العديدة الخاصة بالموضوع، والتي ملأت حقيبة بأكملها. وأخذت أصوغ الفكر بحيث يكون مقبولاً وممكناً، مع الاحتفاظ بمثاليته. و تخليصه بقدر الإمكان من الدرجات التي لا تقوى عليها سوى الرهبنة.

وحان الوقت أن أنشر عن حياة التواضع والوداعة في ٣٤ مقالاً في جريدة وطني (من منتصف عام ٢٠٠٠م).

إننا لا نستطيع أن نحجب المثالية عن الناس. وإنما نعرضها بأسلوب ممكن التنفيذ.

ولياخذ كل إنسان منها حسب طاقته. حسب قامته الروحية، ودرجة نموه، وحسب مقدار ما يعطيه الله من نعمة ومن قدرة على شركة الروح القدس (٢كو١٣: ١٤).

إنهما كتابان كنت مشتاقاً إلى إصدارهما، مهما كان اشتياق البعض إلى عكسهما: كتاب مخافة الله، وكتاب التواضع والوداعة.

كتاب (المخافة) بينما يشناق الناس أن أحدثهم عن محبة الله أكثر من مخافته. وقد تكلمت كثيراً عن المحبة، ونشرت فيها كتاباً باعتبارها قمة الفضائل. ولكن كان لابد أن أنشر أيضاً عن مخافة الله، لأنها نقطة البدء في الحياة الروحية، كما يقول الكتاب "بدء الحكمة مخافة الله" (أم٩: ١٠).

وقد كان. وصدر كتاب مخافة الله، وتقبله الناس، وأعيد طبعه...
وهأنذا أصدر لكم كتاب التواضع والوداعة اللازمين للحياة الروحية. وبدونهما لا تثبت أية فضيلة، بل تصير طعاماً للمجد البطل.

وقد وضعته لكم في سبعة أبواب تحدثت فيها عن أهمية التواضع، وبعض أقوال الآباء فيه. وعن تواضع الله ووداعته. وعن خطورة الكبرياء التي هي أول خطية عرفها العالم، وبها سقط الشيطان والإنسان. وعن البر الذاتي، والعظمة، ومحبة المديح والكرامة.
كل ذلك مع تداريب كثيرة عن اقتناء التواضع والوداعة، وتفصيل صفات كل منهما، وكيفية أقتنائهما.

واترك الكتاب بين يديك، فيه العديد من التفاصيل.
وليساعدك الرب على اقتناء هاتين الفضيلتين، بنعمته وروحه القدس.

اليابا شنودة الثالث

أبريل ٢٠٠١

رَبَابِ الدُّوَلِ :

حَيَاةُ الْاِرْتِضَاعِ

- مَا هُوَ الْاِرْتِضَاعُ ؟
- مَرْكَزُهُ بَيْنَ الْفَضَائِلِ .
- تَطْوِيْبُ الْاِرْتِضَاعِ .
- اَمْثَلَةٌ عَلَيْهِ .
- اِرْتِضَاعُ اللّٰهِ .
- حَثَّ عَلَيَّ الْاِرْتِضَاعِ

أود أن أبدأ معكم اليوم سلسلة عن موضوع هام هو التواضع والوداعة: ما هو التواضع وما معناه؟ وماذا قال الآباء في مدحه وتطويبه؟ بل ماذا قال الكتاب المقدس؟ وما مركز التواضع بين الفضائل؟ وما علاقته بالموهب العليا؟ وما علاقته بالنعمة والتجارب؟ وكيف يكون الإنسان متضعاً؟..

هذا كله وغيره، هو ما نود أن نحدثك عنه بمشيئة الله في هذا الكتاب، لكي تدرك ما هي هذه الفضيلة الكبرى، وما تحويه داخلها من فضائل متعددة..:

الارتضاع بين الفضائل :

الارتضاع هو الأساس الذي تبنى عليه جميع الفضائل .

وهو السور الذي يحمى جميع الفضائل وجميع المواهب .

ومن هنا يمكن أن نعتبره الفضيلة الأولى في الحياة الروحية. الأولى من حيث ترتيب البناء الروحي، الذي تجلس في قمته المحبة من نحو الله والناس . هو إذن نقطة البدء. ورب المجد في العظة على الجبل، بدأ التطويبات بقوله "طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات" (مت ٥ : ٣). ثم طوبى الودعاء (مت ٥ : ٥).

✱ ✱ ✱

إن كل فضيلة خالية من الارتضاع ، عرضة أن يختطفها شيطان المجد الباطل، ويبيدها الزهو والفخر والإعجاب بالنفس .

لذلك إذا منحك النعمة أن تسلك حسناً في إحدى الفضائل، اطلب من الرب أن يمنحك اتضاعاً حتى تنسى أنك سالك في فضيلة، أو حتى تدرك أنها لا شيء إذا قورنت بفضائل القديسين... كذلك إن منحك الله موهبة من المواهب السامية، ابتهل إليه أن يعطيك معها إتضاع قلب، أو أن يأخذها منك، لئلا تقع بسببها في الكبرياء وتهلك...
وحسناً ، يعمل الله ، إذ يعطى مواهبه للمتواضعين ..

لأنه يعرف أنها لا تؤذيهم. وقد اختار للتجسد الإلهي فتاة متواضعة تتسحق أمام ذلك المجد العظيم.. وهكذا نظر إلى إتضاع أمته* (لو ١: ٤٨)، هذه التي تستمر في إتضاعها مهما كانت جميع الأجيال تطوبها (لو ١: ٤٨). ويقول الكتاب إن الله يكشف أسراره للمتضعين، وأنه يعطيهم نعمة (يع ٤: ٦) (١بط ٥: ٥) (أم ٣: ٣٤). هؤلاء الذين كلما زادهم اله مجداً، زادوا هم اتضاعاً وانسحاق نفس قدامه.

* * *

والإتضاع ليس فقط فضلة قائمة بذاتها، إنما هو أيضاً متداخل في باقي الفضائل. إنه كالخيوط الذي يدخل في كل حبات المسبحة.. بحيث لا يكون قيام لأية حبة منها، ما لم يدخل هذا الخيط فيها.. فكل فضيلة لا إتضاع فيها، لا تعتبر فضيلة، ولا يقبلها الله. لذلك قلنا إن الإتضاع أساس لكل الفضائل. كما قلنا أيضاً إنه سور لها يحميها من المجد الباطل .

تطويب التواضع :

إن السيد المسيح الذي تتكامل فيه جميع الفضائل، حينما أراد أن يوجه تلاميذه القديسين إلى الاقتداء به، قال لهم:

"تعلموا مني فإني وديع ومتواضع القلب" (مت ١١ : ٢٩).

قال هذا على الرغم من أن كل فضيلة يمكننا أن نتعلمها منه.. كان يمكن أن يقول: تعلموا مني الحكمة، المحبة، الحنو، الهدوء، الخدمة، التعليم، قوة الشخصية.. فلماذا إذن ركز على التواضع والوداعة؟.. أليس من أجل الأهمية القصوى لهاتين الفضيلتين؟
وهكذا نرى التواضع بارزاً في أقوال الآباء وفي حياتهم ...

قال مار اسحق "أريد أن أتكلم عن التواضع ولكنني خائف، كمن يريد أن يتكلم عن الله.. ذلك لأن التواضع هو الحلة التي لبسها اللاهوت لما ظهر بيننا.. ولهذا فإن الشياطين

حينما ترى شخصاً متواضعاً، تخاف. لأنها ترى فيه صورة خالقه الذى قهرها...

حقاً، ما أعجب هذا الكلام عن التواضع !

✱ ✱ ✱

التواضع يستطيع أن يقهر الشياطين :

وهذا واضح جداً فى قصة أبا مقار الكبير، الذى ظهر له الشيطان وقال له: "ويلاه منك يا مقاره. أى شئ أنت تفعله، ونحن لا نفعله؟! أنت تصوم، ونحن لا نأكل. أنت تسهر، ونحن لا ننام. أنت تسكن البرارى والقفار، ونحن كذلك. ولكن بشئ واحد تغلبنا". فسأله القديس عن هذا الشئ، فأجاب: "بتواضعك وحده تغلبنا". وهذا واضح طبعاً. لأن الشيطان لا يستطيع أن يكون متواضعاً. فهو باستمرار متكبر وعنيد. لذلك يقدر المتواضع أن يقهره. فهو يملك التواضع الذى لم يقدر أن يملكه الشيطان.

✱ ✱ ✱

وتظهر قيمة التواضع فى حياة القديس الأنبا أنطونيوس:

أبصر هذا القديس العظيم فخاخ الشيطان مبسوطة على الأرض كلها. فألقى نفسه أمام الله صارخاً: "يارب، من يقلت منها؟". فأتاه صوت من السماء يقول "المتضعون يفلتون منها". وهنا لعل البعض يسأل: "ولماذا المتضع بالذات هو الذى يقلت من فخاخ الشياطين؟". ونجيبه:

المتضع إذ يشعر بضعفه ، يعتمد على قوة الله .

فتسندده قوة الله ، وتحميه من فخاخ الشياطين .

وذلك على عكس (الحكيم) المعتمد على حكمته. وعكس (القوى) المعتمد على قوته، و(البار) الوائق ببره.. أما المتواضع المتأكد تماماً والمعتزف، إنه لا قوة له ولا حكمة ولا بر، فإن الله يسند ضعفه ويحارب عنه. وهذا هو أخشى ما يخشاه الشيطان..

✱ ✱ ✱

ولذلك فإن إخراج الشياطين يحتاج قبل كل شئ إلى إتضاع. وإن كان الرب قد قال "هذا الجنس لا يخرج بشئ إلا بالصلاة والصوم" (مت ١٧ : ٢١)... فذلك لأن الصلاة والصوم يظهر فيهما الإتضاع بكل وضوح. فالذى يصلى، يعترف ضمناً أنه ليست له قوة ذاتية، لذلك يطلب القوة من فوق بالصلاة. وإذا خرج الشيطان لا يفتخر بإخراجه. لأن ذلك لم يتم بقوته، إنما بقوة الله التى تدخلت بالصلاة. وكذلك فإن الصوم الحقيقى هو الذى

ينسحق فيه الإنسان وينذل أمام الله بالانضاع، ويشعر بضعفه ...

✱ ✱ ✱

والشياطين كانت بالانضاع ، تهرب أمام القديس أنطونيوس .

القديس أنطونيوس أبو الرهبنة كلها، عندما كان الشياطين يحاربونه بعنف، كان يرد عليهم بانضاع قائلاً: "أيها الأقوياء، ماذا تريدون مني أنا الضعيف؟ أنا عاجز عن مقاتلة أصغركم". وكان يصلى إلى الله ويقول "إنقذني يارب من هؤلاء الذين يظنون أنني شيء، وأنا تراب ورماد". فعندما كان الشياطين يسمعون هذه الصلاة الممتلئة إبتضاعاً، كانوا ينقشعون كالدخان. حقاً لقد أتقن القديسون الإبتضاع بمثل هذه الصورة العجيبة...

ولم يتضعوا فقط أمام الله والناس، بل حتى أمام الشياطين . وهزمهم بانضاعهم .

كما رأينا في سيرة القديس الأنبا أنطونيوس، وفي سيرة القديس مقاريوس الكبير، وكما نرى في سير باقي القديسين .

✱ ✱ ✱

ولعل عظمة الانضاع تظهر جلية. عندما نتأمل بشاعة الرذيلة المضادة له، أعنى الكبرياء والعظمة:

الكبرياء أحدثت من السماء ملاكاً بهياً، وحوّلتها إلى شيطان .

حقاً ، إن أول خطية عرفها العالم هي الكبرياء، التي سقط بها الشيطان. وقصة سقوطه سجلها اشعيا النبي، في قول الوحي الإلهي لهذا الملاك الساقط: "وأنت قلت في قلبك أصعد إلى السموات. أرفع كرسيّ فوق كواكب الله.. أصير مثل العلى. لكنك إنحدرت إلى الهاوية، إلى أسفل الجب" (إش ١٤ : ١٣ ، ١٤).

✱ ✱ ✱

وينفس سقطّة الكبرياء، أغوى أبويننا الأولين .

كما قال في قلبه "أصير مثل العلى"، هكذا قال لأبويننا الأولين "تصيران مثل الله، عارفين الخير والشر" (تك ٣ : ٥). من هنا يبدو أن الكبرياء لا تكتفى مطلقاً، بل تريد أن تعلو باستمرار، مهما كانت درجتها عالية... حتى إن كان الواحد ملاكاً فى درجة الكاروب، مملوءاً حكمة وكامل الجمال (حز ٢٨ : ١٤ ، ١٢)، أو كان صورة الله فى شبهه (تك ١ : ٢٦ ، ٢٧). يريد أيضاً أن يعلو ويرتفع. ولكنه فى هذه الكبرياء يهبط إلى أسفل، حسبما قال الرب .

كل من يرفع نفسه يتضع . ومن يضع نفسه يرتفع" (لو ١٤ : ١١) .

✱ ✱ ✱

الملاك لما أراد أن يرتفع، انحدر إلى الهاوية إلى أسافل الجب، وقد مكانته كملاك، وصار شيطاناً.. والإنسان - وهو صورة الله - لما أراد أن يرتفع ، فقد صورته الإلهية، وطُرد من الجنة، وعانى ما عانى.. ولعل أصعب شيء يتعرض له المتكبر، أن الله نفسه يقف ضده. لذلك ما أخطر قول الكتاب :

"يقاوم الله المستكبرين" (يع ٤ : ٦).

في نفس الوقت الذي أشفق فيه الله على الخطاة والعشارين، وقادهم إلى التوبة، يقول الرسول إن الله يقاوم المستكبرين... وهؤلاء الذين يقاومهم الله، ما مصيرهم؟! فهل تريد أن تعرض نفسك إلى مقاومة الله نفسه لك؟!.. يعزينا النصف الثاني من نفس الآية، حيث يقول : "وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة" .

✱ ✱ ✱

ليتنا نخاف من قول الوحي الإلهي في سفر اشعيا .

"إن لرب الجنود يوماً على كل متعظم وعالٍ، وعلى كل مرتفع فيوضع... وعلى كل أرز لبنان العالى، وعلى كل بلوط بأشان... وعلى كل الجبال العالية - وعلى كل التلال المرتفعة.. فيخفض تشامخ الإنسان، وتوضع رفعة الناس. ويسمو الرب وحده في ذلك اليوم" (إش ٢ : ١٢ - ١٧).

ما هو الاتضاع؟

بعض أقوال الآباء عنه...

ما هو الاتضاع؟

ليس الاتضاع أن تنزل من علوك، أو تتنازل إلى مستوى غيرك .
ليس الاتضاع أن تشعر أنك على الرغم من عظمتك، فإنك تتصاغر أو تخفى هذه العظمة. فشعورك أنك كبير أو عظيم، فيه شيء من الكبرياء . وشعورك أنك في علو تنزل منه، ليس من الاتضاع في شيء. وشعورك بأنك تخفى عظمتك، فيه إحساس بالعظمة، إحساس بعظمة تخفيها عن الناس. ولكنها واضحة أمام عينيك...
إن الله هو وحده العالى، وهو وحده الذى يتنازل من علوه. هو الخالق. أما الياقون فهم تراب ورماد ...

إنما الاتضاع بالحقيقة - كما قال الآباء . فهو معرفة الإنسان لنفسه .
فتعرف من أنت؟ إنك من تراب الأرض. بل التراب أقدم منك. كان قبل أن تكون.
خلقه الله أولاً، ثم خلقك من تراب.

✱ ✱ ✱

أتذكر أننى ناجيت هذا التراب ذات مرة، فى أبيات قلت فيها :

يا تراب الأرض يا جدى وجدّ الناس طرا
أنت أصلى أنت يا أقدم من آدم عمرا
ومصيرى أنت فى القبر إذا وسدت قبرا

بل أنك يا أخى - إذا فكرت فى الأمر باتضاع . تجد أن هذا السراب لم يغضب الله،
كما أغضبت أنت بخطاياك .

✽ ✽ ✽

إعرف أنك لست فقط تراباً. بل أنت أيضاً خاطئ وضعيف .

على أن تكون هذه المعرفة يقينية، بشعور حقيقى غير زائف داخل نفسك.. حتى وأنت
فى عمق قوتك، تدرك أن هذه القوة ليست منك. بل هى منحة سماوية لك من الله الذى
يسند ضعفك. ولو تخلت عنك نعمته لحظة واحدة، لكنت تسقط كما سبق لك أن سقطت.

✽ ✽ ✽

نقول ذلك ، لأن كثيرين لهم مظهرية الإحضاع ، بينما قلوبهم فى الداخل ليست
متضعة ...

كثيرون يتحدثون بألفاظ متضعة.. وهذه الألفاظ ربما تزيدهم علواً فى نظر الناس. وهم
يعرفون ذلك وربما يريدونه! وقد يقول الشخص منهم إنه خاطئ وضعيف. ولكن إن قال
له أحد إنه خاطئ وضعيف، يثور ويغضب. ولا يحسبه من أحبائه، بل يتغير قلبه من
نحوه..!

إذن التواضع الحقيقى ، هو تواضع من داخل النفس أولاً ...

باقتناع قلب . لا عن تظاهر أو رياء . وليس لأن هذا هو الثوب الذى ترتديه لتبدو
أمام الناس باراً. إنما لألك تدرك تماماً عن نفسك ببراهن وأدلة عملية أنك خاطئ وضعيف
بحسب خبرات حياتك من قبل.

✽ ✽ ✽

ولا يقتصر الأمر على معرفتك لنفسك أنك هكذا، إنما أيضاً:

تعامل نفسك حسب ما تعرفه عنها من خطأ ونقص وضعف :

تعرف عن نفسك أنك خاطئ، وتعامل نفسك كخاطئ . وإن عاملك الناس كخاطئ،
تقبل ذلك، ولا تغضب ولا تتذمر، ولا ترد بالمثل، شاعراً أنك تستحق ذلك. وإن لم
يعاملوك بحسب خطاياك بسبب أنهم لا يعرفونها، فعليك أن تتسحق من الداخل، وتشكر
الله بقلبك على معاملة أنت لا تستحقها منهم، ولا منه لأنه سترك ولم يكشفك لهم...

✽ ✽ ✽

إن كان الأمر هكذا ، فالمتواضع لا يجرؤ مطلقاً على أن يمدح نفسه .

إنه لا يرى فقط أنه خاطئ وضعيف ، بل أنه أكثر الناس خطأ وضعفاً ، على الأقل

بالنسبة إلى الإمكانات التي اتاحت له ولم يستغلها. لذلك فهو لا يرى مطلقاً أنه أفضل من أحد، وإن بدا أنه الأفضل في نقطة معينة، فهو الأضعف في نقاط أخرى كثيرة يعرفها عن نفسه. ولهذا فهو لا يدين أحداً.

✱ ✱ ✱

بل إنه باستمرار يتخذ المتكأ الأخير، حسب وصية الرب (لو ١٤ : ١٠).
وليس المقصود هو المتكأ الأخير من جهة المكان، إنما من جهة المكانة. وكما قال الشيخ الروحاني : "في أى موضع حللت فيه، كن صغير أخوتك وخديمهم. وقيل "كن آخر المتكلمين، ولا تقطع كلمة من يتكلم لكى تتحدث أنت" .. "وحاول أن تتعلم، لا أن تعلم غيرك وتظهر معارفك".

✱ ✱ ✱

والإنسان المتضع يجب أن يعمل الفضيلة في الخفاء .
وذلك حسبما أمر الرب (مت ٦). ولذلك لا يوافق الاتضاع مطلقاً، أن يتحدث أحد عما يقوم به من أعمال فاضلة، أو ما يحدث له من رفعة.

إن بولس الرسول الذى صعد إلى السماء الثالثة، وسمع كلمات لا يُنطق بها، لم يقل إن ذلك قد حدث له، إنما قال "أعرف إنساناً فى المسيح يسوع.. أفى الجسد لست أعلم، أم خارج الجسد لست أعلم، الله يعلم.. أختطف هذا إلى السماء الثالثة.. أختطف إلى الفردوس. وسمع كلمات لا يُنطق بها" (٢كو ١٢ : ٢ - ٤).

إن الفضيلة فى المتضع ، مثل كنز مخفى فى حقل .

وما أكثر القصص التى يحكيها لنا تاريخ القديسين عن أولئك المتواضعين الذين أخفوا فضائلهم، وأخفوا معرفتهم، بل أخفوا نواتهم أيضاً. وعاشوا مجهولين من الناس، ويكفى أنهم كانوا معروفين عند الله. وكان ينطبق عليهم قول الرب فى سفر النشيد "أختى العروس جنة مغلقة، عين مقفلة، ينبوع مختوم" (نش ٤ : ١٢) ... كالقديسة العذراء مريم: كانت كنزاً للرؤى والاستعلانات. ومع ذلك ظلت صامتة "تحفظ كل تلك الأمور، متأملة بها فى قلبها" (لو ٢ : ٥١).

تطويب الآباء والقديسين للتواضع

بعض أقوال الآباء :

★لما سئل القديس مقاريوس "أى الفضائل أعظم؟" أجاب "كما أن التكبر أسقط ملاكاً من علوه وأسقط الإنسان الأول، كذلك الإتضاع يرفع صاحبه من الأعماق". أليس هو المقيم المسكين من التراب ليجلس رؤساء شعبه" (مز ١١٣) "أنزل الأعراء عن الكراسى، ورفع المتضعين" (لو ١: ٥٢).

✱ ✱ ✱

★قال القديس أغسطينوس : المتواضعون كالصخرة، تنزل إلى أسفل، ولكنها ثابتة وراسخة.. أما المتكبرون فإنهم كالدخان يعلو إلى فوق ويتسع. وفيما هو يعلو ويتسع، يضمحل ويتبدد ...

✱ ✱ ✱

★وقد قدّم القديسون مثلاً آخر عن التواضع والكبرياء، فقالوا :
إن غصن الشجرة المحمل بالثمار، يكون منحنياً من ثقل ما يحمل. أما الغصن الفارغ فيكون مرتفعاً!

وهناك تشبيه آخر وهو الأساس والبناء : فالأساس يعمل في إختفاء، وهو غير ظاهر، تحت الأرض لا يراه أحد. ولكنه يحمل البناء كله في إنكار ذات.. وفي نفس الوقت يقدم البناء في الكرامة. فيمدح الناس البناء لأنه ظاهر أمامهم. ويندر أن يفكر أحد في مدح الأساس المخفى .

✱ ✱ ✱

★ قال الأنبا موسى : تواضع القلب يتقدم الفضال كلها. كما أن الكبرياء أساس الشرور كلها.

✱ ✱ ✱

★ وقال مار اسحق : الذى يعرف خطاياها، خير له من نفعه الخليقة كلها بمنظره. والذى يتتهد كل يوم على نفسه بسبب خطاياها، خير من أن يقيم الموتى.. والذى استحق أن يبصر خطاياها، خير له من أن يبصر ملائكة .

✱ ✱ ✱

★ وقال أحد القديسين : تشبه بالعشار لئلا تُدان مع الفريسي.
وقال قديس آخر : إني أفضل أن أكون مهزوماً باتضاع، على أن أكون منتصراً بافتخار.

★ وفى إحدى المرات قال أخ للقديس تيموثاوس "إني أرى فكرى مع الله دائماً". فأجابه: الأفضل من ذلك أن ترى نفسك تحت كل الخليقة .

✱ ✱ ✱

★ قال شيخ : الإِتضاع خَلص كثيرين بلا تعب. وتعب الإنسان بدون إتضاع يذهب باطلاً. لأن كثيرين تعبوا فاسكتبروا وهلكوا .

★ وقال آخر : إن نزل الاتضاع إلى الجحيم، فإنه يصعد حتى إلى السماء. وإن صعدت العظمة إلى السماء، فإنها تنزل إلى الجحيم .

✱ ✱ ✱

★ وقال أنبا بيمن : "كما أن الأرض لا تسقط لأنها كائنة إلى أسفل، هكذا من يضع نفسه لا يسقط" .

✱ ✱ ✱

★ قال مار أوغريس : إن الشياطين تخاف من المتواضع لأنهم يعرفون أنه قد صار مسكناً للرب". وقال أيضاً "كما أن كثرة الأثمار تَضَع أغصان الأشجار، كذلك كثرة الفضائل تضع قلب الإنسان".

★ سئل شيخ : "كيف أنه يوجد أناس يقولون إننا نرى ملائكة؟" فأجاب : طوباه الذى يرى خطاياها كل حين .

✱ ✱ ✱

★ قال سمعان العمودي "الإِتضاع هو مسكن الروح وموضع راحته. والمتواضع لا يسقط أبداً. إذ كيف يسقط، وضميره وفكره تحت جميع الناس؟!.. سقوط عظيم هو

الكبرياء. وعلو عظيم هو الإلتضاع. فلنعوّد نفوسنا من الآن أن نتمسك بالإلتضاع ونجعله لنا عادة، حتى إن كان قلبنا لا يشاء .

✱ ✱ ✱

✱ قال القديس دروثيئوس : فى الواقع لا يوجد أقوى من التواضع، لأنه لا شئ يمكن أن يقهره .

✱ ✱ ✱

✱ قال ماراسحق : الشجرة الكثيرة الأثمار، تتحنى أغصانها من كثرة أثمارها، ولا تتحرك مع كل ريح. والشجرة العادمة الثمر تتشامخ أغصانها، ومع كل ريح تتحرك. ✱ وقال أيضاً : مقبول عند الله سقوط باتضاع وندامة، أكثر من القيام بافتخار .

✱ ✱ ✱

✱ قال أحد الآباء : لما انتهى الإنسان الأول مجد الألوهية - حسب قول الشيطان - تصيران مثل الله (تك ٣: ٥)، حينئذ فقد الإنسان مجد البشرية كما خلقت على صورة اله (تك ١: ٢٧).

✱ ✱ ✱

✱ فى إحدى المرات قال القديس يوحنا القصير للأخوة "من الذى باع يوسف الصديق؟ فقالوا له "أخوته". فقال "ليس أخوته الذين باعوه، لأن تواضعه هو الذى باعه. لأنه كان قادراً أن يقول للذى إشتراه إنه أخوهم، ولكنه سكت، وباتضاعه بيع، وصار مديراً لمملكة مصر".

✱ ✱ ✱

✱ قال القديس برصنوفىوس : إن هذه الفضائل الثلاث الآتية جليلة جداً. ومن يقتنيها يستطيع أن يسكن فى وسط الناس وفى البرارى وحيثما أراد. وهى : أن يلوم الإنسان نفسه، ويقطع هواه، ويصير تحت كل الخليفة. ✱ وقال أيضاً : إن المتضع كائن فى أسفل. والذى هو فى أسفل، لا يسقط. أما المتعالى فهو الذى يسقط بسرعة.

✱ ✱ ✱

✱ وقال ماراسحق: من سعى وراء الكرامة، هربت منه. ومن هرب منها بمعرفة، سعت إليه .

✱ وقال أيضاً: كلما يحقر المتواضع نفسه ويرذل ذاته، كلما تتوافر كرامته عند سائر الخليفة .

★ وقال أيضاً : المتواضع لا يبغضه أحد، ولا يحزنه بكلمة، ولا يزدري به. لأن سيده جعله محبوباً عند الكل. كل أحد يحبه. وكل موضع يوجد فيه، فمثل ملاك الله ينظرون إليه، ويفرزون له الكرامة.

يتكلم الحكيم أو المتفلسف ويسكتونه. ويعطون فرصة للمتواضع أن يتكلم. وأذان الجميع منصتة إلى منطق فمه، يفتشون على معنى فهمه. وكلامه حلو في مسامع الحكماء أشهى من الشهد لذوق آكله .

إن كان الإلتضاع يعلى شأن الأمي والذي لا علم له، فالقوم الأجلاء الأمائل، كم كرامة تظن الإلتضاع يسببها لهم!

✽ ✽ ✽

★ سنل القديس يوحنا الأسيوطي "من هو الإنسان الكامل في المعرفة؟" فأجاب: هو الذي يحسب جميع الناس أفضل منه .

★ وقال أيضاً "إن عاملنا أنفسنا كخطاة ، لا ندان كخطاة" .

✽ ✽ ✽

★ وقال أحد الآباء : إن قال أحد لرفيقه "اغفر لي" وهو متضع في قلبه، فإن الشياطين تحترق.

✽ ✽ ✽

★ وقال القديس أوغسطينوس: على قدر ضخامة البناء الذي يُشيد، ينبغي أن يكون عمق الأساس الذي يُحفر إلى أسفل. وكلما يرتفع البناء، هكذا ينبغي أن ينخفض الأساس. فإذا كانت القمة عالية جداً، وهي رؤية الله وملكوته وسمائه، يجب إذن أن نعمق الأساس، ننزل إلى تحت بالإلتضاع.. وهكذا ترى البناء أولاً تحت، قبل أن يكون فوق. والقمة لا ترتفع إلا بعد الإلتضاع.

★ وقال أيضاً : إن الاتضاع هو الفضيلة المعتبرة بوجه خاص في مدينة الله، إذ كانت بوجه خاص من مميزات المسيح ملكها. وهو أوصى بها سكانها أثناء غربتهم الحالية على الأرض. وبنفس الوضع تكون الكبرياء التي هي الرذيلة المضادة لهذه الفضيلة، وهي المسيطرة بوجه خاص على الشيطان مقاوم المسيح، هي المميّزة لمدينة الشيطان .

✽ ✽ ✽

★ وقال القديس بلايوس عن إيمان أحد كهنة الأوثان :

"وذهب وصار راهباً. ومن بداية حياته تمسك جداً بالإلتضاع. وكان يقول: إن التواضع

يستطيع أن يبطل كل قوة المعاند. كما سمعت من الشياطين الذين كانوا يقولون: كلما نثير الرهبان يتحولون إلى التواضع، ويعتذرون بعضهم لبعض. وهكذا يبطلون كل قوتنا".

✱ ✱ ✱

★ وقال الشيخ الروحاني : ذخرة المتضع داخله، أي الرب .

وقال أيضاً : من لا يحبك أيها المتضع الطيب، إلا المفتخر والمتقمم الذي أنت غريب عن عمله؟! تأملوا أولئك أولئك الجبابرة آباءنا: كيف طرَقوا لنا الطريق، إذ لبسوا التواضع الذي هو رداء المسيح. وبه رفضوا الشيطان وربطوه بقيود الظلمة.

✱ ✱ ✱

★ أنبا تادرا الذي كان بقيود صلاته يربط الشياطين خارج قلايته، كان يجعل نفسه آخر جميع الناس. ومن الخدمة الكريمة كان يهرب .

★ حقاً إن مسكن الله هو نفس المتواضع، كما قال القديس مارأوغريس: "يطأطي المتواضع راسه بروح منسحقة، ويصير مسكناً للثالوث القدوس".

★ وقال القديس سمعان العمودي : الاتضاع هو مسكن الروح وموضع راحته.

★ وقال مارافرام : نجاح عظيم وشرف مجيد هو الاتضاع، وليست فيه سقطة .

✱ ✱ ✱

★ وقال مار اسحق : الإِتضاع يتقدم النعمة. والعظمة تتقدم التأديب.

أما عبارته الأولى ، فتوافق قول القديس يعقوب الرسول "يقاوم الله المستكبرين. أما المتواضعون فيعطيهم نعمة" (يع ٤: ٦). ذلك لأن المتواضعين إذا عملت فيهم النعمة ونجحوا، لا ترتفع قلوبهم بسبب نجاحهم، بل يقول كل منهم مع القديس بولس الرسول "ولكن لا أنا، بل نعمة الله التي معي" (١كو ١٥: ١٠). ويذكرون باستمرار قول الرب "بدونى لا تقدرون أن تعملوا شيئاً" (يو ١٥: ٥). بعكس ذلك المتكبر : فإنه كلما عملت فيه النعمة عملاً، ينسبه إلى نفسه فيزداد كبرياءً!

✱ ✱ ✱

أما قول مار اسحق "إن العظمة تتقدم التأديب، فلعله أعتمد فيها على ما قيل فى سفر الأمثال:

"قبل الكسر الكبرياء . وقبل السقوط تشامخ الروح" (أم ١٦: ١٨).

ذلك لأن المتكبر حينما ينتفخ قلبه، تتخلى عنه النعمة فيسقط، حتى يشعر بضعفه فيتضع، ولا يعود ينسب كل نجاح إلى قدرته وكفاءته وذكائه.. ناسياً عمل الله فيه! وأيضاً

يسقط هذا المتكبر، لأن الله يقاوم المستكبرين كما قال الرسول (يع: ٤: ٦). ولأن المستكبرين لا يضعون الله أمامهم، ولا يعطون مجداً لله، كما فعل هيرودس الملك "فضربه ملاك الرب وصار يأكله الدود ومات" (أع: ١٢: ٢٣). هكذا تكون نهاية المتكبرين.

✱ ✱ ✱

وللقديس أوغسطينوس تأملات في بعض المزامير الخاصة بالإتضاع :

★ مثل "قريب هو الرب من المنكسرى القلوب، ويخلص المنسحقى الروح" (مز: ٣٤: ١٨). وأيضاً "الرب عالٍ ويعاين المتواضعين" (مز: ٣٨: ٦)، وكذلك "من مثل الرب إلهنا الساكن فى الأعلى والناظر إلى المتواضعات فى السماء وعلى الأرض. المقيم المسكين من التراب، والرافع البائس من المزبلة ليجلسه مع رؤساء شعبه" (مز: ١١٣: ٥-٨).

✱ ✱ ✱

★ فيقول القديس أوغسطينوس: سرّ عظيم يا أخوتى: الله هو فوق الكل. ترفع نفسك فلا تلمسه. تضع ذاتك فينزل إليك..

إن الله يسكن فى الأعلى فى السماء. هل تريد أن يقترب إليك؟ إتضع. لأنه على قدر ما ترتفع نفسك، على قدر ما يرتفع هو عنك. أنت تعلم أن الله عالٍ. فإن جعلت ذاتك عالياً مثله، فسيبعد عنك...

الله عالٍ، ويعاين الأشياء المتواضعة فى السماء وعلى الأرض. فهل هذه الأشياء المتواضعة التى يعاينها، هى ذات مسكنه العالى، لأنه هكذا يرفع المتواضعين. لذلك فهو يسكن فى أولئك الذين يرفعهم إلى الأعلى، ويجعلهم سموات لنفسه.. إنه الرب العالى الساكن فى قديسيه.

فإن كان الرب إلهنا يعاين متواضعات أخرى فى السماء غير التى يعاينها على الأرض، فإنى أفترض أنه يعاين فى السموات المتواضعين الذين دعاهم والذين يسكن فيهم. بينما على الأرض يعاين الذين يدعوهم لكي يسكن فيهم.

✱ ✱ ✱

قال القديس دوروثيوس :

الذى يبني بيتاً ، لابد أن يضع ملاطاً (مونة) على كل حجر . لأنه إن وضع حجراً على حجر بدون ملاط، فإن الحجارة تسقط والبيت ينهار. فإن كانت الحجارة فى بناء النفس هى الفضائل، فإن الملاط يكون هو التواضع. حيث أنه يؤخذ من الأرض، وهو تحت قدمى كل

أحد.. وكل فضيلة تمارس بدون تواضع، ليست هي فضيلة" .
★ وصدق القديس دوروثيوس . لأن الآباء قد قالوا: كل فضيلة يعملها الإنسان بدون
إتضاع، تكون طعاماً لشيطان المجد الباطل.

✱ ✱ ✱

★ وفي ذلك قال ماراسحق أيضاً : كما أن الملح يصلح لجميع المأكّل، هكذا هو
الإتضاع لكل الفضائل. لأن بدونه باطل هو كل عمل وكل فضيلة .

★ قال القديس باسيلئوس الكبير :

التواضع هو الكنز الذى يحفظ جميع الفضائل ...

✱ ✱ ✱

★ وقال القديس مارأوغريس :

"التواضع هو عطية من الثالوث القدوس. هو طريق الملائكة، و نار على الشياطين..
وهو غنى لا يُسرق".

★ ويتفق مار اسحق مع مار أوغريس فى أن الإتضاع عطية من الله. فيقول "التواضع
هو موهبة عظيمة. هل يمكن أن يكون إنسان هكذا "مرذولاً فى عينى نفسه"؟! هل يستطيع
الطبع أن يغير ذاته هكذا؟! لأجل هذا لا تشك أن التواضع قوة سرية، حيث لا يتحایل
إنسان أن يكون هكذا، بغير تعصب من كل قلبه.

✱ ✱ ✱

★ وقال القديس أوغسطينوس :

.. فلنتمسك بالإتضاع. إن لم يكن لنا حتى الآن، فلنتعلمه. وإن كان لنا، فلا نفقده..
ولنقبل فى هذا العالم وصية الاتضاع، لكي نستحق فى العالم الآخر أن نقبل الزفعة التى
وعد بها المتضعين.

✱ ✱ ✱

★ قال مارأوغريس :

الإتضاع سياج يحفظ الصاعد.. وهكذا إذا ارتفعت إلى علو الفضائل، فأنت تحتاج إلى
تحفظ كثير. لأن الذى على الأرض إن سقط، فإنه يقوم سريعاً. وأما الذى يسقط من العلو،
فإنه يعذب إلى الموت .

✱ ✱ ✱

★قال مارافرام السرياني :

فليؤدبك رسم الذى يكتس بيته: إذا يطأطى إلى الأرض وينظفه. فكم بالأكثر يحتاج الإنسان أن يطأطى باهتمام كثير ويتضع من أجل تنظيف النفس، ولا يترك فيها الأشياء التى يمقتها الله .

★وقال أيضاً : فى النفس المتواضعة يسكن الأب والابن والروح القدس.. وفى الكبرياء يسكن القائل "لأصعدن إلى السماء وأجلس فى الجبل الشامخ، وأرتقى فوق الغيوم، وأصير مثل العلى" (أش: ١٤) .

✱ ✱ ✱

★وقال ماراسحق :

★الذى يتكلم على المتواضع بالازدراء والاستهزاء، لا يحسبونه من الأحياء، بل كإنسان قد أطلق لسانه على الله .

★وقال أيضاً : حتى الشياطين - مع جميع شرورها واقتخار قلوبها - إذا دنت من المتواضع، صارت مثل التراب، وبطل شرها جميعه وكل حيلها وأعمالها.

★وقال أيضاً : من ذا الذى لا يستحى من رؤية المتواضع!؟

★قبل أن يظهر مجد التواضع، كان منظره المملوء قدساً محتقراً من كل أحد. أما وقد ظهرت عظمة الإبتضاع فى العالم كله، فإن كل أحد يوقر ويكرم هذا الشبه .

حث على الإتضاع

★ في إحدى المرات سأل أحد الأخوة القديس الأنبا باخوميوس أب الشركة قائلاً: "قل لنا عن منظر من المناظر التي تراها لنستفيد منه"
فأجابه القديس : إن من كان مثلي خاطئاً لا يُعطى مناظر. ولكن إن شئت أن ترى منظرأ بهياً يفيدك بالحق، فإني أدلك عليه وهو: إذا رأيت إنساناً متواضعاً بقلبه طاهراً، فهذا أعظم من سائر المناظر. لأنك بواسطته تشاهد الله الذي لا يُرى. فعن أفضل من هذا المنظر لا تسأل (يقصد أنه يرى في هذا الإنسان صورة الله المتواضع).

✱ ✱ ✱

★ قال القديس أوغسطينوس :

أنت تريد أن تحصل على كل شيء. اطلب ذلك عن طريق الإتضاع:
لما قالت المرأة الكنعانية "نعم يارب، ولكن الكلاب تأكل من الفتات الساقط من مائدة أسيادها" سمعت قوله "يا امرأة عظيم هو إيمانك" (مت ١٥ : ٢٧ - ٢٨).
وأيضاً لما قال قائد المائة "لست مستحقاً أن تدخل تحت سقف بيتي" قال الرب "الحق لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً عظيماً مثل هذا" (لو ٧ : ٦ - ٩).
فلنتمسك بالإتضاع: إن لم يكن لنا حتى الآن، فلنتعلمه . وإن كان لنا فلا نفقده .

✱ ✱ ✱

★ قال أنبا ابراكسيوس :

إن شجرة الإتضاع التي ترتفع إلى العلاء هي التواضع .
وقال أيضاً : تشبه بالعشار ، فلا تدان مع الفريسي .

★ وقال الأنبا أنطونيوس :

أحب الاتضاع ، فهو يغطي جميع الخطايا .

✠ ✠ ✠

★ وقال الأنبا برصنوفوريوس :

اقتنِ الاتضاع ، فإنه يكسر جميع فخاخ العدو .

✠ ✠ ✠

★ وقال الأنبا اشعيا :
أحب الاتضاع ، فهو يحفظك من الخطية .

✠ ✠ ✠

★ وقال الأنبا باخوميوس :

اسلك طريق الاتضاع ، لأن الله لا يرد المتواضع خائباً. لكنه يُسقط المتكبر، وتكون سقطته شنيعة .

احذر من تكبر القلب، لأنه أشنع الرذائل كلها .

★ وقال أيضاً : كن متواضعاً لتكون فرحاً. لأن الفرح يتمشى مع الإِتضاع. كن متضعاً ليحرسك الرب ويقويك. فإنه يقول إنه ينظر إلى المتواضعين. كن وديعاً، لكي يملكك الرب حكمة ومعرفة وفهماً. لأنه مكتوب أنه يهدي الودعاء بالحكم، ويعلم المتواضعين طرقه.

✠ ✠ ✠

★ وقال أنبا يوحنا القصير :

يجب قبل كل شيء أن نقوم بالتواضع. لأن هذه هي الوصية الأولى التي قال ربنا عنها "طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات" (مت ٥ : ٣).

✠ ✠ ✠

★ وقال الشيخ الروحاني :

تسربل يا أخي بالتواضع في كل وقت، لأنه يُلبس نفسك المسيح معطيه .

✠ ✠ ✠

★ وقال ماراسحق :

حب الاتضاع في كل تدابيرك ، لتخلص من الفخاخ التي لا تُدرك ، الموجودة في كل حين خارج السبل التي يسلك فيها المتضعون .

★ وقال أيضاً : لا تلتمس أن تُكرم وأنت مملوء من الداخل جراحات. ابغض الكرامة فتكرم. ولا تحبها لئلا تُهان .

من عدا وراء الكرامة هربت منه. ومن هرب منها بمعرفة قصده، وأذرت كافة الناس باتضاعه .

★ وقال أيضاً : تواضع فى علوك ، ولا تتعاطم فى حقارتك .. ضع ذاتك، وصغر قدرك عند جميع الناس. فتعلو على الرؤساء فى هذا العالم.

كن أمياً فى حكمتك . ولا تتظاهر بالحكمة وأنت أمى .

★ وقال كذلك: أيها الإنسان الشقى: إن أردت أن تجد الحياة، تمسك بالإيمان والتواضع، لكى تجد بهما رحمة ومعونة وصوتاً من الله فى قلبك.. وإن أردت أن تقتنى هذين.. تمسك من مبدأ أمرك بالبساطة. واسلك قدام الله بساذجة وليس بمعرفة .

✽ ✽ ✽

★ وقال الشيخ الروحانى :

يقول النبى : الويل للحكيم فى عينى نفسه.. فكن مثل عبد عند مواليه، وليس مثل أخ عند أخوته..

كن الأول فى الأعمال التى يترفع عن عملها غيرك. وكن آخر من يرتب الأمور ويدبرها.

البس التواضع فى كل حين، وهو يجعلك مسكناً لله .

★ وقال أيضاً: كما ينبغى للشباب الصوم والنسك، هكذا ينبغى للشيوخ الاتضاع والتنازل. لأجل أنه دائماً يلصق بهم الظن والمجد الباطل. وإلى جهاد النفس يحتاجون، أكثر من جهاد الجسد.

★ وقال أيضاً : الكنز المخفى فى الأرض لا ينقص، ولا يُخاف عليه من السارقين. وكنز المعرفة داخل القلب، ما تسلبه أفكار المجد الباطل .

✽ ✽ ✽

وقال مارافرام :

كما أن الجسد يحتاج إلى ثوب، سواء كان الجو دافئاً أو بارداً.. كذلك النفس على الدوام تحتاج إلى رداء الإتضاع .

قنية نفيسة هى تواضع العقل.. اختر أن تمشى عارياً حافياً، من أن تتعرى منه. فإن الذين يحبون التواضع، يسترهم الرب .

★ وقال أيضاً : إذا شاهدت نفسك مكللاً بالفضائل وعالياً فيها، فحينئذ تحتاج بالأكثر

إلى تواضع العقل، لكي تضع أساساً سليماً لعملك، ويثبت البناء مصاناً غير متزعزع .
* لا تعظم شأن نفسك، لأنه ربما توافيك محنة فتوبخ الظانين فيك حسناً. حب التواضع
فإنه سور لا يُنقَب قدام وجه العدو، وصخرة مصادمة تكسر حيل الشيطان .

✽ ✽ ✽

***قال القديس مقاريوس الكبير :**

الصوم بدون صلاة واتضاع ، يشبه نسرأ مكسور الجناحين .

✽ ✽ ✽

***وقال ماراسحق :**

إذا سلكت في عمل الفضيلة حسناً، ولم تحسن مذاقة معونتها، فلا تعجب من ذلك. لأنه
إن لم يتضع الإنسان، لن يأخذ مكافأة عمله. المكافأة ليست تُعطى للعمل، بل بالاتضاع.
والذي فقد الاتضاع، فقد ضيَع تعبه وعمله .

وقال أيضاً : إن عبرت على جميع منازل الفضيلة، فإنك لن تصادف راحة من تعبك،
ولا اعتناقاً من حيل أعدائك، إلى أن تصل إلى منزل الإِتضاع .

✽ ✽ ✽

***قال القديس الأنبا أنطونيوس :**

"إن نسينا خطايانا، يذكرها لنا الله. وإن ذكرنا خطايانا، لا يذكرها لنا الله".
لذلك احذر من أن تنسى خطاياك، لئلا تنتفخ وتظن في نفسك الظنون، أو تصير باراً
في عيني نفسك.

وإن حوربت بالبر الذاتي والكرامة، فقل لنفسك : أنا لا استحق شيئاً بسبب خطاياي..
وإن كان الله من فرط محبته ورحمته قد ستر خطاياي على الناس، لكنني أعرفها جيداً ولا
أنساها، لئلا أتكبر باطلاً .

✽ ✽ ✽

***قال القديس أيسونورس :**

إن شرف التواضع عظيم، وسقوط المتعاضم فظيع جداً. وأنا أشير عليكم أن تلتزموا
التواضع، فلن تسقطوا أبداً.

✽ ✽ ✽

***وقال القديس أوغسطينوس :**

اتضع في إلهك المتضع ، لكيما ترتفع في إلهك الممجد .

إحذر من التواضع الزائف

ليس التواضع مجرد كلمة ، إنما هو حياة لها قواعدها الروحية، ولها ارتباط بعدد كبير من الفضائل تكون سبباً للإتضاع أو يكون الإتضاع سبباً لها.. وعلينا أن نتأمل كل هذا، ونعرف الوسائل التي توصلنا إلى التواضع ونمارسها .

وأولاً نعرف التواضع الحقيقي ، ونبعد عن التواضع الزائف :

فكثيرون يستخدمون ألفاظ التواضع، وهم بعيدون كل البعد عن روح الإتضاع. وقد يقولون إنهم خطاة ضعفاء، ولا يحتملون إطلاقاً أن يقال لهم مثل هذا. وقد ينحنون برؤوسهم أمام غيرهم. وقلوبهم لا تنحني أبداً ولا أفكارهم.

✱ ✱ ✱

عجبت ذات مرة حينما قرأت افتتاحية إحدى المجلات القبطية. وكان الكاتب يتحدث عن تواضع السيد المسيح أثناء عماده، وكيف أنه إنحنى أمام المعمدان الذى هو أقل منه بما لا يقال. وذلك لكي يكمل كل برّ.

وإذا بالكاتب يختم مقاله بعبارة "اعطنا يارب نحن أيضاً أن ننحني أمام من هم أقل منا، لكي نكمل كل برّ"! مادام هو فى أعماقه يعتقد أنهم أقل منه، فهل يُحسب إنحناؤه اتضاعاً!! بينما القلب مرتفع عليهم من الداخل ينظر إليهم فى استصغار...!!

✱ ✱ ✱

وهناك قصة رواها يوحنا كاسيان عن القديس سرابيون الكبير :

وكيف أن أحد الرهبان الجائلين قد زاره. فلما دعاه القديس إلى أن يبدأ الصلاة أو

التأمل في الكتاب، قال إنه غير مستحق. ولما دعاه إلى الجلوس على الحصير بدلاً من جلوسه على التراب، قال أيضاً إنه غير مستحق. ثم نصحه القديس أن يثبت في قلايته، ولا يجول هنا وهناك، حينئذ لم يحتمل، وأحمر وجهه مثل السبع. فقال له القديس سراييون.

"ليس التواضع يا ابني، أن تلوم نفسك ملامة باطلة..! إنما التواضع هو في احتمالك الملامة التي تأتيك من الآخرين".

ولعل حكمة القديس تظهر في أن البعض قد يصف نفسه بأوصاف متضعة، هو لا يعتقد في نفسه. أو أنه يصف نفسه بالخطية والضعف؛ لكي يقول الناس عنه إنه متواضع، فيكسب بذلك مدح الآخرين!! ولو قيلت عنه هذه الصفات لغضب. ولو عرف أن الناس سيصدقون ما يقول عن نفسه من عيب، ما كان يقول ذلك مطلقاً. أما أنت فليكن لك التواضع الحقيقي باقتناع داخلي صادق أنك كذلك: فيك ما تصف به نفسك من نقص .

* * *

قال ماراسحق محذراً من اتخاذ ألفاظ الاتضاع وسيلة للكبرياء:

"إن حقرت نفسك لكي تكرم، الرب يفضحك..".

"وإن أنت امتهنت ذاتك لأجل الحق، فإن الرب يتقدم إلى براياه فيمدحونك، ويفتحون قدامك باب مجده الذي يتكلم به منذ الأزل، ويمجدونك كالباري لأنك بالحقيقة تكون على صورته ومثاله".

تواضع الله

أكلمكم اليوم عن أعظم مثل للتواضع، أو هو المثل الحقيقي للتواضع. وأعنى به تواضع الله تبارك اسمه. وكيف ذلك؟

إن الله هو الوحيد الذى يمكن أن يتواضع بحق .

لأنه هو الوحيد العالى جداً، الذى يتنازل من علوه ...

أما الإنسان الذى هو تراب ورماد (تك ١٨ : ٢٧)، والذى كان عدماً قبل أن يكون تراباً. الإنسان الذى كله خطية وإثم، ما هو معنى التواضع بالنسبة إليه؟ ليس هو فى علو لكى ينزل منه، وليس فى كمال حتى يخفيه.. إنما التواضع بالنسبة إليه، هو أن يعرف أصله ويعرف ضعفه، ويعرف خطيته. وكما قال أحد الآباء :

تواضع الإنسان هو أن يعرف نفسه ...

أما الله فهو الكامل فى عظمته، الكامل فى قداسته وفى قدرته، غير المحدود فى كماله.. فهو الوحيد الذى تليق به صفة التواضع . فكيف إذن ظهر تواضع الله، على قدر ما نفهم تواضعه؟ ونقصد تواضع الله بصفة عامة، وتواضع كل أقدوم على حده :

✱ ✱ ✱

✱ كان الله متواضعاً فى خلقه للكائنات . فلم يشأ أن ينفرد وحده بصفة الوجود،

فمنح الوجود لغيره..

كان وحده منذ الأزل .. ولم يرد - فى تواضعه - أن يظل وحده. فأتشرك معه فى

الوجود ما لم يكن ...

كثير من الناس - إن وُجد أحد منهم في عظمة أو في منصب - يجمع كل السلطة في يده، ولا يُشرك معه أحداً في عمل أو تصرف..! أما الله، فلم يفعل هكذا، ولم يشأ أن ينفرد. ومنح العدم وجوداً. ومنح البعض منه حياة، بل أيضاً منحه قوة وسلطة!!

✱ ✱ ✱

★ ومنح البعض من مخلوقاته طبيعة سامية جداً .

مثال ذلك الملائكة "المقندرون قوة" كما وصفهم المرتل في المزمور (مز ١٠٣ : ٢٠). بل أن واحداً منهم - سطانائيل - الذي صار شيطاناً فيما بعد، قال عنه الرب في سفر حزقيال النبي "أنت خاتم الكمال. ملآن حكمة، وكامل الجمال.. أنت الكاروب المنبسط المظلل.. أنت كامل في طرقك، من يوم خلقت حتى وُجد فيك إثم" (حز ٢٨ : ١٢ - ١٥).

✱ ✱ ✱

★ ومن تواضع الله أن الكائنات التي تمردت عليه ، لا يزال يبقئها حتى الآن، ويسمح أن يكون لها سلطان وقدره !!

خذوا مثلاً ذلك الشيطان: تمرد على الله، وأراد أن يصير مثل العليّ (أش ١٤ : ١٤). واسقط معه عدداً كبيراً من القوات السماوية، قيل إنهم ملائكته (رؤ ١٢ : ٧). وكان بإمكان الله أن يفنيه. ولكن من تواضع الله أنه لم يقض على هذا العدو المقاوم، بل استبقاه. وترك له سلطاناً، كما قيل عن الأشرار "هذه ساعتكم وسلطان الظلام" (لو ٢٢ : ٥٣). والأكثر من هذا إنه صارت له قوة أن يصنع آيات وعجائب، كما قيل عن ضد المسيح في أيام الارتداد الأخير إن "مجيئه بعمل الشيطان بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة، وبكل خديعة الإثم في الهالكين" (٢ تس ٢ : ٩ ، ١٠).

وكلما أتأمل كيف أن في العالم أناساً يشتمون الله، ويجدفون عليه ليل نهار، وأناساً ينكرون وجود الله، ولا يعترفون به، وأناساً يعصون الله ويحرضون على عصيانه.. ومع ذلك يحتمل الله كل هذا السب والتجديف والعصيان، دون أن يفنى مقاوميه.. أدرك في أعماقي مقدار التواضع العجيب الذي يتصف به الله ...

✱ ✱ ✱

★ ومن تواضع الله ، أنه يبعد عن مظاهر العظمة التي تجلب المديح وتبهر الناس. مثال ذلك ندرة استخدامه للمعجزات!

بإمكان الله أن يبهر الناس كل يوم وكل ساعة وكل لحظة بالمعجزات والآيات

والعجائب، وبالرؤى والاستعلانات والظهورات المقدسة.. فيجعلهم يلهجون بمجده، ويسجدون أمام قدرته، وعلى الأقل يعترفون بوجوده. ولكنه مع ذلك لم يفعل! ويقتصر اجتراح المعجزات على الضرورات النادرة..! إنه يريد أن يجذب الناس إليه بالحب والافتتاع، وليس بالعجائب والمعجزات والعظمة...

✽ ✽ ✽

★ الله أيضاً فى تواضعه ، يسمح لأقل الناس أن يخاطبه !

عجيب أن يجد "التراب والرماد" فرصته ليتحدث مع الله، الله الذى تقف أمامه الملائكة ورؤساء الملائكة والشاروبيم والسارافيم، وكل الجمع غير المحصى الذى للقوات السماوية، بكل توقير وخشية...

قد يجد الإنسان صعوبة فى كثير من الأحيان، أن يتحدث مع تراب مثله، إن كان ذلك التراب له منصب عالٍ أو مركز كبير! أما الله فيمكنك أن تكلمه وأن تتفاهم معه. بل من الجائز أن تكلمه، وقد كسرت وصاياها منذ دقائق أو لحظات!

✽ ✽ ✽

وفى تواضع الله ، سمح أن يتحدث حتى مع أشر الخطاة !

تنازل وتكلم مع قايين ، أول قاتل على وجه الأرض. ولما قال له قايين "إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض.. فيكون كل من وجدنى يقتلنى"، أجابه فى عدل وعطف "كل من قتل قايين، فسبعة أضعاف ينتقم منه" (تك ٤: ١٤ ، ١٥).

✽ ✽ ✽

وتنازل الله ، فأرسل ملاكاً يتكلم مع بلعام .. وذلك الإنسان المضل الذى أعرس الشعب وألقى معثرة أمامه وجعله يخطئ (رؤ ٢: ١٤) ... سمح الله بتواضعه أن ينطق الروح القدس على فمه بنبوءات تعد من أشهر النبوءات عن التجسد (عد ٢٤: ١٧) .. حتى أن هذا المضل قال عن نفسه "وحى بلعام بن بعور، وحى الرجل المفتوح العينين، وحى الذى يسمع أقوال الله، الذى يرى رؤى الله، مطروحاً وهو مكشوف العينين" (عد ٢٤: ٣ ، ٤) وقال إنه "يعرف معرفة العلى" (عد ٢٤: ١٦)!

✽ ✽ ✽

والله فى تواضعه ، يأخذ موقف من يستشير أنبيائه :

فعندما رأى أن "صراخ سادوم وعمورة قد كثر، وخطيئتهم قد عظمت جداً" (تك ١٨: ٢٠)، وأراد أن يهلكهم، قال "هل أخفى عن إبراهيم ما أنا فاعله؟! (تك ١٨: ١٧). ومن

هو ابراهيم هذا الذي تريد يارب أن تخبره قبل أن تُجرى مشيئتك؟ أليس هو حفنة من تراب ورماد؟ كلا، يقول الرب، بل "ابراهيم يكون أمة كبيرة وقوية، وتبارك به جميع أمم الأرض" (تك ١٨ : ١٨).

ويعرض الرب على ابراهيم، ويعطيه الفرصة والحزية أن يجادله، وأن يقول له "عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة.. حاشاً لك أن تفعل هذا الأمر، أن تبيد البار مع الأثيم، فيكون البار كالأثيم! حاشاً لك. أديان الأرض كلها لا يصنع عدلاً!" (تك ١٨ : ٢٤ - ٢٥). وتستمر المناقشة، ويقبل الرب الحوار، بل يقبل بتواضعه الجراءة في الحوار!

✱ ✱ ✱

ويتكرر الأمر مع موسى النبي عندما أراد الرب أن يفنى ذلك الشعب، الذي صنع عجلاً من ذهب وعبده (خر ٣٢).

كان الرب قد قرر إفناء ذلك الشعب الخائن. ولكنه نادى موسى أولاً. وقال له "قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر. زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به. صنعوا عجلاً مسبوكاً وسجدوا له، وذبحوا له، وقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر.. فالآن اتركني ليحمي غضبي عليهم وأفنيهم..". (خر ٣٢ : ٧-١٠).

عجيب هو تواضع الرب في قوله لعبده موسى "أتركني..".

من هو هذا موسى يارب الذي تطلب إليه أن يتركك لتنفيذ مشيئتك؟! على أن موسى هذا لم يتركه ليغضب ويفنى. بل قال له "والآن إن غفرت خطيتهم. وإلا فامحني من كتابك الذي كتبت" (خر ٣٢ : ٣٢)!! وسمع الرب لموسى، ولم يفنهم.

يذكرني هذا الموقف بقصة الرب مع يعقوب وهو يصارعه: إذ قال الرب ليعقوب "اطلقني، فإنه قد طلع الفجر" فقال يعقوب "لا أطلقك حتى تباركني" (تك ٣٢ : ٢٦).

✱ ✱ ✱

ونلاحظ في تواضع الرب مع ابراهيم وموسى نقطة هامة وهي :

★ إن الله سمح لهما في حوارهما معه بألفاظ تبدو شديدة .

ابراهيم يقول للرب "حاشاً لك أن تفعل مثل هذا الأمر.. أديان الأرض كلها لا يصنع عدلاً!" (تك ١٨). وموسى يقول للرب "ارجع يارب عن حمو غضبك واندم على الشر" "لماذا يتكلم المصريون قائلين : أخرجهم بخبث، ليقتلهم في الجبال، ويفنيهم عن وجه الأرض!" (خر ٣٢ : ١٢).

★ إن الرب فى تواضعه يسمح لنا أن نناقشه ، بل يطلب منا ذلك بقوله : "هلم نتحاجج، يقول الرب" (أش ١ : ١٨).

هناك أناس لا يقبلون أن يناقشهم أحد فيما يصدرونه من أوامر ومن قرارات. يعتبرون ذلك كبرياء ممن يناقشهم، وتجاوزاً لحدوده. وإقلاقاً من كرامتهم وهيبتهم. أما الله فإنه فى تواضعه يقبل الحوار والنقاش:

✱ ✱ ✱

أيوب الصديق يقول للرب "لا تستذنبنى. فهمنى لماذا تخاصمنى؟ أحسن عندك أن تظلم، أن ترذل عمل يديك؟" (أى ١٠ : ٢، ٣).

وأرميا النبى يقول له "أبرّ أنت يارب من أن أخاصمك، ولكنى أكلّمك من جهة أحكامك: لماذا تتجح طريق الأشرار؟ اطمأن كل الغادرين غدراً!" (أر ١٢ : ١).

وداود النبى يعاتبه قائلاً "لماذا يارب تقف بعيداً؟ لماذا تختفى فى أزمنة الضيق؟" (مز ١٠ : ١).

والرب يسمع كل هذا، بتواضعه وسعة صدر، ولا يغضب .

✱ ✱ ✱

★ ومن تواضع الرب إنه يرفع شأن أولاده. وقد يعطيهم ألقابه.

يقول لعبده موسى "أنظر. قد جعلتك إلهاً لفرعون (أى سيداً له). وهرون أخوك يكون نبيك" (خر ٧ : ١). ولما اعتذر موسى عن ارساليته، بحجة أنه ثقيل الفم واللسان، منحه هرون أخاه، وقال له "تكلمه وتضع الكلمات فى فمه، وأنا أكون مع فمك ومع فمه.. هو يكلم الشعب عنك، وهو يكون لك فماً، وأنت تكون له إلهاً (أى توحى إليه) [خر ٤ : ١٥-١٧].

✱ ✱ ✱

وعندما أراد الله أن يكون لموسى سبعون شيخاً يساعدونه، قال له: "إجمع إلى سبعين رجلاً من شيوخ اسرائيل الذين تعلم أنهم شيوخ الشعب وعرفاؤه.. فأنزل أنا وأتكلم معك.. وأخذ من الروح الذى عليك، وأضع عليهم" (عد ١١ : ١٦، ١٧).. وفعل الله هكذا (عد ١١ : ٢٥). كان يمكنه أن يمنحهم الروح مباشرة. ولكنه أخذ من الروح الذى على موسى ووضع على السبعين. فلما حلّ عليهم الروح تتبأوا (عد ١١ : ٢٥) . من تواضع الله، أراد أن يشعر أولئك الشيوخ أنهم من أتباع موسى، قد أخذوا من الروح الذى عليه...

وبنفس الوضع رفع الرب من شأن يوسف الصديق، وجعله أباً لفرعون، وسيداً لكل بيته' (تك ٤٥ : ٨).

✱ ✱ ✱

✱ والشريعة التي هي شريعة الله، تسمى شريعة موسى .

وهكذا فإن داود الملك قال قبل وفاته لابنه سليمان، "احفظ شعائر الرب إلهك.. كما هو مكتوب في شريعة موسى، لكي تفلح في كل ما تفعل..". (١مل ٢ : ٣). وسميت أيضاً "شريعة موسى" في سفر نحemia (نح ٨ : ١). وفي سفر دانيال النبي (دا ٩ : ١١). إنها شريعة الله. ولكن من تواضعه سميت شريعة موسى .

✱ ✱ ✱

✱ وأسفار الأنبياء أيضاً سميت باسمائهم ، مع أنها كتب الله .

ولكن الله - من تواضعه - سمح أن تُطلق عليها أسماؤهم. فيقال سفر صموئيل النبي، وسفر اشعيا، وارميا، وحزقيال، ودانيال، وملاخي .

وربنا يسوع المسيح يقول للكتبة والفريسيين "إن موسى - من أجل قساوة قلوبكم - أذن لكم بالطلاق" (مت ١٩ : ٨)... مع أن الإذن صدر من الله.. ولكن لا مانع أن يُنسب إلى موسى، تواضعاً من الله، ورغبة منه في أن يرفع من شأن أولاده ...

✱ ✱ ✱

وبعد ، يعوزنا في الحديث عن تواضع الله، أن نتحدث عن تواضع أقتوم الابن، وأقتوم الروح القدس.

تواضع الابن ، وتواضع الروح القدس

تواضع الابن :

١ - أول شيء نذكره في تواضعه هو تجسده :

وفي ذلك يقول القديس بولس الرسول عن السيد المسيح إنه "لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلى نفسه، آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس. وإذ وُجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه.." (فى ٢: ٦ - ٨) ... أى أنه أخلى نفسه من كل مظاهر العظمة والكرامة اللائقة بلاهوته، متخذاً صورة العبد. أى تواضع يمكن أن يُوجد أكثر من هذا؟
وفي هذا التواضع حكمة التدبير الإلهي: فمادامت الخطية الأولى التي دخلت إلى العالم كانت هي الكبرياء، سواء بالنسبة إلى الشيطان أو الإنسان، لذلك كان يليق بالمخلص أن يقهرها بالاتضاع ...

وهكذا كان تجسده هو أعظم عمل في الإلتضاع. وبه أخزى الرب تلك الكبرياء التي أغوى بها الشيطان أبونا الأولين، بأن يصيرا مثل الله (تك ٣: ٥). ورداً على أن يصير الإنسان مثل الله، صار الله في الهيئة كإنسان بتواضعه .

✱ ✱ ✱

٢ - ومن اتضاع الرب أيضاً أنه وُلد في مزود بقر .

في مكان حقير، ومن أم فقيرة، خُطبت إلى نجار فقير. ومن قرية كانت "الصغرى في يهوذا" هي بيت لحم (مت ٢: ٥ ، ٦). ولم يخجل من أن يُدعى ناصرياً، بينما يُقال في

استعجاب "أمن الناصرة يمكن أن يكون شئ صالح!" (يو ١ : ٣٦).

✱ ✱ ✱

٣ - وفي تواضعه عاش بعيداً عن المظاهر والألقاب :

رضى أن يهرب من سيف هيرودس إلى مصر، بينما كان يمكنه أن يبني هيرودس.
وعاش ثلاثين سنة بعيداً عن الأضواء .

ومع أنه أقنوم الحكمة والمعرفة، "المذخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم" (كو ٢ : ٣)،
رضى أن يقال عنه "وأما يسوع فكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس"
(لو ٢ : ٥٢).

وطوال فترة كرازته عاش "وليس له أين يسند رأسه" (لو ٩ : ٥٨). بلا أية وظيفة
رسمية في المجتمع، يتبعه تلاميذ بسطاء، غالبيتهم من الصيادين والجهلة. ولما ذهب إلى
أورشليم، ذهب إليها راكباً على أتان وجحش ابن اتان" (مت ٢١ : ٥).

✱ ✱ ✱

٤ - وعاش أيضاً خاضعاً للناموس ، ودعا إلى حفظه .

أليس هو القائل "لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس والأنبياء. ما جئت لأنقض بل
لأكمل. فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض، لا يزول حرف واحد أو نقطة
واحدة من الناموس حتى يكون الكل" (مت ٥ : ١٧ ، ١٨) .

وفي خضوعه للناموس أختتن في اليوم الثامن (لو ٢ : ٢١). وفي يوم الأربعين لولادته
"صعدوا به إلى أورشليم ليقدّموه للرب، كما هو مكتوب في ناموس الرب" "ولكى يقدموا
ذبيحة كما قيل في ناموس الرب، زوج يمام أو فرخي حمام" (لو ٢ : ٢٢ ، ٢٣).
وحسب الناموس لم يبدأ خدمته الرعوية إلا في الثلاثين من عمره .

حسب السن الناضجة المفروضة في أي إنسان. مع أنه قيل عنه وهو في الثانية عشرة
من عمره، وجدوه في الهيكل "جالساً في وسط المعلمين يسمعون ويسألهم. وكل الذين
سمعوه بهتوا من فهمه ومن أجوبته" (لو ٢ : ٤٦ ، ٤٧).

✱ ✱ ✱

٥ - ومن تواضعه أنه تقدم ليعتمد من يوحنا المعمدان .

كانت تلك المعمودية التوبة. وما كان هو محتاجاً إليها وهو القدوس (لو ١ : ٣٥) الذي في
تجسده شابها في كل شئ ما عدا الخطية. وقد قبل المعمودية من أحد خدامه، أعني يوحنا
الذي حاول أن يعتذر عن ذلك قائلاً له "أنا المحتاج أن اعتمد منك، وأنت تأتي إلي! فأجابه

فى اتضاع "اسمح الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر" (مت ٣: ١٤، ١٥). يقصد برّ
الناموس، وقد خضع له تواضعاً ...

✱ ✱ ✱

٦ - ومن تواضعه سمح للشيطان أن يجربه !

ولست تجربة واحدة بل ثلاث مرات على الجبل. وبلغ من عمق اتضاعه وإخلائه
لذاته، أن الشيطان "أخذه إلى جبل عال جداً، وأراه جميع ممالك العالم ومجدها. وقال له
"أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لى" (مت ٤: ٨، ٩). بالجرأة الشرير ووقاحته فى
استغلاله لتواضع الرب. لذلك بعد أن ردّ الرب عليه بما هو مكتوب، أنتهره قائلاً "أذهب يا
شيطان". فذهب. ولكن القديس لوقا يقول فى ذلك "ولما أكمل أبلّيس كل تجربة، فارقه إلى
حين" (لو ٤: ١٣). أى رجع بعدها!

✱ ✱ ✱

٧ - وفى اتضاع الابن الوحيد ، اللوجوس عاش فى حياة الطاعة :

قال عنه القديس بولس الرسول إنه "وضع نفسه وأطاع حتى الموت، موت الصليب"
(فى ٢: ٨). وهو قال عن نفسه لتلاميذه "لى طعام لأكل لستم تعرفونه أنتم.. طعامى أن
أعمل مشيئة الذى أرسلنى، وأتم عملهُ" (يو ٤: ٢٢، ٢٤). وقال لليهود "الحق الحق أقول
لكم: لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً، إلا ما ينظر الأب يعملهُ..". (يو ٥: ١٩). وقال
للآب "لنكن لا مشيئتى بل مشيئتك". وقال "ليس كما أريد أنا، بل كما تريد أنت" (مت ٢٦:
٣٩).

✱ ✱ ✱

وطاعته لم تكن للآب السماوى فقط، بل أيضاً لأمه مريم.

قيل فى طفولته ، بالنسبة إلى علاقته بمريم العذراء ويوسف النجار: "وكان خاضعاً
لهما" (لو ٢: ٥٤). أنه درس لنا، هذا الذى كانت الملائكة خاضعة له" (مر ١: ١٣) (١بط ٣:
٢٢).

✱ ✱ ✱

٨ - ومن تواضعه : أنه كان يجلس مع العشارين والخطاة :

هؤلاء الذين كان الكتبة والفريسيون يحتقرونهم ويترفعون عن مخالطتهم. ولكن الرب
اختار واحداً من هؤلاء (متى) ليكون له تلميذاً. وبهذه المناسبة اتكأ فى وليمة أعدها أولئك
العشارون، حتى أنتقده الفريسيون (مت ٩: ٩ - ١١). فأجاب الرب فى اتضاعه "أنى أريد

رحمة لا ذبيحة. لأنى لم آت لادعو ابراراً بل خطاة إلى التوبة" (مت ٩: ١٣).

وهكذا أيضاً دعا زكا العشار ودخل إلى بيته .

ومن تواضعه أنه إتكا في بيوت أعدائه من الفريسيين، كزيارته لبيت سمعان الفريسي
وسماحه للمرأة الخاطئة أن تلمسه وتمسح قدميه بشعرها، مما أثار شك ذلك الفريسي (لو ٧).

✱ ✱ ✱

٩ - ومن تواضع الرب أنه كان يسلك ببساطة مع الكل .

كان يسلك ببساطة مع الأطفال، ومع النساء، ومع عامة الشعب: يكلمهم ببساطة، بلا
تعالٍ ولا ترفع، كواحد من البشر .

وكان يدعو نفسه ابن الإنسان، أو ابن البشر، في كثير من المناسبات. وقد قيل عنه في
وداعته إنه كان "لا يخاصم ولا يصيح، ولا يسمع أحد في الشوارع صوته. قصبه
مرضوخة لا يقصف، وفتيلة مدخنة لا يطفى" (مت ١٢: ١٩، ٢٠).

✱ ✱ ✱

١٠ - ومن تواضعه أنه رفض عمل المعجزات للمظهيرية والفرجة .

مثل رفضه تحويل الحجارة إلى خبز، ورفضه أن يلقي نفسه من جناح الهيكل، فتحمله
الملائكة على أجنحتها (مت ٤).

ولما طلب منه اليهود أن يروا آية منه كموضوع للفرجة Showy، قال لهم "جيل شرير
وفاسق، يطلب آية ولا تُعطى له آية إلا آية يونان النبي. لأنه كما كان يونان في بطن
الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض.." (مت ١٢: ٣٩).
موجهاً أنظارهم إلى موته، لا إلى معجزاته .

✱ ✱ ✱

١١ - ومن تواضعه أنه مجد تلاميذه :

فقال للآب عنهم "المجد الذى أعطيتنى، قد أعطيتهم" (يو ١٧: ٢٢). بل قال لهم أكثر
من هذا "الحق الحق أقول لكم: من يؤمن بى، فالأعمال التى أنا أعملها، يعملها هو أيضاً،
ويعمل أعظم منها.." (يو ١٤: ١٢). وقال عنه القديس بولس الرسول "الذين سبق فعرفهم،
سبق فعينهم.. فهؤلاء مجددهم أيضاً" (رو ٨: ٢٩، ٣٠).

أعطاهم أيضاً أن تبنى كنائسه ومذابحه بأسمائهم، وأن ترسم لهم الأيقونات وتوقد أمام
أيقوناتهم الشموع، وترتل لهم المدائح والذكصولوجيات ...

✱ ✱ ✱

١٢ - ومن تواضعه أن نعمته تعمل في الناس باختفاء .

عملهم هم هو الذى يظهر . أما نعمة الرب العاملة فيهم، فلا يراها أحد. وقد كشف لنا هذا الأمر القديس بولس الرسول حينما قال: "ولكن بنعمة الله أنا ما أنا. ونعمته المعطاة لى لم تكن باطلة، بل أنا تعبت أكثر من جميعهم. ولكن لا أنا، بل نعمة الله التى معى" (١كو١٥: ١٠).

✱ ✱ ✱

١٣ - ومن تواضعه أنه احتمل ظلم الأشرار، وقبِلَ الإهانات فى صمت .

سُتِمَ ولطم، وأهين، وجلد، وأتهم ظلماً. وقبِلَ كل ذلك دون أن يدافع عن نفسه.. ودون أن يرد عليهم شرهم. وقد قيل عنه "ظلم". أما هو فتذلل ولم يفتح فاه، كشاه تساق إلى الذبح" (أش ٥٣: ٧). وصلب بين لصين "وأحصى مع أئمة" (أش ٥٣: ١٢).

✱ ✱ ✱

١٤ - وفى اتضاعه حمل خطايا العالم :

"هذا الذى لم يعرف خطية، جُعِلَ خطية لأجلنا" (٢كو٥: ٢١). حمل خطايا العالم كله. "كلنا كغنم ضللنا. ملنا كل واحد إلى طريقه، والرب وُضِعَ عليه إثم جميعنا. ونحن حسبناه مصاباً ومضروباً من الله" (أش ٥٣: ٤، ٦). وهكذا صُلب كفاعل إثم وهو البار. ورضى أن يكون أمام الأب ذبيحة خطية.

✱ ✱ ✱

١٥ - ومن تواضعه أنه جعل صلبه واضحاً أمام الناس كلهم. بينما قيامته الممجة

لم يظهرها إلا لأفراد قليل!

وكان يمكن أن تكون تلك القيامة واضحة للكل، بطريقة مبهرة ترد إليه اعتباره أمام اليهود. ولكنه فى اتضاعه لم يفعل ذلك. وترك لتلاميذه أن يبشروا بقيامته وسط شكوك آثارها اليهود ...

✱ ✱ ✱

١٦ - لهذا كله ، دعانا أن نتعلم منه الإِتضاع :

وقال "تعلموا منى ، فإنى وديع ومتواضع القلب" (مت ١١: ٢٩). فجعل أهم ما نتعلمه منه هو الإِتضاع. وفى عظته على الجبل، أعطى الطوبى الأولى للمسكنة بالروح. ثم أعطى الطوبى للودعاء (مت ٥).

تواضع الروح القدس :

١٧ - من تواضع الروح القدس أنه يعمل كل شئ في بناء الكنيسة في سرية واختفاء. فتسمى أعماله هذه بالأسرار الكنسية.

يلد الإنسان الجديد في المعمودية، ويمنحه المغفرة والبنوة دون أن يظهر. وكذلك في سر الميرون يسكن في المؤمن دون أن يظهر. وبالمثل يغفر الخطايا من فم الكاهن دون أن يظهر. وهكذا في باقى أسرار الكنيسة.

✱ ✱ ✱

١٨ - ومن تواضع الروح القدس إنه يتكلم من أفواه الرسل، وينطق فى الأنبياء دون أن يظهر أيضاً .

كما قال السيد المسيح لتلاميذه "لأن لستم أنتم المتكلمين، بل روح أبيكم هو الذى يتكلم فيكم" (مت ١٠ : ٢٠). ولكن الظاهر طبعاً أمام الناس أن الرسل يتكلمون. أما عمل الروح فهو فى الخفاء.

كذلك قيل عن النبوءات "لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان، بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس" (٢بط ١ : ٢١). ولكن عمل الروح القدس لا يراه أحد. بل يسمعون النبوة من إنسان .

✱ ✱ ✱

١٩ - بنفس الاتضاع القوة التى يمنحها الروح القدس للخدام .

كما قال السيد المسيح لتلاميذه القديسين "لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم. وحينئذ تكونون لى شهوداً.." (أع ١ : ٨). والناس كانوا يرون قوة شهادة الرسل ويمدحونهم ويتأثرون بهم . أما عمل الروح القدس فيهم، فكان فى اختفاء، لا يرونه.

✱ ✱ ✱

٢٠ - وفي اتضاع أيضاً كان الروح القدس يمنح المواهب .

والناس يرون أصحاب المواهب، ويعجبون بهم ويمتدحونهم . بينما من جهة هذه المواهب كلها يقول الكتاب "لكن هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه، قاسماً لكل واحد بمفرده كما يشاء" (١كو١٢ : ١١). ولكن الظاهر هو أصحاب المواهب. أما الروح فعمله في اختفاء...

✱ ✱ ✱

٢١ - هكذا كان الروح القدس يعمل في الكنيسة، والذي يظهر كان هو عمل

الكنيسة. أما الروح فكان يعمل العمل كله في سرية واختفاء .

اقرأ التاريخ كله، وما يحمله من تمجيد لأبطال الإيمان وللكارزين، وآباء الرهبنة، ومعلمي البيعة، بل تقديسي التوبة أيضاً. نرى أن التاريخ يمجدهم ويرفع شأنهم. بينما يرجع الفضل كله إلى عمل الروح فيهم - ذلك الذي عمله الروح تواضعاً في اختفاء...

✱ ✱ ✱

٢٢ - ومن تواضع الروح أنه يرضى أن يسكن في أجسادنا البشرية .

كما يقول الرسول "أم لستم تعلمون أن جسديكم هو هيكل الروح القدس الذي فيكم..". (١كو٦ : ١٩) وأيضاً "أما تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم" (١كو٣ : ١٦). من نحن التراب والرماد؟ وما هي أجسادنا؟ حتى يسكن فيها روح الله؟! أليس هذا تواضعاً منه؟!

✱ ✱ ✱

٢٣ - ومن تواضع الروح القدس أنه يحتملنا :

يحتملنا ونحن نحزن الروح (أف٤ : ٣٠)، ونطفئ الروح (١تس٥ : ١٩)، ونقاوم الروح (أع٧ : ٥١) بل نرفض الشركة مع الروح بخطايانا! فليرحمنا الله ، وليجدد روحه فينا .

الباب الثاني :

وَحَائِلُ الْأَرْضِ وَعَلَامَاتُهُ

واحد وأربعون
علامة ووسيلة

وسائل الإلتضاع وعلاماته

نود أن نذكر الآن منهاجاً واسعاً ومختصراً عن تداريب للإلتضاع، على أن نرجع بشئ من التفاصيل لهذه النقاط التي سنذكرها:

١ - إن كانت الكبرياء هي في الاعتداد بالذات وتعظيمها، يكون التواضع في إنكار الذات.

وتداريب إنكار الذات كثيرة جداً ليس مجالها الآن. وقد وضع السيد الرب إنكار الذات في مقدمة شروط التلمذة له. فقال "إن أراد أحد أن يأتي ورائي، فليُنكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني" (مت ١٦ : ٢٤). ولاشك أنه بإنكار الذات يصل الإنسان إلى التواضع. لأن الذي ينكر ذاته، لا يمكن أن يبحث لها عن مجد أو عظمة..

✱ ✱ ✱

٢ - أيضاً : المتواضع المنكر لذاته، لا يدافع عن نفسه :

إنه - في الأمور التي تمسه وحده - لا يبرر نفسه في شئ. ويقبل ما يُقال عنه في صمت. مثلما فعل السيد المسيح له المجد، الذي لم يدافع عن نفسه أمام بيلاطس ولا أمام هيرودس. وكذلك فعل يوسف الصديق الذي لم يدافع عن نفسه (تك ٣٩). والقصاص كثيرة نتركها إلى موضوع خاص. والمتواضع لا يستثنى قاعدة عدم الدفاع عن النفس، إلا من أجل الغير...

✱ ✱ ✱

٣ - بل المتواضع يلوم نفسه باستمرار :

سواء بينه وبين نفسه، أو أمام الناس، باقتناع وصدق .

حدث مرة أن البابا ثاوفيلس، زار جبل نتريا الذي كان يسكنه جماعات من المتوحدين. وسأل أبا الجبل عن الفضائل التي اتقنوها.. فأجابته "صدقني يا أباي لا يوجد أفضل من أن يرجع الإنسان بالملامة على نفسه في كل شيء". حقاً إن لوم النفس هو فضيلة المتضعين.

✽ ✽ ✽

٤ - ولوم النفس يوصل إلى انسحاق النفس :

أى إلى انسحاق القلب من الداخل، إلى انسحاق الروح لشعوره في أعماقه بما في ذاته من نقائص قد تخفى على الناس ولكنها ليست خافية عليه. وهذا الانسحاق الداخلى يبعد عنه كل ألوان العظمة من الخارج، وفي نفس الوقت يقربه إلى الله كما يقول المزمور "كريم هو الرب من المنكسرى القلوب، ويخلص المنسحقين بالروح" (مز ٣٤ : ١٨). وأيضاً "الذبيحة لله هي روح منكسرة. القلب المنكسر والمتواضع، لا يرذله الله" (مز ٥١ : ١٧).

✽ ✽ ✽

٥ - ومن مظاهر الانسحاق ، الشعور بعدم الاستحقاق :

كما قال الابن الضال وهو راجع إلى أبيه "لست مستحقاً أن أدعى لك ابناً" (لوقا ١٥ : ٢١). وكما قال قائد المائة للسيد الرب "يا سيد، لست مستحقاً أن تدخل تحت سقف بيتي" (مت ٨ : ٨). وكما قال القديس يوحنا المعمدان عن السيد المسيح: لست مستحقاً أن أحل سيور حذائه" (يو ١ : ٢٧).

وهكذا فإن المتواضع يشعر أنه غير مستحق لكل احسانات الله إليه، ولا هو بمستحق لما يناله من الناس من الكرامة. لأنه عارف بنفسه..!

✽ ✽ ✽

٦ - وفي شعوره بعدم الاستحقاق ، يحيا حياة الشكر الدائم:

يشكر على كل شيء، لأنه متيقن في داخله أنه لا يستحق شيئاً.. لذلك كل ما يناله من الله هو بركة، مهما كان قليلاً. لأنه يعرف عن نفسه أنه لا يستحق هذا القليل أيضاً. كذلك هو يشكر على كل لون من معاملة الناس له. فإن عاملوه بإكرام، يشكرهم لأنهم

عاملوه بما لا يستحقه. وإن ظلموه أو أهانوه، يشكر على انه ينال جزاء خطاياهم على الأرض!

✱ ✱ ✱

٧ - والمتواضع الحقيقي الذي يشعر بخطيئته، يقبل كل ما يأتي عليه .

ويقول في نفسه "لو أن الله عاملني حسب خطاياي، ما كنت أستحق أن أعيش". ويرى أن كل الإهانات والمتاعب التي تصيبه، هي أقل من استحقاقه بكثير، ويقبلها بشكر... مثال ذلك داود النبي والملك: لما شتمه شمعي بن جيرا بثائم مؤلمة، رفض أن يعاقبه أتباعه، وقال: "الله قال لهذا الإنسان اشتم داود" (٢صم ١٦: ١٠). واعتبر ما حدث له نتيجة طبيعية لما سبق من خطاياهم...

✱ ✱ ✱

٨ - الإنسان المتواضع - في إنسحاقه - يجعل خطيئته أمامه في كل حين .

إنها تذله من الداخل، وتعصر عينيه بالدموع، وتزيد من إنسحاقه، وتذكره بضعفه. لا ينسى خطاياهم مهما غُفرت ومهما محاها له الله! مثلما بكى داود على خطاياهم بعد غفرانها، وقال في المزمور الخمسين "خطيئتي أمامي في كل حين" .. ومثلما ذكر بولس الرسول خطاياهم. وقال "لست مستحقاً أن أدعى رسولاً، لأني أضطهدت كنيسة الله" (١كو ١٥: ٩).

✱ ✱ ✱

٩ - المتواضع - مهما بلغ من رفعة - يشعر باستمرار أنه ناقص ومقتصر، وأنه لم يصل بعد إلى ما ينبغي عليه فعل!

القديس بولس الرسول الذي صعد إلى السماء الثالثة (٢كو ١٢: ٢)، والذي تعب أكثر من جميع الرسل (١كو ١٥: ١٠). كان يقول "لست أحسب أنني أدركت أو نلت شيئاً" "ولكني أسعى لعلى أدرك.." (في ٣: ١٢)، هذا الذي خشى الله عليه من كثرة الاستعلانات (٢كو ١٢: ٧).

والقديس أرسانيوس العظيم، الذي كان يقضى الليل كله في الصلاة، والذي كان رجل وحدة وصمت أكثر من الجميع، والذي تساقطت رموش عينيه من كثرة البكاء، والذي كان القديسيون يطلبون بركته، وقد أتاه البابا ثاوفيلس يطلب كلمة منقذة.. أرسانيوس هذا: ما كان يشعر أنه بدأ الطريق الرهباني بعد! بل كان يصلى "هبنى يارب أن أبداً!"

✱ ✱ ✱

١٠ - الإنسان المتواضع لا يتحدث عن نفسه حديثاً يجلب المديح .

نفسه هذه التى يلومها باستمرار ويعرف نقائصها، من غير المعقول أن يتحدث عن مواقف عظيمة لها تجلب المديح! إن الفريسي لم يتبرر أمام الله، لما وقف فى الهيكل يتحدث عن فضائله أمام الله فى صلاته! (لو ١٨ : ١٢).

لذلك فإنى أتعجب من إنسان حديث العهد بالتوبة، يدعو البعض أن يقف على منبر كنيسة أو جمعية، ليحكى اختباره للناس حتى ينتفخوا بها روحياً...! فيقف ويحكى كلاماً يُمدح عليه!

✽ ✽ ✽

١١ - إن كان الحديث عن النفس يفسح مجالاً للقنوة، فالإنسان المتواضع لا يجعل نفسه قنوة لغيره.

إنه يقول لنفسه "من أنا حتى أكون قنوة لغيرى؟! أنا الذى وقعت فى كذا وكذا من السقطات!". وإن كانت القنوة فى التوبة والرجوع إلى الله، فأنا لم أتب بعد. ومازلت فى الموازين إلى فوق. وفى كل يوم أسقط ...

✽ ✽ ✽

١٢ - المتواضع يشعر بتفاهة الكبرياء وخطورتها وتفاهة المجد الباطل .

فما قيمة المديح الذى يأتيه من الناس؟! ما بطلانه وما فائدته! بل كم هى أضراره الكثيرة التى تخرب النفس!.. باطله كل أمجاد الدنيا وتفاهة! "الكل باطل وقبض الريح" (جا ١ : ١٤). ليس شئ من هذه الأمجاد ثابتاً، ولا دائماً، ولا نافعاً. ولا شئ منها يصحب الإنسان فى أبديته، أو يشفع فيه أمام الله...

إن النفس الصغيرة هى التى تفرح بإعجاب الناس ومديحهم .

وكلما كبرت النفس ورجعت إلى صورتها الإلهية، لا يبهرها مطلقاً أى شئ من أمجاد العالم ومن مديح الناس... وبخاصة إذا كان ما يقوله الناس عكس ما يعرفه الإنسان عن نفسه، وعكس ما يشعر به فى داخله.

✽ ✽ ✽

١٣ - لذلك فالإنسان المتواضع يهرب من محبة المديح والكرامة .

لا يشتهى ذلك ولا يسعى إليه. وإن أتاه المديح ، لا يجعله ينحدر من أذنيه إلى قلبه. لا

يفرح به فى داخله، بل يدرك تماماً أنه غير مستحق له.. ولذلك لا يصدق، أو على الأقل لا يتأثر به مهما كان صحيحاً...

وربما يتخذ هذا المديح مجالاً لتبكيته نفسه. ويقول فى ذاته: لعلى قد صرت مرئياً إلى هذا الحد، الذى أظهر فيه للناس بغير حقيقتى!

✽ ✽ ✽

١٤ - من صفات المتواضع أنه ينسب كل أعماله الطيبة إلى نعمة الله .

إنه يرجع الفضل إلى الله فى كل خير يفعله. يقول مع القديس بولس الرسول "لا أنا، بل نعمة الله العاملة معى" (١كو١٥ : ١٠) ويتذكر قول الرب "بدونى لا تقدرون أن تعملوا شيئاً" (يو١٥ : ٥). وهكذا يحول حديث المديح إلى الله ونعمته وعمله. وإن حورب من الداخل بأنه قد فعل شيئاً، يقول لنفسه "بنعمة الله أنا ما أنا" (١كو١٥ : ١٠).

✽ ✽ ✽

١٥ - والمتواضع بقدر إمكانه يخفى بره عن الناس :

يدرب نفسه على عمل الفضيلة فى الخفاء على قدر ما يستطيع. ويهتم بالفضائل الداخلية أكثر من الفضائل الظاهرة. ويجعل أمامه قول الرب عن الذين يريدون أن يظهروا أعمالهم الحسنة للناس "الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم" (مت٦ : ٥).

✽ ✽ ✽

١٦ - بل يحاول أن يخفى بره حتى عن نفسه :

حسب قول الرب "لا تجعل شمالك تعرف ما تفعله يمينك" (مت٦ : ٣).

فمثلاً يعطى دون أن يحصى ما يعطيه.. ويحاول أن ينسى كل ما فعله من خير، حتى لا يكون ظاهراً أمامه. وحتى لا يكون فى فكره ولا فى ذاكرته. ولا تحاربه به نفسه. ولا يعتبر ذلك الخير من أعمال قدرته هو. بل الله قد فعل ذلك الخير بواسطته. وكان يمكن أن يعمله بواسطة غيره، وبطريقة أفضل.. ويتذكر نقائصه فى عمل هذا الخير، ويلوم نفسه عليها.

✽ ✽ ✽

١٧ - والمتضع يمتدح غيره لا نفسه :

فى كل عمل ناجح يقوم به، يذكر الجانب الذى ساهم به غيره فى إنجاح العمل، وأهمية ما فعله الآخرون ممتدحاً ما قاموا به، ناسياً نفسه.

وفوق الكل يذكر يد الله في نجاح العمل. وهكذا يختفى لكى يظهر الله، ولكى يظهر غيره من الناس.

وفى كل ما يعمل، يحب الخير فى ذاته، لا فى أجره، ولا فى تقدير الناس له.

✽ ✽ ✽

١٨ - على المتضع أن يهرب من العظمة وكل مظاهرها وكل مصادرها .

يهرب من محبة الرئاسة والقيادة، ومن محبة السيطرة والنفوذ، ومحبة العظمة والتعالى على الآخرين، ومحبة التقدم على غيره. فكلها أسباب تودى إلى الهلاك. وقد نهانا الرب عنها حينما قال لتلاميذه القديسين:

"أنتم تعلمون أن رؤساء الأمم يسودونهم، والعظماء يتسلطون عليهم.. فلا يكون هكذا فيكم. بل من أراد أن يكون فيكم عظيماً، فليكن لكم خادماً.. ومن أراد أن يكون فيكم أولاً، فليكن لكم عبداً.. كما أن ابن الإنسان لم يأت ليخدم بل ليخدم، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين" (مت ٢٠: ٢٥ - ٢٨).

✽ ✽ ✽

١٩ - فإن وُضع إنسان فى مركز كبير، فليسك فيه ببساطة وإتضاع، ولا يتعالى

على غيره.

ما أجمل أن ينسى مركزه، ويتعامل مع الناس فى محبة. بحيث لا يرتفع قلبه، ولا يتعامل مع غيره فى تعالٍ أو فى كبرياء، كأنهم أدنى منه أو أقل. ولا يزدرى بأحد. ولا يستخدم سلطته لإخضاع غيره.

لا يتعامل معهم مثلما كان هامان يتطلب احتراماً معيناً من مردخاى (إس ٣: ٥، ٦).. بل يتعامل مع الناس مثل داود، الذى كان وهو قائد جيش شاول الملك، يختلط مع الشعب فى مودة "وكان جميع اسرائيل ويهوذا يحبون داود، لأنه كان يخرج ويدخل أمامهم (اصم ١٨: ١٦).

المتواضع يتعامل مع رؤوسيه كزميل وصديق ويشعرهم بمحبة .

إن السيد المسيح كان يدعو تلاميذه أخوة. وقد قال لهم "لا أعود أسمىكم عبداً.. لكنى

قد سميتكم أحبباء" (يو ١٥: ١٥). وقيل عنه إنه شابه أخوته فى كل شئ (عب ٢: ١٧).

✽ ✽ ✽

٢٠ - المتواضع يحتمل الكرامة، فلا يرتفع قلبه بسببها .

ومهما نال من كرامة، لا ينسى أنه إنسان، وأنه تراب ورماد. بل على العكس يتواضع بالأكثر، لكي يقيم توازناً بين داخله وخارجه. وإن وصل إلى مركز رفيع أو نال جاهاً أو مالاً أو سلطاناً، فليذكر قول القديس أنطونيوس الكبير: "إن احتمال الكرامة أصعب من احتمال الإهانة". أما الذي يرتفع قلبه، فإنه يذكرنا بقول الشاعر :

لما صديقي صار من أهل الغنى .: . أيقنت أني قد فقدت صديقي

✱ ✱ ✱

٢١ - المتواضع يحاول باستمرار أن يتخذ "المتكأ الأخير" .

وذلك حسب وصية الرب (لو ١٤ : ٧-١٠). وما أجمل قول الشيخ الروحاني في ذلك "في كل موضع حللت فيه، كن صغير أخوتك وخديمهم". ليس فقط أن لا تتعالى عليهم، بل أن تكون أصغرهم وخادمهم. وهو في ذلك يقم كل إنسان على نفسه، حسب قول الرسول "مقدمين بعضكم بعضاً في الكرامة" (رو ١٢ : ١٠).

وكما أنحنى السيد الرب وغسل أرجل تلاميذه (يو ١٣)، يكون هو أيضاً مستعداً أن ينحنى ويخدم الكل، مهما كانوا أصغر منه.

وهكذا نرى الكهنة والمعلمين في كنيستنا يدعون أنفسهم خداماً .

وهنا نذكر الصلاة التي صلى بها القديس أوغسطينوس من أجل شعبه قائلاً "أطلب إليك يارب من أجل سادتي، عبيدك". فقال عنهم "سادتي" مع أنهم أولاده ورعيته .. على أننا نريد أن يكون تعبير "خادم" ليس مجرد لفظ أو لقب، إنما يستعمله صاحبه بكامل دلالاته ومعناه.

✱ ✱ ✱

٢٢ - الإنسان المتواضع يضع أمامه فضائل القديسين وعلوها، فتصغر أمامه كل أعماله الفاضلة :

فإن حورب بفضيلة أتقنها، يتذكر المستوى العالي الذي وصل إليه القديسون في هذه الفضيلة بالذات، ويقارن نفسه بهم، فيرى أنه لا شيء، وتصغر نفسه في عينيه في كل ما فعله من بر. أما الخطورة فهي أن يقارن الشخص نفسه بالمبتدئين أو بالساقطين والخطاة، فيرى أنه أفضل منهم. كما فعل ذلك الفريسي الذي وقف في الهيكل يصلي وقال "أشكرك

يارب أنى لست مثل سائر الناس الخاطفين الظالمين الزناة ولا مثل هذا العشار" (لو ١٨: ١١).

* * *

٢٣ - بل المتواضع يضع أمامه الكمال المطلوب منه، فيرى أنه لم يصل بعد إلى شىء .

يتذكر قول السيد الرب "كونوا أنتم أيضاً كاملين، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل" (مت ٥: ٤٨). ويرى أن المسافة طويلة بينه وبين هذا الكمال المطلوب، فيتضع قلبه ويشعر أنه لا يزال فى الموازين إلى فوق (مز ٦٢: ٩). ويردد نفس العبارات التى وُصف بها بيلشاصر الملك "وُزنت بالموازين، فوُجدت ناقصاً" (دا ٥: ٢٧). وهكذا يتضع قلبه إن تذكر المطلوب منه .

فإن كانت المحبة هى أول ثمرة من ثمار الروح الكثيرة (غل ٥: ٢٢، ٢٣). وللمحبة برنامج طويل نكره بولس الرسول فى (١كو ١٣) ولأن لم يدرك بعد أعماق هذه المحبة، ولم يستكمل مستلزماتها، فماذا يقول إذن عن باقى ثمار الروح التى ليس لها منها شىء؟! بل يذكر أيضاً قول الرب "متى فعلتم كل ما أمرتم به، فقولوا إننا عبيد بطلون، لأننا إنما عملنا ما كان يجب علينا" (لو ١٧: ١٠). ويقول: حقاً، إننى لم أصل بعد إلى درجة هؤلاء العبيد البطلين!

* * *

٢٤ - الإنسان المتواضع، يتواضع أيضاً من جهة المعرفة والفهم :

يضع أمامه قول الكتاب "لا تكن حكيماً فى عينى نفسك" "وعلى فهمك لا تعتمد" (أم ٣: ٥، ٧). ويبعد عن المعرفة التى تتفخ (١كو ٨: ١). وليذكر قول ماراسحق إن "الذى يفتخر بالمعرفة، يسقط فى البدعة والهرطقة". وقد سقط فيها أريوس ونسطور وأوطاخى. وكانوا من المعتدين بمعرفتهم ومراكزهم، وواتقين فى أنفسهم بعق علمهم!

* * *

٢٥ - المتواضع لا يكون عنيداً ، متشبهاً برأيه .

لأنه توجد عجرفة فكرية عند البعض. عظمة فى الاعتداد بالرأى والتشبث به، مهما كان شاذاً أو خاطئاً. وعدم قبول معارضة له، أو حتى مناقشته! بحيث يثور هذا الشخص

إذا نُسب إلى فكره أى خطأ، ويحتد ويتكلم بخشونة وربما بإهانة. كما لو كانت لفكره عصمة ترفعه فوق المناقشة أو التحليل.

أما المتواضع، فإنه سهل فى التفاهم ، يقبل الرأى الآخر مهما كان معارضاً له، ويقبل الحوار والنقاش بطيبة قلب .

✱ ✱ ✱

٢٦ - الإنسان المتواضع يحب التلمذة، ويقبل التعليم والتوبيخ .

إنه لا يرى مطلقاً أنه قد وصل إلى درجة من المعرفة لا تقبل الزيادة. بل باستمرار يريد أن يعرف ويتعلم ويستزيد. ويعيش طفيلة عمره يتلمذ على الكتب، وعلى الناس، على الآباء والمرشدين، وعلى الطبيعة، وعلى الأحداث.. ولا يظن أنه وصل فى المعرفة إلى المستوى الذى يعطى فيه باستمرار دون أن يأخذ ...

وفى اتضاعه يتقبل كل رأى باتضاع، إن كان سليماً. ويشكر عليه، ويعترف أنه قد استفاد. وإن كان الرأى خاطئاً، لا يجرح صاحبه، بل يناقشه فى هدوء واتضاع.

✱ ✱ ✱

٢٧ - والإنسان المتواضع يكون دائماً بعيداً عن الغضب وثورة الأعصاب.

وكما قال القديس دوروثيوس فى ذلك "إن المتواضع لا يغضب من أحد، ولا يُغضب أحداً".

فهو لا يغضب من أحد، لأنه باستمرار يأتى بالملامة على نفسه فى كل شئ. وهو لا يُغضب أحداً، لأنه يطلب بركة كل أحد، ولأنه يعتقد فى أعماقه أن كل أحد أفضل منه.

ولذلك نرى أن الإتضاع يرتبط دائماً بالهدوء والوداعة.

حقاً إنه ليس كل هادئ متواضعاً. ولكن كل متواضع لابد أن يكون هادئاً، وأن يكون ودعياً طيب القلب.

✱ ✱ ✱

٢٨ - والمتواضع بطبعه سهل التعامل مع غيره بسيطاً فى تعامله :

إنه لا يفترض باستمرار أنه على حق، وأن من يعارضه على باطل. ولا مانع لديه من أن يتنازل عن رأيه إن ثبت له أنه خطأ. بل أيضاً يشكر من وجهه إلى أن ذلك خطأ، ويفعل ذلك بحب حقيقى.

وفى النقاش لا يقاطع غيره، ولا يسكته لكى يتكلم هو. ولا يسخر من الآراء المعارضة له. ولا يحاول أن يتهم على غيره. بل قد يثبت له خطأ فكره فى لطف دون أن يجرح مشاعره أو أن يسئ إليه. فهكذا كان يفعل القديس ديديموس الضرير مدير الكلية الإكليريكية فى حبرية البابا أناسيوس. فاستطاع فى حوارهِ مع الفلاسفة الوثنيين أن يكسب الكثيرين منهم إلى المسيحية. وكانوا جميعهم يحبونه.

✱ ✱ ✱

٢٩ - أيضاً المتواضع لا يرتفع قلبه مهما نما فى الروح وفى الفضيلة.

ومهما نال أيضاً من مواهب روحية. بل يعتقد باستمرار أن كل الحياة الروحية التى صارت له، هى من عمل النعمة فيه، من عمل الروح القدس معه، عن غير استحقاق منه. وأنه بدون الله لا يقدر أن يعمل شيئاً (يو ١٥: ٥). فعليه أن يشكر لا أن يفخر. والمتواضع يعرف أنه إذا افتخر بشئ، ستتخلى النعمة عنه، لكى يشعر بضعفه، ويتضع أمام الله. ويذكر باستمرار قول الكتاب:

"قبل الكسر الكبرياء. وقبل السقوط تشامخ الروح" (أم ١٦: ١٨).

وهكذا يذكر أنه "تحت الآلام" مثل غيره (يع ٥: ١٧). وأنه ليس أكبر من السقوط، وليس معصوماً منه. فإن الخطية "طرحت كثيرين جرحى، وكل قتلاها أقوياء" (أم ٧: ٢٦).

✱ ✱ ✱

٣٠ - لذلك فهو أمام جميع الخطايا لا يفقد احتراسه، ولا يقتل صلواته .

لا يقول عن بعض الخطايا إنها من النوع الذى يحارب المبتدئين، وليس النامين فى الروح مثله!! وأنه أكبر من مستوى مثل تلك الحروب، أو أنه قد داس الشيطان تحت قدميه!!

بل هو - فى كل محاربات الشيطان - يطلب معونة من الله، مصلياً بقوة، مهما بدت الحرب بسيطة. ذلك لأنه لا يعتمد مطلقاً على قوته الخاصة ولا على انتصاراته السابقة.

✱ ✱ ✱

٣١ - والإنسان المتواضع لا مانع لديه من أن يستشير .

فالذى يستشير، إنما يشعر أن هناك عند غيره ما ينقصه من معرفة. ولا يظن مطلقاً أنه غير محتاج إلى رأى أو حلول من غيره كما يفعل المتكبرون. بل هو يستشير ويعمل

بالمشورة الصالحة، واثقاً أنه - مهما أوتى من علم وخبرة - هناك من هو أعلم منه فى أمور معينة...

وحتى إن لم يستشر، وجاءه رأى صائب تطوع به أحدهم دون طلب منه، يأخذ الفائدة التى فى هذا الرأى، مهما كان صاحب الرأى أصغر منه أو أقل شأنًا.

✽ ✽ ✽

٣٢ - ومن صفات المتواضع الطاعة والاحترام لمن هو أكبر منه .

سواء كان ذلك الكبير أكبر منه سناً، أو أكبر منه مقاماً، أو أكبر منه فى القامة الروحية أو فى العلاقة الاجتماعية.

وعموماً فالمتواضع لا يستصغر أحداً. فهو يعامل الكل بلطف، حتى الصغار والخدم. ويرفع بذلك من روحهم المعنوية، ويشعرهم بأن نفوسهم كريمة فى عينيه.

✽ ✽ ✽

٣٣ - الإنسان المتواضع يظهر إتضاعه الروحى فى إتضاع جسده أيضاً .

يظهر إتضاعه فى ملامح وجهه، وفى نبرات صوته، وفى نظرات عينيه. فهو ينظر إلى الناس فى وداعة. ليست له النظرات المتعالية، ولا ينظر إلى الناس من فوق. وصوته هادئ: يتكلم بلطف، لا بسطان. لا يحتد على أحد، ولا يتكلم بشدة ولا بنبرات متكبرة، ولا بصوت عالٍ، ولا باحتقار أو استصغار لأحد فى عدم ردّ.. إنما بلطف يتحدث مع كل أحد..

ويظهر إتضاعه أيضاً فى طريقة مشيه. فلا يمشى فى زهو أو فى خيلاء. وفى جلوسه أيضاً يجلس فى أدب، لا ينتفخ فى مظهره...

ويبعد عن العظمة فى مستوى ملبسه وأدواته وأثاثاته وحياة الترف. لا يشعر الناس فى منظره ومظهره أنه فى مستوى عالٍ، أو مستوى أعلى منهم.

ولغته تدل عليه : فهو لا يتغنى بأعمال قام بها، ولا يفتخر. ولا يعقد مقارنات بينه وبين الآخرين، تدل على تفوقه ومقدار ارتفاعه عليهم وإدراكه ما لا يدركون.

✽ ✽ ✽

٣٤ - والمتضع يظهر إتضاعه أيضاً فى أسلوب عبادته وصلواته.

فهو يدخل إلى الكنيسة فى خشوع. حسبما قال داود النبى "أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل

إلى بيتك. وأسجد قدام هيكل قدسك بمخافتك" (مز ٥ : ٧). ويقف فى مهابة تليق بالصلاة وبالوجود فى حضرة الله. كما قيل عن الشاروبيم والسارافيم إنهم وقوف قدامه: بجناحين يغطون وجوههم، وبجناحين يغطون أرجلهم (أش ٦).

يحفظ حواسه جيداً، ولا ينشغل عن الصلاة بشئ. ولا يزاحم غيره فى وقت تناول من الأسرار المقدسة. بل يتقدم إليها كغير مستحق..

ولا يجلس فى الوقت الذى ينبغى فيه الوقوف. لذلك عند مباركة الطعام فى مائدة بيته، لا يصلى وهو جالس... بل هو فى كل مناسبة، يحتفظ بمهابة الصلاة.

كذلك يحتفظ المتواضع بخشوعه فى فترة صومه. لأنها فترة تذلل أمام الله، والتذلل يليق به الاتضاع. ولتذكر فى هذه المناسبة ما قيل عن صوم أهل نينوى إنهم "نادوا بصوم، ولبسوا مسوحاً من كبيرهم إلى صغيرهم. وبلغ الأمر ملك نينوى. فقام عن كرسيه، وخلع رداءه عنه وتغطى بمسح. وجلس على الرماد" (يون ٣ : ٥، ٦) .

✱ ✱ ✱

٣٥ - والمتواضع إذا أخطأ، وانكشف له ذلك، فإنه يعترف بخطئه.

ما أصعب الاعتراف بالخطأ على إنسان متكبر! يشعر أن ذلك يقلل من قدره ومن كرامته أمام الآخرين. أما المتواضع، فإنه لا يحاول أن يتهرب من مسئولية أخطائه أو يغطى عليها، أو يبرر ذاته بالأعذار. ولا مانع عنده من أن يقول "أخطأت فى هذا الأمر". يقول "أخطأت" أمام الله، وأمام الناس، وفى أعماق نفسه، بكل إقتناع. إن نفسه ليست معصومة فى نظره.

المتواضع ليس "باراً فى عينى نفسه" (أى ٣٢ : ١). فهو بعيد كل البعد عن البر الذاتى. ويعرف عن أخطائه أكثر مما يعرفه الناس عنه.

✱ ✱ ✱

٣٦ - من الوسائل التى تساعد على الإلتضاع: حياة التوبة الحقيقية، وما يصحبها من فضائل.

فالإلتضاع هو إنسان شاعر بتقل خطاياها، وخطيته أمامه فى كل حين (مز ٥٠)، يذكرها متذلاً أمام نفسه وأمام الله، شاعراً أنه غير مستحق لشئ. وهو باستمرار يلوم نفسه ويكتها على سقطاتها وضعفاتها ونقائصها. وهو فى كل ذلك يطلب صلوات وبركة

كل أحد.. لذلك يسلك بائضاع، ولا يتكبر على أحد. لأن تذكر ضعفاته يخزيه من الداخل،
ويمنع عنه الكبرياء من الخارج...

وكما بُعد الإنسان عن مشاعر التوبة وحرارتها ودموعها، أصبح في خطر أن يفقد
إتضاعه.. ولذلك سعيد من يحيا في التوبة على الدوام. لا يعتبر أنها مجرد مرحلة من
مراحل حياته وقد عبرت. بل هو في كل يوم من أيام حياته يخطئ. وكما قال القديس
يوحنا الرسول "إن قلنا إنه ليس لنا خطية، نضل أنفسنا وليس الحق فينا" (يو ١: ٨).

✱ ✱ ✱

٣٧ - من وسائل الإبتضاع أيضاً : الصمت وعدم إدعاء المعرفة .

إنه يعرف أن "كثرة الكلام لا تخلو من معصية" (أم ١٠: ١٩) فيقول في نفسه "تكفى
معاصي السابقة". ويردد عبارة القديس أرسانيوس "كثيراً ما تكلمت فندمت". لذلك فهو
يفضل الصمت. ويرى أن الاستماع أفضل من التكلم. ففي الاستماع يستفيد معرفة. وفي
التكلم يعرض نفسه للخطأ. مردداً عبارة موسى النبي "لست أنا صاحب كلام، منذ أمس
ولا أول من أمس" (خر ٤: ١٠).

ويتذكر قصة القديس الأنبا أنطونيوس، الذي سأل بعض تلاميذه عن آية معينة. فأخذ
كل منهم يذكر لها تفسيراً، ما عدا الأنبا يوسف الذي قال "لا أعرف". فقال له القديس الأنبا
أنطونيوس "طوباك يا أنبا يوسف، لأنك عرفت الطريق إلى كلمة: لا أعرف".

وبينما يجلس المتضع صامتاً في وقار يحترمه الناس، نرى الإنسان المتكبر يحشر
نفسه في كل موضوع مهما كان في غير تخصصه! ويجب على كل سؤال، سواء كان
يعرف أو لا يعرف. أما المتواضع - فإن يضطر إلى الكلام - يجيب في هدوء عما يوقن
به. ولا مانع من أن يقول أحياناً: لا أعرف. أو سأحاول أن أدرس هذا الموضوع.

✱ ✱ ✱

٣٨ - الإنسان المتواضع يشعر أنه في حاجة إلى معونة من القديسين:

لذلك فهو في كثير من الأمور لا يعتمد فقط على صلواته الخاصة. إنما يطلب من
القديسة العذراء، ومن الملائكة الأبرار، ومن أرواح الشهداء والقديسين أن يسندوه في
جهاده، وأن يشفعوا فيه أما الله هو وكل الذين له. ويقول للرب في صلاة الأجيبة: أحطنا
يارب بملائكتك القديسين، لكي نكون في معسكرهم محفوظين ومرشدين..

ولا يرتفع قلبه فيقول : لست فى حاجة إلى وساطة من أحد هؤلاء! إن لى صلتى
المباشرة بالله! فلماذا أطلب من العذراء، أو من مارجرجس أو من الملاك ميخائيل!^{١٩}
متذكراً أن القديس بطرس الرسول - فى ليلة العشاء السرى - طلب من زميله القديس
يوحنا الحبيب، الأصغر منه سناً، أن يسأل الرب عن سيئله. وكان كذلك (يو ١٣ : ٢٣ -
٢٥).

بل المتواضع يطلب صلوات كل أحد. وهوذا القديس بولس الرسول يطلب من شعبه
فى أفسس أن يصلوا لأجله بكل صلاة وطلبية فى كل وقت، لكى يُعطى كلاماً عند افتتاح
فمه ليُعَلِّمَ بالإنجيل (أف ٦ : ١٨ ، ١٩).

✱ ✱ ✱

٣٩ - والإيمان المتواضع لا يطلب أن يكون من أصحاب الرؤى، أو من صانعى
المعجزات والعجائب .

إنه لا يشتهى هذه الشهوة ولا يطلبها، لأنه يعرف مقدار ضعفه وهبوط مستواه
الروحى. بل القديسون الكبار كانوا يخشون هذا الأمر لئلا يحاربهم الكبرياء والمجد
الباطل. ويذكرون قول الرب لتلاميذه عن مثل هذا الأمر "لا تفرحوا بهذا.." (لو ١٠ :
٢٠).. والمتواضع يذكر أن كثيراً من الذين صنعوا آيات وعجائب لم يدخلوا ملكوت
السموات. وقال لهم الرب "أذهبوا عنى" "إبنى لم أعرفكم قط" (مت ٧ : ٢٢ ، ٢٣).

✱ ✱ ✱

٤٠ - لذلك فالمتواضع يسعى إلى ثمار الروح (غل ٥ : ٢٢ ، ٢٣). وليس إلى مواهب
الروح (١ كو ١٢) ... والذين فى كبرياء يحبون الرؤى والمناظر، ما أسهل أن يقعوا فى
خداع الشياطين.

والشيطان سهل عليه أن يعمل بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة، وبكل خديعة الإثم فى
الهالكين (٢ تس ٢ : ٩ ، ١٠) كما سيعمل فى الأيام الأخيرة فى مساندة ضد المسيح المقاوم
والمرتفع على كل ما يدعى إلهاً (٢ تس ٢ : ٤). والشيطان أيضاً يستطيع أن يظهر فى شبه
ملك من نور (٢ كو ١١ : ١٤). وبهذا يرضى محب الرؤى ويخدعه ويضيعه...

وهنا أذكر قصة ذلك الراهب الذى ظهر له الشيطان فى هيئة ملك وقال له "أنا الملاك
جبرائيل، وقد أرسلنى الله إليك". فردّ عليه الراهب فى اتضاع "لعلك أرسلت إلى غيرى

وأخطأت الطريق. أما أنا فإنسان خاطئ، لا استحق أن يظهر لى ملاك". فلما سمع الشيطان هذه العبارة المتضعة، انقشع كالدخان واختفى.

✽ ✽ ✽

٤١ - الإنسان المتواضع - إذا عمل فى الخدمة - لا يلح على الله أن يمنحه موهبة التكلم بالأسنة. ولا يعلن على الناس أن هذه هى علامة الملء!

ولا ينظر باستصغار إلى من لا يتكلم بالأسنة على اعتبار أنه لم يصل بعد! ولا ينادى شخصاً آخر، ويقول له : تعال لى أسلمك تدريب الملء، واقفاً أمام الناس كمنح لموهبة الأسنة!

وسائل وعلامات أخرى

لحياة الاتضاع

تجدها فى الأبواب المقبلة، وبخاصة فى علاقة الاتضاع بالفضائل . وأيضاً فى مقاومة الصفات التى يتصف بها المتكبر .

ونذكر من هذين البابين :

★ علاقة الاتضاع بالإيمان والبساطة والتجرد .

★ وعلاقته بالتعليم والتأديب ، وبالانتهاز .

★ وعلاقته بالوداعة وبالشجاعة .

★ وبعده عن (الأنا) والاهتمام بالذات .

★ وبعده عن المجد الباطل وكل فروعه .

★ وبعده عن محبة الرئاسة والرعاية .

★ وعن محبة المديح والكرامة .

مع قراءة تفاصيل كل ذلك .

الباب الثالث :

الفضيلة والكبرياء

- مقاومة الله لها .
- هي سبب السقوط .
- تشامخ الروح - العجرفة .
- البر الذائق .
- نتائج ومظاهر الكبرياء
- علاقة الكبرياء بالتجارب .
- الذات (الأنا) .
- كيف التخلص من الكبرياء ؟

الكبرياء والعظمة

خطية مركبة تلد خطايا كثيرة (د)

المتكبر هو إنسان ضائع، ضيعته الذات. وفي كبرياته يقع في عديد من الخطايا. وربما لا يشعر بضياعه ولا بخطاياها بسبب كبرياته. ويقول الكتاب:
'قبل الكسر الكبرياء. وقبل السقوط تشامخ الروح' (أم ١٦: ١٨).
فما هو سر هذا الكسر؟ وما هذا السقوط الذي يتعرض له؟ نذكر منه:

مقاومة الله للمتكبرين :

قد يتعرض المتكبر لمقاومة كثيرين ممن ينفرون من كبرياته، لأن الكبرياء خطية منفرة. ولكن أصعب من هذا كله مقاومة الله له. كما قال يعقوب الرسول:
'يقاوم الله المستكبرين. أما المتواضعون فيعطيه نعمة' (يع ٤: ٦).
حقاً: ما أصعب هذا، وما أخطر هذا! إنه أمر مرعب أن يقاوم الله لوناً من مخلوقاته...!! والسبب هو الكبرياء.

✱ ✱ ✱

أول مخلوق قاوم الله، والله قاومه، هو الشيطان:

أراد الشيطان أن يرتفع فوق الكل، وأن يصير مثل الله (أش ١٤: ١٤). وفي سقوطه لم يتضع ولم ينسحق. بل استمر في مقاومته، وأسقط معه مجموعة من الملائكة من رتب عديدة، صاروا جنداً له، ينفذون معه خطته في مقاومة الله.

وما زال الشيطان فى مقاومته لله ولملكوته، وفى مقاومته لأبناء الله.. حتى أنه عندما يُحل من سجنه، سيخرج "ليضل الأمم الذين فى أربع زوايا الأرض" (رؤ ٢٠: ٧).. بل يحاول أن يضل "لو أمكن المختارين أيضاً" (مت ٢٤: ٢٤).

✱ ✱ ✱

وأخطر عدو فى آخر الزمان، دُعى أيضاً مقاوماً :

إنه "ضد المسيح" Anti - Christ الذى قال عنه الرسول إنه سيكون سبباً فى الارتداد العام الذى يسبق المجئ الثانى للسيد المسيح. ووصفه بأنه "إنسان الخطية، ابن الهلاك، المقاوم والمرتفع على كل ما يُدعى إلهاً أو معبوداً. حتى إنه يجلس فى هيكل الله كإله، مظهراً نفسه إنه إله" الذى مجيئه بعمل الشيطان، بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة، وبكل خديعة الإثم فى الهالكين" (٢تس ٢: ١-١٠).

من كبريائه يدعى الألوهية كمعلمه الشيطان. ومن كبريائه يكون مرتفعاً ومقاوماً، مثل الشيطان أيضاً. وتغريه الآيات والعجائب والقوة، كمعلمه أيضاً.

لذلك يقاومه الله "بيده بنفخة فمه، ويطله بظهور مجيئه" (٢تس ٢: ٨).

✱ ✱ ✱

إن السيد المسيح كان يشفق على الخطاة المنسحقين، بينما يقاوم المستكبرين .

★ لقد دافع عن المرأة الخاطئة الذليلة المضبوطة فى ذات الفعل. وقال لها: "وأنا أيضاً لا أدينك. إذهبى بسلام ولا تخطئ أيضاً" (يو ٨: ١١)... بينما قاوم الكتبة والفريسيين المتكبرين، الذين نسوا خطاياهم وأرادوا رجم تلك المرأة. وقال لهم الرب "من كان منكم بلا خطية، فليرمها بأول حجر" (يو ٨: ٧).

★ وأشفق السيد كذلك على الخاطئة المنسحقة التى بللت قدميه بدموعها، بينما وبخ الفريسي المتكبر الذى احتقرها وأدانها (لو ٧).

وصلت كبرياء ذلك الفريسي إلى حد أنه شك فى السيد المسيح نفسه له المجدا فقال فى قلبه "لو كان هذا الإنسان نبياً لعلم من هذه المرأة وما حالها، إنها لخطئة" (لو ٧: ٣٩). فأراه السيد الرب أن تلك المرأة أفضل منه، وأن كليهما مديونان أمام الله. غير أنها تابت، وهذا الفريسي لم يتب. فاستحققت لذلك المغفرة...

✱ ✱ ✱

وقاوم الرب الكتبة والفريسيين، لأنهم مراؤون ومتكبرون.

صبب الويلات على أولئك الذين كانوا "يحبون المتكآت الأولى في الولائم، والمجالس الأولى في المجمع، والتحيات في الأسواق.. ويغلقون ملكوت السموات قدام الناس. فلا هم يدخلون، ولا يدعون الداخلين يدخلون". ودعاهم "قادة عميان" (مت ٢٣: ٦، ٧، ١٣) (مت ٢٣: ١٦، ١٩).

* * *

احذر إن من أن تتكبر ، فيقاومك الله!!

حقاً ، ما أخطر ما قيل عن ذلك في سفر اشعيا :

ورد فيه عن هذا الأمر: "إن لرب الجنود يوماً على كل متعظم وعالٍ، وعلى كل مرتفع فيوضع. وعلى كل أرض لبنان العالی المرتفع، وعلى كل بلوط باشان. وعلى كل الجبال العالیة، وعلى كل التلال المرتفعة. وعلى كل برج عالٍ، وعلى كل سور منيع.. فينخفض تشامخ الإنسان، وتوضع رفعة الناس. ويسمو الرب وحده في ذلك اليوم" (أش ٢: ١٢-١٧).

فإن خفت أن يقف الرب ضدك ويقاومك، تواضع لأنه "يعطي المتواضعين نعمة" (يع ٤: ٦).. ماذا في الكبرياء أيضاً؟

تشامخ الروح :

هناك كبرياء في ذاتها، يشعر الإنسان فيها إنه كبير (= عظمة) . وكبرياء أخرى مقارنة . إذ يقارن نفسه بغيره، فيشعر أنه أكبر منه. وقد ينمو عنده هذا الشعور، حتى يظن أنه أكبر من الكل، وأنه أفضل منهم، وأنه يفوقهم جميعاً!! وتنتقل به الكبرياء إلى المعاملة، فينظر إلى الناس من فوق ! فيتعاطم عليهم، ويكلمهم بغير احترام، بأسلوب منتفخ غير لائق. ويفقد آداب التخاطب وآداب التعامل. وربما يكونون أكبر منه سناً أو أعلى منه مقاماً. ولكنه في كبريائه وفي تعاطمه، لا يحترم أحداً، ولا يراعى شعور أحداً! ألم يقل الكتاب عن إنسان الخطية إنه "المرتفع على كل ما يدعى إلهاً!" (٢تس ٢: ٤). فكم بالأولى تعامله مع إنسان!

* * *

بينما المتواضع يحترم الكل، ولو كانوا أصغر منه أو أقل شأناً .

المتواضع يعامل الكل بالاحترام والأدب واللباقة، حتى مرؤوسيه وتلاميذه، بل وخدمه أيضاً.. ولا يحاول إطلاقاً أن يخدش شعور أى إنسان، مهما كان خاطئاً أو مخطئاً فى تصرفه...

وهكذا تحدث السيد المسيح له المجد مع المرأة السامرية الخاطئة، دون أن يجرح شعورها. ولم يكلمها عن التوبة والتعفف والطهارة، بل حدثها عن الماء الحى والسجود لله بالروح والحق (يو ٤) .

أما المتكبر ، فإن تشامخه يقوده إلى خطية أخرى وهى :

الإدانة ومَسْك السيرة ،

فى عدم احترام المتكبر للغير، يتكلم عنه بأسلوب غير لائق، فيه الإدانة والشتائم، وألفاظ التجريح والألفاظ النقاسية، كأنما غيره بلا شعور ولا إحساس أمامه! وفى كل ذلك ينسى قول الكتاب:

"لا شتامون .. يرثون ملكوت الله" (١كو ٦: ١٠).

وقد وضع الرسول هؤلاء الشتامين ضمن قائمة من أصحاب الخطايا البشعة، كالظالمين والطماعين والسارقين والفسقة وعبدة الأصنام..! وربما المتكبر وهو يشتم غيره، لا يحسب أنه يرتكب إثماً بشعاً.. وقد يظن أنه من حقه أن يشتم وأن يدين! وقد يضع شتائمته فى قائمة الغيرة المقدسة والرغبة فى الإصلاح أو التعليم. كبرياؤه تقوده إلى شئ آخر هو البر الذاتى ...

البر الذاتى :

المتكبر بار فى عينى نفسه . وقد يكون أيضاً "حكيماً فى عينى نفسه" بينما يقول الكتاب "لا تكن حكيماً فى عينى نفسك" (أم ٣: ٧). وقد وبخ هذا النوع من الناس فقال "جاوب الجاهل حسب حماقتة، لئلا يكون حكيماً فى عينى نفسه" (أم ٢٦: ٥). من الصعب أن يعترف هذا النوع من الناس أنه مخطئ .

هناك أناس - من الصعب وربما من المستحيل - أن يعترفوا بأنهم قد أخطأوا! حتى لو كان الخطأ واضحاً، سواء فى رأى أو فى تصرف..!

ولكن كبرياء القلب تأبى أن تخدش (العصمة) التى يدعيها المتكبر لنفسه! فلا بد أن يدافع عن أخطائه، وأن يقاوم، وأن يهاجم من يكشف له خطأ أو عيباً. ولا بد أن يبرر ذاته بكافة الطرق. فتقوده الكبرياء إلى المكابرة ...

المكابرة :

أو ما يسمونه بالعامية (المقاوحة).. إنه يريد أن ينتصر فى مجادلته بأية الطرق! وورغبته فى الانتصار تبعده عن الحق، وتركزه حول الذات .

والمكابرة سببها فى المتكبر : التشبث بالرأى أياً كان !

وقد ينفر الناس من أسلوب المتكبر فى مجادلته وتشبثه برأيه، مما لا يؤدي إلى أية نتيجة، إلا إلى ضياع الوقت وإرهاق الأعصاب، فيبعدون عن النقاش معه، حرصاً على سلامتهم القلبى، ولكى لا يدخلوا فى صراع معه.. وربما يكلمهم أو يكتابهم فلا يجيبون..

✽ ✽ ✽

وهكذا تؤدي به المكابرة والتشبث بالرأى إلى اعتزال الناس له .

أو قد يؤدي ذلك إلى أنطوائه عن الناس ترفعاً وكبرياءً. وتتعبه العزلة وترهق أعصابه، فيزداد عنفاً إن دخل فى نقاش .

وإذا طرقت المناقشة والمكابرة موضوعاً لاهوتياً أو عقدياً، فقد يسقط المتكبر فى البدعة أو الهرطقة.

البدعة أو الهرطقة :

كل الهرطقة والمبتدعين كانوا متكبرين وعنفاء بلا إستثناء .

ويندر أن يكون أحدهم قد وقع فى الهرطقة عن جهل. لأن الجاهل - إن كان متواضعاً - يقبل التصحيح ويقبل تغيير رأيه .

أما المتكبر فلا يستطيع . لا يمكنه أن يقول إنه قد أخطأ. وهكذا يستمر فى فكره المنحرف، ويدافع عن هذا الفكر، ويحاول أن يجد له إثباتات، أو أن يطوع تفسير آيات الكتاب لرأيه. وبذلك يثبت فى أخطائه العقيدية، وتتحول بسبب كبريائه من أخطاء إلى هرطقة...
هرطقة...

✽ ✽ ✽

وربما تتقنع الكبرياء إنساناً أن يأتي بشئ جديد لم يطرقه أحد من قبل، أو لم يكتب فيه الآباء، حتى لو كان غير مألوف أو غير مقبول.

وهكذا يقع في البدعة، إذ يتتبع شيئاً جديداً، ويعجب بنفسه أنه قد أتى بجديد. وربما يرى في الجديد شيئاً مشوقاً، فيعمل على نشره منتظراً أن يجلب لنفسه شهرة ومديحاً كصاحب فكر!!

وتقوده البدعة إلى أن "يرتبى فوق ما ينبغى" (رو ١٢: ٣).

فينحدث عن أمور ربما لم يتعرض لها الكتاب في صراحة، أو لم تتعرض لها أقوال الآباء، أو هي فوق إدراكنا.. وفي كبريائه يستحى أن يقول "لا أعرف".. فيبدى رأيه، ثم يحاول أن يثبتته. وقد يعتمد على مراجع غير دينية. ولا يشاء أن يقول إن ذلك مجرد رأى، أو أنه مجرد مفهومه الخاص...

* * *

وبالكبرياء يحاول أن يقدم رأيه الخاص كأنه عقيدة!!

أو أن يعتبر رأيه هو رأى الكنيسة وتعليمها! ويندهش إن سأله أحد "ما هو المرجع الذى اعتمدت عليه؟"، ظاناً في نفسه أنه هو المرجع الذى يعتمد عليه الآخرون! حقاً، إن التكلم فى اللاهوتيات يحتاج إلى تواضع قلب وإلى تواضع فكر .

* * *

والمتكبر يظن أنه يفهم أكثر من غيره. فلا يقبل تصحيح غيره له . لأنه من هو الذى يفهم أكثر منه، حتى يصحح له!؟

وهكذا فإن هرطوقياً مثل أريوس، لم يغير رأيه بتوجيه البابا بطرس خاتم الشهداء، ولا قبل أيضاً توجيه البابا ألكسندروس. ولم يخضع للمجمع المكاتى الذى عقده البابا ألكسندروس وحضره مائة أسقف من أساقفة الكرازة المرقسية فى مصر وليبيا .

ولم يقبل شيئاً من اقناعات القديس أثناسيوس. بل لم يقبل حكم المجمع المسكونى العظيم المنعقد فى نيقية والذى حضره ٣١٨ من الأساقفة ورؤساء الأساقفة يمثلون كنائس العالم كله. وظل متمسكاً بفكره الخاطى، لا يعياً بأسقف ولا ببطريرك ولا بمجمع!! وهذا يدل على خطية أخرى هي:

العناد :

المتكبر عنيد . والهراطوقي أيضاً عنيد ، والمبتدع عنيد .
فإن صادفت إنساناً عنيداً، اعرف أن وراء عناده كبرياء .
وإن وجدت هراطوقياً، أعرف أن من أسباب هراطقته العناد والكبرياء .
والعناد يدخل في أمور أخرى غير اللاهوت والعقيدة. وهو على أية الحالات طبع
منفر، كأمة الكبرياء، يقود أيضاً إلى العزلة والإنطواء .

نتائج أخرى :

للكبرياء نتائج أخرى وعلامات كثيرة. نعل من بينها المجد الباطل، ومحبة المديح
والكرامة، والتعالى، والتمركز حول الذات، والتقدم على الآخرين.. وأمور أخرى عديدة...

المتكبر يرتفع فيسقط .. والمتكبر دائماً يبرر ذاته المتكبر يفقد حياة الوداعة وحياة التوبة ..

يرتفع فيسقط :

شرح القديس أوغسطينوس أن المتكبرين يببدون كالدخان، فقال:

الدخان يرتفع جداً إلى فوق. وفيما هو يرتفع يتبدد وينتهي .

بعكس اللهب الذي لا يرتفع كالدخان، ولكنه يبقى بقوته .

وقال هذا القديس في تفسير المزمورين ٣٧، ٧٣ .

يقول المزمور " رأيت الشرير مرتفعاً إلى فوق ، وقائماً أعلى من أرز لبنان" (مز ٣٧:

٣٥). فلنفترض إذن أنه مرتفع إلى أعلى، وأنه متشامخ فوق الباقين. ولكن ماذا بعد هذا؟

يستطرد المرتل فيقول عنه: "عبرت عليه، فإذا هو ليس بموجود. طلبته فما أمكن أن يعثر

له على مكان" .. تماماً كما لو كان دخاناً، هذا الذي عبرت عليه.

قيل أيضاً عن مثل هذا في المزمور إنه سيفنون ويتبددون مثل الدخان. يقول "فنوا مثل

الدخان، فنوا" (مز ٧: ٢٠)... تماماً مثل الدخان الذي يتبدد فيما هو يرتفع إلى فوق.. فهو

في ذات صعوده إلى أعلى، ينتفخ إلى حجم أكبر. وعلى قدر ما يعظم حجمه، تتحل

مادته.. وهكذا تلاحظ أن نفس عظمته كانت قاضية عليه. لأنه كلما ارتفع وامتد إلى أعلى،

تزداد رقعته ويخف، ويقل ويضيع ويضمحل.

هكذا أعداء الله: عندما يبدأون أن يتمجدوا ويرتفعوا، سريعاً ما يفنون تماماً كالمدخان.."
[القديس أوغسطينوس].

✱ ✱ ✱

هنا ونذكر أشخاصاً، حينما تعينهم النعمة، ويجدون أن حياتهم قد تغيرت إلى أفضل،
يفتخرون قائلين: "حياتي قد تغيرت وتجددت. صرت إنساناً آخر". ويشرحون اختباراتهم
للناس، بطريقة "كنت.. وأصبحت..!"
وإذ يفخر الشخص بارتفاعه، تبعد عنه النعمة، فيسقط.. ليته يتذكر قول الكتاب في
ذلك:

"من يظن أنه قائم، فلينظر أن لا يسقط" (١كو ١٠: ١٢).

إن كنت قائماً، فلا تظن قيامك وضعاً دائماً لا يتغير. وتذكر القديسين الذين سقطوا.
وهكذا يتضع قلبك، وتحترس لنفسك.

✱ ✱ ✱

إن الاتضاع يحفظك ، لأن الرب قريب من المنسحقين بقلوبهم .
فالإنسان المتضع : إذ يعترف بضعفه ، فإنه يخاف فيحترس ويدقق. وهكذا يبعد عن
العثرات فلا يسقط. أما المتكبر فيعتز بقوته ولا يبالي، فتضربه الخطية من حيث لا يدري.

✱ ✱ ✱

إن الشيطان له خبرة آلاف السنين في محاربة بني البشر .
وقد يجدك محترساً من خطية معينة، فلا يحاربك بها. ولكنه يهاجمك من جهة أخرى
ظننت نفسك فيها قوياً، ويسقطك ..

وربما لا يحاربك إلى فترة طويلة، حتى تظن أنك قد ارتفعت فوق مستوى الحروب،
وتستهين بالاحتراس. وحينئذ يرجع إليك وأنت غير مستعد في ارتفاع قلبك هذا. وإذ
تسقط، تتأكد أنك لست فوق السقوط!

✱ ✱ ✱

لا تظن إذن أن السقوط هو فقط للمبتدئين !

وأنت لست من المبتدئين! بعد أن قطعت شوطاً في الحياة الروحية .
فإنك عندما كنت متضعاً ومحترساً، كنت تصلى بحرارة طالباً من الله أن يهبك معونة

لكي لا تسقط. أما الآن فأنت لا تصلى لأجل هذه المعونة، بل ربما تطلبها لأجل الآخرين فقط المعرضين وحدهم للسقوط، وليس أنت! وهكذا تبقى بلا معونة فتسقط ...

✱ ✱ ✱

تأمل ماراسحق في عبارة "قبل السقطة تكون الكبرياء"، فقال :

على قدر ظهور العظمة في النفس، على قدر ما تكون السقطة، ويكون الإنكسار المسموح به من الله. فإن الله لا يرفض الإنسان ويتخلى عنه، إلا إذا وجد عقله متفاوضاً مع أفكار العظمة.

فالذين يخرجون عن طريق الاتضاع، يتعرّون من المعونات الإلهية ويسقطون.. فالمتعظم بالمعرفة يُهمل فيسقط في التجديف. والمتبجح بالنسك يُهمل فيسقط في الزنا. والمترفع بحكمته يُهمل، فيسقط في فخاخ الجهل المظلمة.

✱ ✱ ✱

إن داوم الإنسان على الكبرياء، حينئذ يبتعد عنه الملاك المعتنى به، الذي إذا ما كان قريباً منه، حرك فيه الاهتمام بالبر. ولكن بابتعاده عنه، يقترب منه المحتال، ولا يدعه يدرك شيئاً من عمل البر.

✱ ✱ ✱

حقاً، أليس ارتفاع القلب هو سبب سقطة الشيطان ...

يقول له سفر حزقيال "قد ارتفع قلبك" (حز ٢٨ : ١). "ارتفع قلبك لبهجتك. أفسدت حكمتك لأجل بهائك" (حز ٢٨ : ١٧).

ويقول عنه سفر اشعيا "أنت قلت في قلبك: أصعد إلى السموات. ارفع كرسى فوق كواكب الله.. أصعد فوق مرتفعات السماء. أصير مثل العلى. لكنك أنحدت إلى الهاوية، إلى أسافل الجب" (اش ١٤ : ١٣ - ١٥).

لم يقنع بما كان له من مجد، فاشتتهى مجداً أكبر. ففقد ما كان له. وهكذا الإنسان الأول: اشتتهى مجد الألوهية، ففقد مجد بشريته!

✱ ✱ ✱

العجيب أن غالبية المتكبرين يدعون أنهم غير متكبرين .

وهذا بلا شك من كبرياتهم، إذ أنهم على الدوام يبررون ذواتهم. وبهذا يقعون في خطية أخرى هي تبرير الذات.

المتكبر يبرر ذاته :

باستمرار يدافع عن نفسه. لا يحب مطلقاً أن يبدو في صورة الخاطيء. هو دائماً "بار" في عيني نفسه". ويريد أيضاً أن يكون باراً في أعين الناس. وإن نبهه أحد إلى خطأ واضح، ربما يحاول أن يغطيه بالكذب أو بالأعذار، بعيداً عن الاعتراف والتوبة. أبونا آدم لم يعترف بخطيئته، بل حاول أن يبرر ذاته. وهكذا فعلت أيضاً أمنا حواء (تك ٣). ونحن ورثنا عنهما تبرير الذات .

✱ ✱ ✱

الخطيء يضيف إلى خطيئته التي يبررها ، خطيئة التبرير .

وما أكثر الحيل التي يلجأ إليها المتكبر في تبرير ذاته: منها إلقاء التبعة على غيره، أو على الظروف المحيطة. ومنها الإنكار، أو وإدعاء القصد السليم، أو أن الناس لم يفهموه على حقيقته. وغير ذلك من الأسباب التي تخرج جميعها عن النطاق الروحي..!

✱ ✱ ✱

ما أصعب كلمة "أخطأت" على المتكبر.. إنها تجرحه ...

وقد يقولها أحياناً إن كانت تجلب له مديحاً! أو إن كانت صورة الاتضاع الزائف ترضى كبرياءه.. ولكنه في داخله لا يشعر إطلاقاً بأنه قد أخطأ. تخرج الكلمة من فمه وليس من قلبه. وقد يقول كلمة "أخطأت" - إن قالها - بلون من السياسة، وليس بروح الاتضاع...

✱ ✱ ✱

المتكبرون لا يعترفون ، وإنما يدينون غيرهم، ليستروا أنفسهم .

لابد أن يكون غيرهم هو المخطئ ، إذ ليس من المعقول أن يكونوا هم المخطئين! كما لو كانوا معصومين في كل تصرفاتهم!

لذلك فالمتكبر كثير الجدل والنقاش لتبرير ذاته .

التعامل معه ليس سهلاً . والتفاهم معه ليس سهلاً .

التفاهم عنده ليس معناه أن يفهم رأى غيره أو يقبله. إنما تفاهمه مع الغير، معناه أن يقبل هذا الغير رأيه ويفتنع به...

وإن لم يقننعه غيره برأيه، قد يثور ويغضب. ويعالج الموضوع بأعصابه، مادام لم

يستطع معالجته بالرأى والفكر والإقناع.

✽ ✽ ✽

لهذا فإن الغضب زميل للكبرياء، يلزمها كثيراً وتلازمه .

وفى كل ذلك يفقد المتكبر وداعته. بعكس الإنسان المتواضع، فإنه إنسان رقيق لطيف وديع، سهل التعامل مع الآخرين. لذلك فهو محبوب من الكل. يخضع لهم بروح الحب فيكسبهم. وإن صادفته مشكلة يحلها بوداعة الحكمة (يع ٣: ١٣).

أما المتكبر ، فإنه لا يخطئ فقط من الناحية الروحية، بل من الناحية الإجتماعية أيضاً، إذ يفقد محبة الكثيرين بسبب كبريائه.

✽ ✽ ✽

والمتكبر فى تبريره لذاته يبعد عن حياة التوبة .

لأنه كيف يمكن أن يتوب إنسان، إن كان باستمرار باراً فى عينى نفسه؟ فهل يحتاج الأصحاء إلى طبيب؟ (مت ٩: ١٢). أو كيف يستطيع هذا المتكبر أن يصلح أخطائه، إن كان باستمرار يبررها؟ وكأنه بلا خطية!

أنت لا تترك خطأ من الأخطاء، ما لم تعترف أولاً بينك وبين نفسك أنه خطأ. أما إذا اعتقدت أنك على صواب، فسوف تبقى حيث أنت، لا تغير فى نفسك شيئاً..

✽ ✽ ✽

إن مشكلة العزة بالنفس والكرامة والكبرياء الذاتية، هى التى تعوق الإنسان عن الاعتراف بأخطائه، حتى أمام أب اعترافه!

قد يعترف ببعض الخطايا التى لا يخجله ذكرها، ويخفى الباقي، أو يمر عليه مروراً عابراً، أو يشير إليه من بعيد، أو يقوله دمجاً، أو يقوله ويبرره.. وقد لا يعترف إطلاقاً، ويتحول اعترافه إلى شكوى ضد غيره. وكأنه أمام أب الاعتراف يعترف بخطايا غيره وليس بخطايا هو!

✽ ✽ ✽

وفى تبرير الإنسان لذاته، قد يسمى خطاياها بأسماء فضائل !

فقد يسمى ما يقع فيه من خبث ومكر ودهاء، بأنه لون من الحكمة! وقد يسمى تدليله الخاطئ لأطفاله بأنه حب وحنان، بينما يسمى قسوته بأنها حزم وتربية. ويسمى إدانته للآخرين وثورته الخاطئة على الأوضاع، بأنها غير مقدسة ورغبة فى الإصلاح.. وهكذا

مع باقى التصرفات ...

✱ ✱ ✱

على أن أخطر ما فى تبرير الذات وما فى المكابرة، أن يبدأ المتكبر المخطئ فى أن
يفلسف أخطاه ويبررها فكراً ليقنع الناس بها!

وهنا يوجد جواً من البلبلة الفكرية، حتى يحار البعض أين هو الحق؟! إن تبرير الذات
فى تصرفاتها هو تبرير سلوكى يتعلق بالشخص نفسه وحده. أما تبريرها فكراً، فهو يتعلق
بالتقييم والمبادئ، ويأخذ إتجاهاً عاماً.. لذلك فإن التبرير الفكرى للأخطاء له خطورة كبيرة.
فإن الحق ليس هو الهدف فيه، وإنما الذات. ويندفع الشخص فيه متأثراً بعوامل نفسية.

✱ ✱ ✱

المتكبر - فى تبريره لذاته - كل ما يهمله هو رأى الناس فيه، ولا يهمله مصير هذه
الذات فى الأبدية، مركزاً على توقيير الناس لها!

فهو يدافع عن نفسه، ويدافع عن أفكاره وتصرفاته . ويشرح ، وقد يعثر الغير فى
شرحه. وهو لا يهتم بشئ من ذلك. إنما المهم عنده هو أن تخرج ذاته بريئة سليمة بعيدة
عن اللوم .

وقد يودى تبريره لذاته ودفاعه عنها، إلى اتهام الغير أو تجريحه ولا بأس لديه من
ذلك، مادام ذاته هو تصل إلى تبرير يرضيها..

✱ ✱ ✱

وفى تبرير الذات فى أخطائها الفكرية، وقع البعض فى البدعة أو فى الهرطقة
وأصروا على ذلك، إذ منعهم كبرياؤهم من الاعتراف بالخطأ.
فى تبرير أخطاء الذات، يفقد ضمير المتكبر كل سلطان عليه، ويتولى قيادته روح
الكبرياء وعزة النفس.

✱ ✱ ✱

والعجيب أن الذين يبررون ذواتهم، قد يصلون طالبين مغفرة خطاياهم. وهم فى داخل
أنفسهم لا يرون أنهم خطاة فى شئ!!

فى الحقيقة أن تبرير الذات لا يفيدها، إنما تفيدها التوبة .

لأن التوبة تنقى الذات، بينما التبرير يعمل على تغطية الذات مع بقائها فى أخطائها.
والتوبة تعنى كشف الذات ومعرفة أخطائها، وتبكيها على هذه الأخطاء. ولكن المتكبر
للأسف الشديد، ترفض ذاته أن تتكشف وأن تعترف بالخطأ. فيبقى بعيداً عن التوبة .

إن الذى يظن فى نفسه أنه شئ، يكبر فى عينى نفسه، ويريد أن يكبر فى أعين الناس. وربما يكبر فى علاقته مع الله، ويقع بذلك فى التجديف! كما حدث مع الشيطان وكثير من الملحدين.

العجرفة :

هناك ثلاثة أنواع من العجرفة تصيب المتكبرين ...

وهذه هى العجرفة . ويقسمها البعض إلى ثلاثة أنواع :

عجرفة علمانية، وعجرفة رهبانية، وعجرفة فى العقيدة واللاهوتيات .

★العجرفة العلمانية هى أن ينتفخ الإنسان من الداخل. وتظهر الكبرياء فى نظراته، وفى مشيته وجلوسه، وفى مظهره الخارجى، وفى أسلوب كلامه.. يمشى فى خيلاء وعظمة، ويتخذ مظهراً أرسقراطياً فى كل تعاملاته ...

★أما العجرفة الرهبانية، فتظهر فى الافتخار بالصمت والوحدة، ولبس الخيش. كل ذلك من الخارج، دون التدريب فى الداخل على نقاوة القلب والفكر وممارسة ثمر الروح (غل: ٥: ٢٢، ٢٣). ومثل هذا الراهب يتعالى على زملائه الرهبان، ويحتقر وينتقد الذين ليسوا فى نسكه ووحده .

✱ ✱ ✱

★أما العجرفة فى مجال العقيدة واللاهوتيات ، فتظهر فى الذين يسعون إلى التكلم

بالسنة، ويقولون إنها علامة الملء بالروح.. ويتحدثون عن اختبارتهم علناً ومن فوق المناير. ويدعون منح الروح القدس بوضع أيديهم على الناس. ويقولون إن الشيطان تحت أقدامهم، يدوسونه بأرجلهم..!

★ وقد يدعى بعضهم المعرفة اللاهوتية، وأنه يأتي فيها بجديد لم يدركه غيره، فيقع بذلك في البدعة والهرطقة..!

العجيب أن كثيراً من الذين تكبروا، أو غالبية الذين تكبروا، كانوا من الذين قد أحسن الله إليهم، أو وهبهم إحدى المواهب.

إنسان يمنحه الله ذكاءً، أو لوناً من الفن، فينتفخ بسبب ذكائه أو فنه. وآخر يمنحه الله طاقة أو قدرة على العمل، فتكبر ذاته بسبب قدرته. وثالث يمنحه الله غنى، فينتفخ بسبب غناه، أو يسمح الله لإنسان أن يتولى منصباً عالياً أو وظيفة مرموقة، فيرتفع قلبه بسبب مركزه أو وظيفته.. وإذا به ينظر إلى الناس من فوق، أو يتجاهل أصدقائه القدامى.

✽ ✽ ✽

أمثال هؤلاء لم يحتملوا كرامة المركز والغنى، ولا كرامة الذكاء والطاقة. وكما قال القديس أنطونيوس الكبير في ذلك :

هناك من يستطيعون أن يحتملوا الإهانة، ولا يحتملون الكرامة. لأن احتمال الكرامة أصعب من احتمال الإهانة .

لأن كثيرين ممن نالوا كرامة، انتفخوا وارتفع قلبهم من الداخل، وفقدوا الاتضاع والوداعة. ومثلهم أيضاً من نالوا مواهب عقلية أو فنية، أو حتى مواهب روحية، دفعهم ذلك إلى الكبرياء أو على الأقل إلى الإعجاب بالنفس! حتى تلاميذ المسيح أنفسهم أدركهم الإعجاب بالنفس، لما خضعت لهم الشياطين بالموهبة التي منحها الرب أياها. وقالوا له وهم فرحون "يارب، حتى الشياطين تخضع لنا باسمك". فقال لهم "لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم. بل افرحوا بالحرى أن أسماءكم قد كتبت في السموات" (لو ١٠: ١٧، ٢٠).

✽ ✽ ✽

ولأجل هذا قال أحد الأدياء :

"إذا منحك الله موهبة، اطلب منه أن يهبك تواضعاً ليحميها. وإلا فليأخذها منك".

وذلك حتى لا يرتفع قلبك بسبب الموهبة، فتسقط ...

حقاً إن المتواضعين فقط هم الذين يأتهم الرب على مواهبه. كما قيل في الكتاب "أما

المتواضعون فيعطيهنمعة" (يع: ٤ : ٦) (أم: ٣ : ٣٤).

✱ ✱ ✱

لهذا اختار الرب أكثر العنراوات اتضاعاً لكي يتجسد منها. وتستطيع بتواضعها أن تحتمل هذه الكرامة العظيمة .

هذه التي قالت لها القديسة الیصابات "من أين لى هذا، أن تأتي أم ربى إلى" (لو: ١ : ٤٣). ومع أنها أم الرب، إلا أنها قالت للملاك المبشر لها "هوذا أنا أمة الرب. لیكن لى كقولك" (لو: ١ : ٣٨). حقاً إن التقدير "نظر إلى اتضاع أمتة" (لو: ١ : ٤٨).

وهكذا باتضاعها احتملت حلول الروح عليها وعمله فيها، واحتملت أن تحوى جمر اللاهوت داخلها "واحتملت الرؤى وظهور الملائكة وكل المعجزات التي صاحبت ميلاد الرب منها. ولم تتحدث كثيراً عن كل تلك الأمجاد. بل قيل عنها إنها كانت تحفظ جميع هذه الأمور فى قلبها" (لو: ٢ : ٥١).

✱ ✱ ✱

وهكذا تلاميذ الرب، إختارهم من بين فئات متواضعة:

فقيل "إختار الله جهال العالم ليخزى الحكماء. وإختار الله ضعفاء العالم ليخزى الأقباء. وإختار الله أديباء العالم والمزدرى وغير الموجود، ليبطل الموجود. لكى لا يفتخر كل ذى جسد أمامه" (١كو: ١ : ٢٧-٢٩).

واختار موسى "الأغلف الشفتين" (خر: ٦ : ٣٠)، العارف بضعفه، الذى قال للرب - حينما دعاه - "لست أنا صاحب كلام، منذ أمس ولا أول من أمس، ولا من حين كلمت عبدك. بل أنا ثقيل الفم واللسان" (خر: ٤ : ١٠). هذا العاجز عن الكلام، دعاه لكى يكون كليم الله، وصاحب المعجزات!

التجارب والمواهب :

الذين منحهم الرب مواهب، سمح لهم بالتجارب لتحميمهم من الكبرياء .

✱لنأخذ بولس الرسول كمثال :

كان صاحب رؤى كثيرة. رأى الرب حينما عاتبه الرب ودعاه وهو فى طريق دمشق (أع: ٩). وظهر له الرب أيضاً فى كورنثوس فى رؤيا بالليل وقال له "لا تخف، بل تكلم ولا تسكت. لأنى أنا معك، ولا يقع بك أحد ليؤذيك. لأن لى شعباً كثيراً فى هذه المدينة"

(أع ١٨ : ٩ ، ١٠). وظهر له فى الهيكل فى اورشليم، وقال له "اذهب، فإبى سأرسلك بعيداً إلى الأمم" (أع ٢٢ : ١٧ ، ٢١). وظهر له الرب مرة أخرى وقال له "ثق يا بولس، لأنك كما شهدت بما لى فى اورشليم، هكذا ينبغي أن تشهد فى رومية أيضاً" (أع ٢٣ : ١١).

بولس هذا الذى تعب فى الخدمة أكثر من جميع الرسل (١كو ١٥ : ١٠)، والذى كان يتكلم بالأسنة أكثر من الجميع (١كو ١٤ : ١٨)، والذى كان رجل استعلانات، يقول أخيراً، هذا الذى اختطف إلى السماء الثالثة (٢كو ١٢ : ٢): "ولئلا ارتفع بفرط الإستعلانات، أعطيت شوكة فى الجسد، ملاك الشيطان ليلطمنى لئلا ارتفع..". (٢كو ١٢ : ٧).

✱ ✱ ✱

سمح الله للشيطان أن يضرب بولس بشوكة فى الجسد ، لئلا يرتفع .

واستمرت هذه الشوكة معه فى جسده، تُسعره بضعفه، حتى لا يرتفع قلبه من فرط ما وصل إليه من مجد روحى. على الرغم من أنه تضرع إلى الله ثلاث مرات ليشفيه. ولكن الرب قال له "تكفيك نعمتى" (٢كو ١٢ : ٨ ، ٩). لأن قوة الله تظهر كاملة فى ضعف هذا الرسول...

✱ ✱ ✱

✱مثال آخر ، هو داود النبى :

داود صاحب المزمار والقيثار والعود ، الذى له مواهب فى الشعر وفى الموسيقى. وهو رجل حرب "جبار بأس" (١صم ١٦ : ١٨). هو الذى هزم جليات (١صم ١٧). وقبل ذلك قتل الدب والأسد فى شجاعة، ولم يخف منهما (١صم ١٧ : ٣٥ ، ٣٦). داود هذا، بما له من موهبة النبوة. وقد صار مهيئاً للرب، بعد أن مسح صموئيل النبى، وحل عليه روح الرب (١صم ١٦ : ١٣).

داود هذا بكل مواهبه، سمح الله أن يقوم ضده شاول الملك بكل عنف، ويذل حياته. ويطارده من برية إلى برية، ويدبر المؤامرات لقتله.. وعاش ذليلاً أمام شاول، حتى قال عن نفسه إنه برغوث، وكلب ميت (١صم ٢٤ : ١٤).

✱ ✱ ✱

بل سمح الله أن يسقط داود ويخطئ. فكانت سقطته هذه سبب ذل لنفسه من الداخل، وحياة غارقة فى البكاء والدموع، حتى قال "تعبت فى تنهدى. فى كل ليلة أعوم سريرى. بدموعى أبل فراشى" (مز ٦ : ٦). وقال للرب:

"خير لى يارب أنك أنزلتلى، لكى أتعلم فرقضك" (مز ١١٩: ٧١) .

نعم، كان خيراً له ذلك الذلّ الذى عاش فيه، الذى يقيم توازناً فى داخله مع مجد النبوة، ورفاهية الملك، وموسيقى الناي والعود...!

إنه درس روحى عميق، نتعلمه من هذا المزمور أن الله قد يسمح بالذلّ لأحد أبنائه من الأنبياء، لأن ذلك خير له، لكى يتضع قلبه، ولا تحوله الأمجاد المحيطة به إلى الكبرياء.

* * *

★ مثال ثالث هو أيوب الصديق .

سمح له الرب بذلّ من نوع الآخر، فيه الفقر والمرض وتحقير أصدقائه له.. هذا الذى شهد له الله مرتين إنه كامل ومستقيم (أى ١: ٨) (أى ٢: ٣). وأنه "ليس مثله فى الأرض، يتقى الله ويحيد عن الشر" .

وإلى جوار بره، كانت تحيط به العظمة من كل جانب: كان "اعظم كل بنى المشرق" (أى ١: ٣). وكان محترماً جداً من الناس. "راه الغلمان فأختبأوا، والشيوخ قاموا ووقفوا" "الأذن سمعت فطوبته، والعين رأت فشهدت له" (أى ٢٩: ٨، ١١). "أنقذ المسكين والمستغيث واليتيم ولا معين له" "كان أباً للفقراء، وعيوناً للعمى، وأرجلاً للعرج" (أى ٢٩: ١٢-١٦).

* * *

ولهذا كله سمح الله بتجربة لأيوب. كانت شديدة. ولكنها كانت لازمة له لتقده، حتى لا يكون باراً فى عينى نفسه" (أى ٣٢: ١).

إن الله يهمله جداً سلامة أولاده من الكبرياء المهلكة للنفس، لذلك فهو بالتجارب والضيق، أو بالآلام والأمراض، يحمى نفوسهم حتى لا يضرهم المجد المحيط بهم، أو شعورهم بحياة البر التى يحيونها.

* * *

★ مثال رابع هو يعقوب أبو الآباء :

هذا الذى أحبه الله قبل أن يولد (رو ٩: ١١-١٣). والذى قيل له فى بركته "كن سيداً لأخوتك، وليسجد لك بنو أمك" "ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل" (تك ٢٧: ٢٩). يعقوب هذا الذى ظهر له الله فى أعلى سلم منصوبة بين السماء والأرض والملائكة

صاعدة ونازلة عليها. وباركه الله وقال له: "ها أنا معك، وأحفظك حيثما تذهب..."
(تك ٢٨: ١٢-١٥).

يعقوب هذا الذي "جاهد مع الله والناس وقدر" (تك ٣٢: ٢٨)، ومنحه الله البركة،
ومنحه اسماً جديداً. وقد نظر الله وجهاً لوجه (تك ٣٢: ٣٠)...

يعقوب هذا - لكى يشعر بضعفه فلا يتكبر - "ضربه الله على حق فخذه"، وخرج من
مصارعته مع الله "وهو يجمع على فخذه" (تك ٣٢: ٣٠).
* * *

ولعلك تسأل: لماذا يارب تضرب يعقوب على فخذه، فيعيش كمعوق كل أيام حياته؟
وتكون الإجابة: لأن ذلك نافع له، وأفضل من أن تضربه الكبرياء فيهلك..

ونفس الوضع بالنسبة إلى بولس الرسول: أعطى شوكة في الجسد، "لكى لا يرتفع من
فرط الإعلانات". وكذلك أيوب الصديق: ضرب بقرح ردى من باطن قدمه إلى هامته"
لكى لا يكون باراً فى عينى نفسه" ...
* * *

إن الله يهيمه بالدرجة الأولى مصير أبنائه فى الأبدية. فإن كانت الضربات التى
تصيبهم على الأرض نافعة لأبديتهم، إذ توصلهم إلى انسحاق القلب، فلا مانع منها. وفى
هذا يقول القديس بولس الرسول:

"لذلك أسر بالضعفات والشتائم والضرورات والإضطهادات والضيقات لأجل المسيح.
لأنى حينما أنا ضعيف، فحينئذ أنا قوى" (١كو٢: ١٠).

الضعفات والضيقات تمنع الكبرياء، وتوصل إلى تواضع القلب. وأيضاً فى هذه
الضيقات - إذ يشعر الإنسان بضعفه - يلجأ إلى الله فيأخذ منه قوة. ولهذا قال القديس
بولس الرسول:

"أفتخر بالحرى فى ضعفاتى، لكى تحل على قوة المسيح" (١كو٢: ٩).

الباب الرابع :

الذات حَبِّبِ الْكِبْرِيَاءِ

- الذات تريد أن تكبر .
- الغرور .
- تحقيق الذات !
- السيطرة والطمع .
- كلمة أنا ، ولأنا .
- كيف تتخلص من الذات ؟

الذات سبب الكبرياء

تريد أن تكبر :

يقع فى الكبرياء الإنسان الذى يهتم بذاته بطريقة خاطئة، أو أنه يحب ذاته بطريقة خاطئة. فهو يكبر فى عينى نفسه. ويحب أن يكبر فى أعين الناس. بل يحب أيضاً أن يكبر أكثر من غيره.

★مثال للذى يكبر فى عينى نفسه .

كالشخص الذى يطيل النظر فى المرأة، يتأمل محاسن نفسه !..
أو كالذين أرادوا فى القديم أن يبنوا برج بابل، وقالوا بعضهم لبعض: "هلم نبين لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه فى السماء، ونصنع لأنفسنا اسماً" (تك ١١ : ٤) .. صدقونى يا أخوتى ربما كان هؤلاء أقل كبرياء فى أعين أنفسهم من الذين قالوا: نصعد إلى القمر، نرفع عليه علم بلادنا. نصعد أيضاً إلى المريخ. نمهد إلى سكنى الكواكب، أو ننظم رحلات إليها. كلها أمثلة للعقل البشرى، حينما يكبر فى عينى نفسه، ويتصور تصورات أو تخيلات تليق بهذا اللون من الكبر.

✱ ✱ ✱

★أما الذى يريد أن يكبر فى أعين الناس، وأن يمجده :

فهو مثل هيرودس الملك، الذى وهو يخاطب الناس من على عرشه، سرّ أن يمجده الناس قائلين "هذا صوت إله، لا صوت إنسان" (أع ١٢ : ٢٢). ففى الحال ضربته ملاك

الرب بسبب كبريائه، فمات وأكله الدود.

ومثال آخر هو هامان - فى عهد آشوريرش الملك - الذى اضطهد مردخاى لأنه لم يسجد له مثل سائر الناس الذين يمجّدونه (إس ٣: ٣-٦).

✱ ✱ ✱

★ على أن البعض لا يكفيه أن يكبر ، بل يريد أن يكبر أكثر من غيره .

مثال ذلك أبشالوم بن داود الملك، الذى أراد أن يصير أكبر من أبيه، وأن يجلس على العرش بدلاً منه. ودخل فى حرب ضده (٢صم ١٥-١٨).

★والذى يريد أن يكون أكبر من غيره، يقع فى حب الرئاسة.

وذلك ليكون أعلى من غيره قدرأ. وقد حورب الآباء الرسل بهذا الأمر: من يكون الأول فيهم. فقال لهم السيد الرب "أنتم تعلمون أن رؤساء الأمم يسودونهم، والعظماء يتسلطون عليهم. فلا يكون هكذا فيكم. بل من أراد أن يكون فيكم عظيماً، فليكن لكم خادماً. ومن أراد أن يكون فيكم أولاً، فليكن لكم عبداً" (مت ٢٠: ٢٥-٢٧).

✱ ✱ ✱

★وطبيعى أن الذى يحب أن يكون الأكبر، يكره أن يكون هناك من هو أفضل منه.

ونتيجة لهذا تدب فيه روح الغيرة والحسد:

فلما رأى شاول الملك أن الفتى داود قد ناله مديح أكثر منه، بعد أن انتصر على جليات الجبار، تملكته الغيرة والحسد، فأراد قتل داود أكثر من مرة، وطارده من مكان إلى آخر، وتغير قلبه من جهته (١صم ١٨: ٧-١٥).

أيضاً قايين قام على أخيه هاويل وقتله. لأن الرب قبل ذبيحة هاويل ولم يقبل تقدمته هو، فتملكته الغيرة والحسد التى انتهت به إلى القتل.

كذلك أخوة يوسف الصديق: لما رأوا أنه قد صار أفضل منهم، بالأحلام التى حكاها لهم، وبالقميص الملون الذى منحه أبوه إياه. لذلك حسدوه، وازدادوا أيضاً بغضاً له. واحتالوا عليه ليميتوه. وأخيراً باعوه كعبد (تك ٣٧).

نفس الغيرة أيضاً دبّت بين أختين شقيقتين هما لينة وراحيل، من أجل الأفضلية فى انجاب البنين، وفى كسب محبة الزوج (تك ٢٩: ٣١-٣٥). حتى قالت راحيل: مصارعات الله قد صارعت أختي" (تك ٣٠: ٨).

✱ ✱ ✱

★ عجيب أن يشعر إنسان بكبره، لأسباب تحيط بذاته من الخارج .

مثال ذلك سليمان الملك، الذى شعر بذاته لأسباب كلها خارجة عنه، مثل قوله "بنيت
لنفسى بيوتاً. غرست لنفسى كروماً. عملت لنفسى جنات وفراديس... عملت لنفسى برك
مياه لتسقى بها المغارس المنبثة الشجر. قنيت لنفسى عبيداً وجوارى.. وكانت لى أيضاً
قنية بقر وغنم أكثر من جميع الذين كانوا فى أورشليم قبلى..". وعجيب أنه قال بعد كل
تلك الأسباب الخارجية: "فعظمت وازددت أكثر من جميع الذين كانوا قبلى فى أورشليم"
(جا: ٤-٩).

بينما المفروض أن تكون أسباب العظمة من الداخل، كقول المزمور :

"كل مجد ابنة الملك من داخل" (مز ٤٥: ١٣) .

على الرغم من أنها "مشملة بأطراف موشاة بالذهب، ومزينة بأنواع كثيرة". ومع ذلك
ما أكثر الذين يكبرون فى أعين أنفسهم أو فى أعين الناس بأسباب خارج الذات مثل
السلطة والغنى والمركز وما أشبهه.

✱ ✱ ✱

★ على أن البعض قد يكبر بسبب ذاته: كان يكون حكيماً فى عيني نفسه، أو باراً فى

عيني نفسه.

الحكيم فى عيني نفسه، يعتد برأيه ويفكره. ويظن باستمرار أنه على صواب، وأن
الحق فى جانبه. بينما يقول الكتاب: "على فهمك لا تعتمد" "ولا تكن حكيماً فى عيني نفسك"
(أم ٣: ٥، ٧).

والحكيم فى عيني نفسه، لا يرى أنه محتاج إلى مشورة أو أى نصيح. لأنه مكتفٍ بذاته
من جهة الفكر، وواثق بمعرفته. بل قد يصل فى ذلك إلى مقاومة الرأى الآخر، فى عناد
وتشبث برأيه.

أما البار فى عيني نفسه، فهو الذى يشعر أنه لا يخطئ أبداً. ولذلك فهو لا يقبل عتاباً.
ولا يكون مستعداً لتغيير مسلكه .

الغرور :

والبار فى عيني نفسه، والحكيم فى عيني نفسه، كلاهما يصيبيهما الغرور .

والمغرور له ثقة زائدة فى نفسه. يظن فى نفسه أكثر من حقيقتها بكثير. ويعتد بنفسه.

وربما تكون له مواهب أو قدرات تتعبه، وتكون مصدراً لغروره. أو قد يظن أن له مثل هذه المواهب والقدرات.

المغرور بذاته يعتمد على نفسه . أما المتواضع فيعتمد على الله .
الواثق بنفسه يكون كثير العمل. أما المتواضع فيكون كثير الصلاة .
المغرور إذا نجح ، يفتخر بعقليته وجهده وعمله. أما المتواضع فإذا نجح، يشكر الله -
لأنه لم ينجح إلا بمعونة منه.

✱ ✱ ✱

وهذا المغرور قد لا يعمل شيئاً. ولكنه في كثير من الأحيان يسبح في أحلام اليقظة،
ويتخيل فيها أنه يقوم بعظائم الأمور!!
وهو قد يقحم نفسه في أمور ربما تكون فوق مستواه، ظاناً أنه يستطيع أن يبدى فيها
رأياً، أو يعمل فيها عملاً. وغالباً ما يفشل...
وإن فشل أو صدّه الناس، قد ينطوى . يتأمل في وحدته محاسن نفسه ومواهبها، بعيداً
عن مجتمع لا يقدرها ولا ينتفع بها!!

تحقيق الذات :

*الذى يريد أن يكبر ذاته يعمل على تحقيق ذاته في كل شيء .
ويقصد بعبارة (تحقيق ذاته) أنه يشعر بوجود هذه الذات وحفظ مكانتها في كل عمل
تعمله، حتى في الكنيسة، وفي الخدمة، يريد أن هذه الذات تظهر وتحقق وجودها. وما
أكثر ما تتحطم الخدمة بظهور الذات ومحاولتها أن تبدو وأن تسيطر. ولا مانع من أن
تصطدم بغيرها، ويسود الانقسام والصراع في الخدمة بسبب الذات.

✱ ✱ ✱

حتى في التعليم، قد تحاول الذات أن تثبت وجودها .
وربما في سبيل ذلك، يوجد المنهج الخاص والتعليم الخاص، والخروج عن المفهوم
العام لتقديم مفهوم خاص تتميز به الذات وتظهر. وقد تحاول أن تحطم التعليم القديم الثابت
في الأذهان، لتقدم تعليماً جديداً.. وهكذا تظهر البدعة. وتدافع الذات عنها لتثبيتها.
وفي الخدمة، ما أسهل أن تسعى الذات وراء المتكآت الأولى، والمنافسة عليها. فلا
تكون الذات باذلة في مجال الخدمة، بل تكون الخدمة هي الوسيلة التي تظهر بها الذات،

وتنال بها تقديراً واحتراماً.

✱ ✱ ✱

✱ ومن أخطر ما تقع فيه الذات : الاستقلال عن الله .

وكان الذات تبحث عن ملكوتها هي، وليس عن ملكوت الله. وتهتم بتنفيذ مشيئتها الخاصة، لا مشيئة الله، وتحقيق رغباتها هي، لا وصايا الله. وبهذا تبعد كل البعد عن حياة الطاعة والتسليم.

ومن الأمثلة البارزة في هذا المجال يونان النبي، الذي هرب من تنفيذ أمر الله في الذهاب إلى نينوى والمناداة عليها بالهلاك. لأنه كان يدرك أنها إن تابت بمناداته، سيغفر الله لها ولا تهلك.. فتسقط كلمته في المناداة عليها. وقد حسب ذلك ضد كرامته!!
لذلك عندما رحم الله أهم نينوى، غمّ ذلك يونان غماً شديداً فاغتاظ، وقال: الآن يارب خذ نفسي، لأن موتى خير من حياتى (يون 4: 1-3).

✱ ✱ ✱

✱ ومن مظاهر استقلال النفس عن الله ، رغبتها في أن تحيا في حرية مطلقة، ولو

أدى الأمر أن تعصى فيها كل وصايا الله!!

وهذا ما وقع فيه الكثيرون، وقادتهم الحرية الخاطئة إلى التسيب والانحلال، وإلى الإباحية والشذوذ، والمطالبة لأنفسهم بحقوق في إباحيتهم وشذوذهم. ومن أمثلة ذلك أيضاً الوجوديون، الذين رأوا أن وجودهم لا يتحقق في ظل وصايا الله. فنادوا بأنه من الخير أن الله لا يوجد، لكي يوجدوا هم، أى لكي تتحقق لهم الحرية الكاملة في التمتع باللذة المنحرفة مستقلين عن الله..!

✱ ✱ ✱

والذى من أجل تحقيق ذاته، يأخذ هذا الموقف من الله، طبيعى جداً أن يأخذ نفس

الموقف من أب الاعتراف .

فهو لا يريد أن يكون أب الاعتراف عائقاً لحرية. لذلك لا يطيعه إلا فيما يتفق مع غرضه هو. وإن نصحه أب الاعتراف بتدبير يراه ضد فكره واتجاهه، يجادله ولو إلى حد عدم الاستجابة لإرشاده. وقد يلجأ إلى عدم استشارته مطلقاً فى أى أمر يشعر بأنه سيرفضه.

وبهذا يريد أن يكون أب اعترافه مجرد جهاز تنفيذى لرغباته، يعطيها شرعية كنسية

بالموافقة عليها، أن يسلك حسب هواه...

السيطرة :

*والإنسان الذي يحب ذاته يمثل هذه المحبة الخاطئة، تظهر هذه الذات مسيطرة في معاملته .

فهو يريد أن يكون أهم من غيره. ويريد احتراماً لذاته من كل من يتعامل معه. ويكون حساساً جداً لكرامته وسمعته ونفوذ كلمته! وبسبب ذلك ما أسهل أن يصطدم بغيره. وتقوده الذات إلى خصومات وربما إلى معارك. ويقوده التنافس إلى الحسد. وتظهر (الأنا) Ego واضحة في تعامله ، تقوده إلى الأنانية التي تسبب له كراهية الناس وتجنبهم للاختلاط به. ويميل إلى العظمة وتشامخ الروح. ويود أن تكون هذه العظمة له وحده، وتزول من غيره لتستقر عنده. ويستاء من كل مديح يوجه إلى غيره. كما لو كان إعجاب الناس وقفاً عليه وحده!

الطمع :

والمهتم بذاته يقع أيضاً في الطمع .

وينطبق عليه قول الكتاب "كل الأنهار تجري إلى البحر، والبحر ليس بملآن" (جا: ١٧). ذاته لا تحاول أن تكتفي في كل المجالات. لا تكتفي غنى ولا عظمة ولا مديحاً. أليس أن الشيطان لم يكتف بما كان فيه من مجد، فأراد أن يرتفع فوق كل كواكب الله، بل أن يصير مثل العلي! (أش: ١٤: ١٣، ١٤).

وفي طمع الإنسان المحب لذاته، قد لا يسمح بأن يعطى فرصة لغيره أن ينال شيئاً إلى جواره. كما قيل عن رعاة لوط أنهم اختصموا مع رعاة إبراهيم، لما كثر الخير فتنافسوا على المراعى. وقيلت تلك العبارة المؤلمة "ولم تحتملها الأرض أن يسكننا معا" (تك: ١٣: ٦).

والذي تقوده الذات إلى الطمع، يصعب عليه العطاء .

فيجب الأخذ أكثر من العطاء، بعكس وصية الرب (أع: ٢٠: ٣٥).

من أجل تمرّكه حول ذاته، يصعب عليه دفع العشور والبيكور، ويصبح العطاء كأنه اقتطاع من ذاته. وفي قصة الغنى ولعازر (لوقا ١٦) كان لعازر يشتهي الفتات الساقط من مائدة الغنى، وذلك لا يعطيه.

وبالتالى فإن المحب لذاته - إذا أعطى - يصعب عليه أن يعطى فى الخفاء. لأن ذلك لا يمجّد ذاته فى أعين الناس .

وإن أعطى ، يكون عطاؤه كله خارج ذاته ، بينما أعظم العطاء هو فى بذل الذات لأجل الغير حسب قول الرب (يو ١٥ : ١٢).

✳ ✳ ✳

والمحب لذاته يقع فى الافتخار وفى تبرير الذات .

فهو يكثر الحديث عن نفسه وفضائلها . وبلاشك يتحدث عن أنصاف الحقائق. لأن النصف الآخر من الحقيقة - وهو ضعفات ونقائص تلك النفس - لا يذكره فى حديثه .

كلمة أنا :

كلمة (أنا) Ego والكبرياء يسيران معاً فى طريق واحد منحرف، ويقعان معاً فى هاوية واحدة، بعيداً عن محبة الله والناس .

إنها كلمة (أنا) فى سعيها إلى الظهور، وفى طلبها للكرامة، ولمزيد من الحقوق، سواء على المستوى الدنيوى، أو المستوى الدينى.

✳ ✳ ✳

ونقصد بكلمة (أنا) كل ما يتعلق بها أو ينتسب إليها ..

كمن يقول : عائلتى، وقريتى، وفريقي، وأهلى، وعشيرتى... إلخ

كلها تحمل معنى (الأنا) فى الانتماء إليها، وفى الافتخار بها، وفى التعصب لها. على مستوى الجماعة، كما على مستوى الفرد.

(الأنا) تريد كل شئ لها. وعلى الأقل تريد أفضل شئ لها..!

✳ ✳ ✳

ولأسف تبدو كمرض ينشأ منذ الطفولة المبكرة!!

فعلى الرغم من وصف الأطفال بأنهم ملائكة، إلا أن (الأنا) تسود على غالبيتهم. فالطفل من صغره يتمسك بمحبة الذات التى تقوده إلى الغيرة وإلى الأنانية. فهو قد

يتضايق إن أحببت أمه أو دلت طفلاً غيره. لأنه يريد كل الحب وكل التدليل له وحده. وإن أنجب أبواه طفلاً بعده، قد يعتبره منافساً له في اهتمام الوالدين به. فهو يريد كل الاهتمام له! وإن رأى طفلاً آخر يلعب بلعبة جميلة، ربما يحاول أن يأخذها منه، أو يبكي بسبب ذلك.. إنها الذات ومشاكلها...

✱ ✱ ✱

وبسبب ذلك فإن أسرة الطفل تحاول أن تملكه أو تجامله، لتخفف من ضغط الذات عليه.

وتقول له: أنت طفل جميل حلوا! أنت أحلى ولد. لا يوجد أبداً مثلك.. وتظل تعطيه من أصناف المديح، بل ومن الهدايا والعطايا، لكي تشبع فيه (تحقيق الذات)، وتخفف عنه حروبها ومشاكلها! أو تحاول أن تقنعه بالرضى على غيره من الأطفال. أو تعطيه ليعطيهم، فيكون العطاء عن طريقه، فتشبع ذاته وترضى..!

✱ ✱ ✱

محبة الذات هذه تتبع الطفل في نموه. وتكبر عنده حينما يكبر ويصير شاباً أو رجلاً. وتصير مصدراً لألوان من الكبرياء عنده .

والأمر يحتاج إلى حكمة كبيرة في أساليب التربية، لإتقاذ الطفل في أطوار نموه من كبرياء الذات وأنايتها. وتفهمه بأنه يمكن أن يكبر في الفضيلة، وفي النمو الروحي.. إلى أن توصلته إلى تفضيل التواضع حينما يكبر في السن.. وليس هذا بالأمر السهل، ولكنه يحتاج إلى خبرة في التربية، ودراية بأساليب الإرشاد الروحي .

أما الذي في نموه في السن، يستمر في اشباع الذات بالاستحواز على كل شيء، فهو لا يزال يحتفظ ببعض أمراض الطفولة نفسياً .

✱ ✱ ✱

وتبقى عنده مشكلة الذات: ماذا أكون؟ ومتى أكون؟ وكيف أكون؟ وكيف تكبر ذاتي؟ وكيف تفوق غيرها؟..

وتتحول ذاته إلى صنم يتعبد له!! بل قد تتبعه عبادة الذات في المجال الديني أيضاً!! فإن دخل في خدمة الكنيسة أو في خدمة المجتمع، ترى ذاته أيضاً أمامه: كيف يكبر في مجال الخدمة؟ كيف يكون له الرأي الواجب التنفيذ؟ ويكون هو الأول أو يكون هو الوحيد والباقيون أتباعاً!! كل ذلك في مجال خدمة الرب!!

بل حتى في الصلاة، تقف الذات أمامه! كيف يعجب الناس بصلاته؟! وكيف باستجابة صلاته، ينال إعجاب الناس!! إنها (الأنا) التي لا تصلى لأجل خير الناس ومنفعتهم، إنما تصير (الأنا) هدفاً، تكبر عن طريق الصلاة واستجابتها! وإن لم يستجب الله لمثل هذه الصلاة، يدخل في عتاب مع الله: كيف تخلى عن أناه!!

✱ ✱ ✱

وربما في المعاملات، يريد أن يفرض صنم هذه الأنا على غيره! فكما أنه يحب هذه الأنا، ويتعبد لها ويمدحها، يريد أيضاً أن الكل يتعبدون لها ويمدحونها ويوافقونها على كل ما تريد!! ومن يعارض رغبات ذاته، يتخذ له عدواً ويقاومه! لأنه لم يُشبع هذه (الأنا) ما تهواه من كرامة ومن كبرياء! وغالباً ما تكون (الأنا) سبب كل عداوة وانقسام واختلاف. ويبقى أن الله ينجي الإنسان من خطورة هذه (الأنا) عليه وعلى غيره. وأيضاً على الإنسان أن يبحث عن وسائل تخلصه من أناه...

✱ ✱ ✱

وربما إنسان يستخدم هذه (الأنا) لاهوتياً أو عقائدياً، فيفتخر بما وصلت إليه ذاته من رفعة روحية.

فيقول: أنا تجددت. أنا تطهرت. أنا تقدست. أنا تبررت. أنا ضمننت الملكوت. أنا قد صار الشيطان تحت قدمي، أدوسه بكل قوة وأطرده.. وتكرر كلمة (أنا) في مثل هذا الإفتخار! وفيه كله، لا يذكر إطلاقاً عمل النعمة فيه! ولا يذكر الضعف البشري المعرض للسقوط. ولا يذكر قول الكتاب عن نبي عظيم مثل إيليا: "إيليا كان إنساناً تحت الألام مثلاً!" (يع: ٥: ١٧) مع أنه "صلى صلاة أن لا تمطر السماء، فلم تمطر على الأرض ثلاث سنين وستة أشهر. ثم صلى أيضاً، فأعطت السماء مطراً، وأخرجت الأرض ثمرها" (يع: ١٧، ١٨).

للأسف يستخدم الإنسان ما عمله نعمة الله معه، لتفتخر بها ذاته، وليس لكي يمجد عمل النعمة فيه، مع الاعتراف بضعفه.

✱ ✱ ✱

أما الآباء الأنبياء والرسل والقديسون، فقد استخدموا كلمة (أنا) في مجال الانضاع وانسحاق النفس...

ابراهيم أبو الآباء ، الذى باركه الله، وجعله بركة، وقال له: "وفيك تتبارك جميع قبائل الأرض" (تك ١٢: ٣، ٢)، نراه فى مجال كلمة (أنا) يقول "أنا تراب ورماد" (تك ١٨: ٢٧). ودلود النبى، الذى كانت له دالة كبيرة عند الله، وقد صنع الله به نصراً عظيماً على جليات (اصم ١٧)، نراه بعد ذلك لما عرضوا عليه مصاهرة الملك شاول، يقول لهم "هل هو مستخف فى أعينكم مصاهرة الملك، وأنا رجل مسكين وحقير" (اصم ١٨: ٢٣).. وما أكثر اعترافه فى مزاميره بضعفه. كأن يقول "ارحمنى ياربى فإنى ضعيف" (مز ٦: ٢).

ويوحنا المعمدان، مع أنه كان أعظم من ولدته النساء (مت ١١: ١١)، يقول للرب "أنا المحتاج أن أعتمد منك" (مت ٣: ١٤). ويقول للناس "يأتى بعدى من هو أقوى منى، الذى لست أنا مستحقاً أن أحل سيور حذائه" (مت ٣: ١١) (لو ٣: ١٦).

وبولس الرسول العظيم، الذى اختطف إلى السماء الثالثة (كو ٢: ١٢)، قال عن ظهور السيد المسيح للرسول بعد القيامة "وآخر الكل، كأنه للسقط ظهر لى أنا، لأنى أصغر الرسل، أنا الذى لست أهلاً أن أدعى رسولاً، لأنى أضطهدت كنيسة الله" (كو ١٥: ٨، ٩).

* * *

هذا هو الاستخدام السليم لكلمة (أنا) بروح الانسحاق .

وبنفس الروح، يرسل القديس العظيم بولس الرسول إلى تلميذه تيموثاوس فيقول "أنا الذى كنت قبلاً مجدفاً ومضطهداً ومفترياً. ولكنى رُحمت لأنى فعلت بجهل فى عدم إيمان" (١تى ١: ١٣). يقول ذلك عن نفسه فى رسالة إلى تلميذه، بينما العادة أن يفتخر المعلمون أمام تلاميذهم! ولكنه يستخ كمة (أنا) بالطريقة السليمة.

ونلاحظ أنه عندما تحدث عن اختطافه إلى السماء الثالثة، لم يقل أنا، إنما قال "أعرف إنساناً فى المسيح يسوع" (كو ٢: ١٢) فلم يستخدم كلمة (أنا) فى مجال التمجيد بينما استخدمها فى الإعراف بأخطائه.

* * *

فى تمجيد الذات، اهتم الآباء بتمجيدها فى السماء لا على الأرض .

فى مجد (الأنا) على الأرض، فى هذه الحياة الحاضرة القصيرة، كان يخيفهم قول الرب عن هؤلاء الذين ينالون مديحاً هنا من الناس: "الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم" (مت ٦: ٢). وتكررت نفس العبارة فى (مت ٦: ٥: ١٦). وبنفس المعنى قال أبونا ابراهيم لغنى لعازر: "يا ابنى، اذكر أنك استوفيت خيراتك فى حياتك" (لو ١٦: ٢٥).

أما الذين "أجرهم عظيم في السماء"، فهم أولئك الذين أخفوا كلمة (أنا)، وعملوا الفضيلة في الخفاء، أمام أبهم السماوى الذى يرى فى الخفاء، وسيجازيهم علانية (مت ٦). وأيضاً أولئك الذين استخدموا عبارة (لا أنا) وما يشابهها .

لا أنا :

مثال ذلك القديس بولس الرسول الذى قال عن خدمته الناجحة: "ولكن بنعمة الله، أنا ما أنا. ونعمته المعطاة لى لم تكن باطله. بل أنا تعبت أكثر من جميعهم. ولكن لا أنا بل نعمة الله التى معى" (١كو ١٥ : ١٠). وهنا نركز على عبارة: "لا أنا، بل نعمة الله التى معى" .

ويكرر بولس الرسول نفس المعنى، فيقول "مع المسيح صُلبت. فأحياناً لا أنا، بل المسيح يحيا فى" (غل ٢ : ٢٠). لا أنا الذى يعمل، بل المسيح الذى فى يعمل كل شئ. أما فقد صُلبت معه. لقد صُلبت كلمة (أنا) فما عادت تظهر .

✱ ✱ ✱

وهكذا كل الخدام، لا تريد أن (الأنا) تتال مجداً، بل يقولون: "ليس لنا يارب ليس لنا. لكن لاسمك القدوس أعطِ مجداً" (مز ١١٥ : ١).

نعم، فى مجال التمجيد يقول كل منا: لا انا، ليس لنا .

وهذا هو التدبير الذى سار عليه القديس يوحنا المعمدان. فكان يرفض كل تمجيد موجه إليه، إلى "الأنا" ويحوّله إلى السيد المسيح قائلاً عبارته الخالدة :

"ينبغى أن ذاك يزيد، وأنى أنا أنقص" (يو ٣ : ٣٠).

ما أكثر ترديد المعمدان لعبارة لا أنا، أو لست أنا...

أما أنا فمجرد "صديق للعريس، يقف ويسمعه فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذن فرحى هذا قد كمل" (يو ٣ : ٢٩).

✱ ✱ ✱

وعبارة (لا أنا) نقولها ليس فقط من جهة علاقتنا بالله، بل أيضاً من جهة علاقتنا ببعضنا البعض...

فمن جهة الكرامة، يقول كل منا: لا أنا، عملاً بوصية الرسول: "مقدمين بعضكم بعضاً
في الكرامة" (رو ١٢: ١٠).

ومن جهة الرئاسة يقول أيضاً كل منا لا أنا، عملاً بوصية الرب الذي قال: "من أراد
أن يكون فيكم عظيماً، فليكن لكم خادماً. ومن أراد أن يكون فيكم أولاً، فليكن لكم عبداً"
(مت ٢٠: ٢٦، ٢٧).

✱ ✱ ✱

وفي عبارة (لا أنا) نتبع وصية الرب في المتكأ الأخير .

نترك المتكآت الأولى للكتبة والفريسيين الذين يشتهونها (مت ٢٣: ٦). وإن عرضت
علينا يقول كل منا: لا أنا. بل أخي أفضل مني وأولى. وهكذا نحيا حياة الاتضاع ...

كيف نتخلص من الذات (من الأونا)

يمكننا أن نتخلص من سيطرة الذات بالأمر الآتية :

١ - قهر الذات :

الصوم والعفة يدخلان في قهر الذات، من جهة ضبط طلبات الجسد وشهواته. وهناك قهر آخر للذات من جهة شهوات النفس.

فقد تشهت النفس حب الظهور، وأن تعلن عن ذاتها وتسعى وراء العظمة. وفي هذا كله ينبغي أن نقاومها. وسعيد هو الإنسان الذي يراقب نفسه ويمنعها كلما تشرد وراء التعمات العالمية. ويقنعها بأن التنعم بالله أفضل.

إن مالت نفسك أو مال جسدك إلى متع هذا العالم، إمنعها بشدة: لا قسوة عليهما، إنما ضماناً لأبديتك. لأن الذي يدل نفسه هنا يهلكها...

✱ ✱ ✱

والذي يتراخي في ضبط ذاته، تقوى ذاته عليه، وتتمرد على سلوكه الروحي. بعكس الذي يدرّب ذاته ويروضها في دروب الرب.

إن الوسيلة التي تبني بها ذاتك، هي أن تقهر ذاتك وتغلبها. لأنك بقهر الذات وتغلبك عليها، تصل إلى المجد الحقيقي للذات، الذي هو غير المظاهر الخارجية من العظمة واللذة والشهرة.. كل هذه الأمور البرانية. بينما ينشد المرتل قائلاً في المزمور "كل مجد ابنة الملك من داخل" (مز ٤٥).

✱ ✱ ✱

ثق أن في قهر الذات لذة روحية، لا تعادلها كل ملاذ الجسد.
لذلك إن أردت أن تبني ذاتك، إقهرها من جهة تطلعاتها الخارجية، لكي تبنيها من
الداخل. وحينئذ تجدها في الله، وتجد الله فيها. وتبصرها صاعدة نحو الأبدية.

✠ ✠ ✠

ومن هنا كان الزهد من وسائل علاج الأنا .

وفي الزهد تبني ذاتك - لا في هذا العالم الحاضر - إنما في العالم الآتى. وكما كان
يوسف الصديق يخزن قمحاً للسنوات المقبلة، كذلك أنت إخزن ما ينفعك يوم تقف أمام
الديان العادل. وكما خزنت العذارى الحكيمات زيتاً لحين مجئ العريس (مت ٢٥). كذلك
إخزن أنت زيتاً من عمل الروح القدس فيك...

اقهر ذاتك في أمور العالم، لأن العالم يبید وشهوته معه (ايو ٢: ١٧).

✠ ✠ ✠

إن أرادت نفسك أن تنتصر على الغير، اقهرها. فالانتصار الحقيقي هو الانتصار على
الذات.

أما الغير: فبدلاً من أن تنتصر عليهم، إكسبهم. لأن الكتاب يقول "رابح النفوس حكيم"
(أم ١١: ٣٠)... إن الانتصار على الناس سهل. ولكن كسب الناس هو الذى يحتاج إلى
مجهود، إن كنت فيه تقهر ذاتك...

★نقطة أخرى في علاج الأنا . وهى محبة الآخرين وخدمتهم .

مَحَبَّة الْآخَرِينَ وَخَدْمَتِهِمْ :

أخرج من حبس ذاتك داخل نفسك، إلى نطاق الآخرين .
يقول المزمور "إخرج من الحبس نفسى" (مز ١٤٢: ٧). وأى حبس هو أقوى من أن
تحبس نفسك داخل هذه الأنا؟! أخرج منها إذن، واندمج في العالم الخارجى، مع الآخرين
تحبهم وتخدمهم وتتعاون معهم.

قطعاً ، الشخص الذى يحب ذاته ، لا تهمة محبة الآخرين .

حاول إذن أن تخرج من التركيز على الاهتمام بنفسك، إلى الاهتمام بالآخرين. وثق
أنك ستجد في هذا لذة. وسوف يبادلونك حباً بحب، وتجد في محبتهم ما يشبع نفسك.

✠ ✠ ✠

أنتقل من مجال الأخذ إلى مجال العطاء .

تدرب على أن تعطى الغير، تعطيتهم خدمة، تعطيتهم وقتاً، تعطيتهم حباً وجهداً ومساعدة.. وإذا نما الإنسان في تدريب العطاء، فإنه يعطى حتى نفسه. وهذا أسمى ما يصل إليه في الإنطلاق خارج الذات...

وإن كان من أخطاء (الأنا) : البخل. فالعلاج هو العطاء .

حيث يتدرب الإنسان على اليد المفتوحة باستمرار، الممدودة بالعطاء إلى الغير، في سعة، وفي رفق وحنان .. شكرهم سوف يشبعه. ومساعدتهم ستغير قلبه وتملؤه بمشاعر نبيلة، فيعطى أكثر، ويزداد في خدمة الآخرين وفي إسعادهم.

✳ ✳ ✳

ويتعود أن يتعب لأجل الآخرين .

لا يهتم براحة نفسه، إنما براحة غيره. على عكس الأناني الذي يجعل راحته على تعب الآخرين. وكلما ينمو الإنسان الروحي في الاهتمام براحة الآخرين، قد يصل إلى حياة التكريس. لأن المكرس هو الذي يجعل حياته كلها لأجل الآخرين.

✳ ✳ ✳

★نقطة أخرى في معالجة (الأنا)، هي التواضع .

التواضع :

الإنسان الذي يعيش في محبة (الأنا)، يهمله أن تكبر ذاته باستمرار، وفي المقارنة يريد أن تكون أعلى من غيره. وعلاج ذلك أن يضع أمامه قول الرسول:
"مقدمين بعضكم بعضاً في الكرامة" (رو ١٢ : ١٠).

وعن ذلك يقول الشيخ الروحاني "في كل موضع تحلّ فيه، كن صغيراً أخوتك وخدمهم". بل إن السيد الرب يقول "إن أراد أحد أن يكون أولاً، فليكن آخر الكل وخداماً للكل" (مر ٩ : ٣٥). وهكذا يمارس فضيلة (المتكأ الأخير) .

✳ ✳ ✳

والمقصود بالمتكأ الأخير، أن يكون الأخير لا من حيث المكان، بل من حيث المكانة. فلا تحسب نفسك أهم الموجودين في المكان الذي تحلّ فيه. ولا أن رأيك هو أهم

الأراء، وقرارك هو أهم القرارات، ومركزك هو الأهم!! ولا تفكر في أنه ينبغي أن تكون أنت المطاع والمحترم بين الكل!

* * *

لا تعطِ لنفسك كرامة وتفرضها على الآخرين .

إنما اترك الناس يكرمونك من أجل ما يرونه من تواضعك ووداعتك.. لا ترغم الناس على احترامك. فالاحترام شعور ينبع من داخل القلب. لا يُفرض بالإرغام، إنما بالتقدير الشخصي..

قد ترغم إنساناً على طاعتك، ولكن لا تستطيع أن ترغمه على احترامك.

* * *

وفي معاملتك مع الناس، كن نسيماً لا عاصفة .

كثيرون يحبون صفة العاصفة، لأنها تحمل معنى القوة. أما النسيم فيمثل الوداعة واللطف، اللذين ينبغي أن يتصف بهما من ينكر ذاته. وفي تواضعك لا تفضل نفسك على غيرك. على أن يكون ذلك بعمق الحب وعمق الاتضاع، وبغير رياء..

* * *

في اتضاعك ، قل أنا . من أنا؟ أنا مجرد تراب ورماد .

بل قبل أن أكون تراباً، كنت عدماً. خلق الله التراب قبلاً مني، ثم صنعني من هذا التراب... وهنا يخفى منك الاعتداد بالذات. وفي اتضاعك أيضاً ، تصل إلى فضيلة (إدانة الذات) .

إدانة الذات :

الإنسان المصاب بالآنا، يكون باستمرار باراً في عيني نفسه .

إذا اخطأ لا يعتذر، لأنه يظن أنه على حق ولم يخطئ! وإذا حدث سوء تفاهم بينه وبين أحد من الناس، لا يذهب إليه ليصالحه. لأنه يأمل أن طلب الصلح لا بد أن يأتي من الطرف الآخر، باعتبار أن الخطأ قد صدر من ذلك وليس منه!

بل حتى مع الله ، قد لا يعترف بأخطائه، لأن ذاته تقنعه أنه لم يخطئ!

* * *

العلاج إذن أن يحاسب الإنسان نفسه بغير تحيز، ودينها .

يدين ذاته فى داخل نفسه. ودينها أمام الله وأمام أب اعتراف. ودينها أمام الغير حينما يلزم ذلك.

ودينها فى اتضاع. ولا يجلب اللوم على غيرها، كما فعل أبونا آدم وأما حواء (تك ٣). ولا يبرر ذاته من جهة أسباب الخطأ وظروفه. فكل دواعى التبرير سببها الذات وتمسكها ببرها الذاتى...

إن الإنسان الذى لا يعكف على تمجيد ذاته وتكبيرها، بل يهدف باستمرار إلى تنقية ذاته مما يشوبها من أخطاء ونقائص.. تراه يلوم نفسه ودينها، لأنه بهذا يمكنه تقويمها وتصحيح مسارها.

✱ ✱ ✱

فى إحدى المرات زار البابا ثاوفيلس منطقة القلاى، وسأل الأب المرشد فى ذلك الجبل عن الفضائل التى أتقنها، فأجابته:

"صدقنى يا أبى، لا يوجد أفضل من أن يأتى الإنسان بالملامة على نفسه فى كل شئ".

هذا هو الأسلوب الروحى الذى يسعى به الإنسان إلى تقويم ذاته: يأتى بالملامة على نفسه، وليس على غيره، وليس على الظروف المحيطة. وليس على الله!! ظاناً أن الله لم يقدم له المعونة اللازمة!

✱ ✱ ✱

ليتنا ندين أنفسنا ههنا، حتى ننجو من الدينونة فى اليوم الأخير.

لأننا بإدانتنا لأنفسنا، نقرب إلى التوبة. وبالتوبة يغفر لنا الرب خطايانا. أما الذى لا يدين ذاته، بسبب اعتزازه بهذه الذات، فإنه يستمر فى خطاياها، ولا يتغير إلى أفضل. ويكون تحت الدينونة. وصدق القديس الأبا أنطونيوس حينما قال:

"إن دنا أنفسنا ، رضى الديان عنا"

"إن نكرنا خطايانا ، ينساها لنا الله" .

"وإن نسينا خطايانا، يذكرها لنا الله"

✱ ✱ ✱

كذلك فإن إدانتنا لأنفسنا، تساعدنا على المصالحة بيننا وبين الناس، يكفى أن يعتذر

الشخص ويقول لأخيه "لك حق. أنا قد أخطأت في هذا الأمر"، لكي يضع بهذا حداً لغضب المساء إليه، ويتم الصلح معه. أما إذا استمر المخطئ في تبرير موقفه، فإن الخصم يشتد بالأكثر في إدانته. وما أجمل قول القديس مكاريوس الكبير:

"احكم يا أخى على نفسك، قبل أن يحكموا عليك".

✱ ✱ ✱

★ نقطة أخرى تساعدك على علاج الذات وهى :

ضع أمامك مثال المسيح :

إن كان الإنسان الأول قد انهزم فى حرب الذات، واشتهى أن يصير مثل الله (تك ٣: ٥)، فإن السيد المسيح الذى بارك طبيعتنا فيه، صحح هذه النقطة. وكيف ذلك؟ يقول الرسول عنه إنه :

"أخلى ذاته، وأخذ شكل العبد، صائراً فى شبه الناس" (فى ٢: ٧).

✱ ✱ ✱

وعاش على الأرض فقيراً، ليس له أين يسند رأسه (لو ٩: ٥٨) بلا وظيفة رسمية فى المجتمع. وتنازل عن كرامته "ظلم. أما هو فقتل ولم يفتح فاه" وأحصى مع أئمة" (أش ٥٣: ٧، ١٢). ولم يدافع عن نفسه.

أنكر ذاته من أجلنا. ووضع ذاته لكي يرفعنا نحن. ووقف كمذنب لكي نتبرر نحن. ذاته لم يضعها أمامه، بل وضعنا نحن..

أليس هذا درساً لنا من هذا الذى عظمته لا تحد.. درساً لنا نحن المحاربين بالآنا، بينما نحن لا شئ.

✱ ✱ ✱

السيد المسيح أخلى ذاته من المجد الحقيقى .

أما أنت ، فتخلى ذاتك من كل مجد باطل .

إن إخلاء المسيح لذاته موضوع واسع، ليس الآن مجاله.. يمكنك أن تقرأ عنه مقالاً طويلاً فى كتابنا (تأملات فى الميلاد) من ص ٧ إلى ص ٢٨ .

✱ ✱ ✱

★ نقطة أخرى فى علاج (الآنا) وهى :

تدريب الميل الثاني :

قال السيد الرب "من سخرك ميلاً، فاذهب معه إثنين. من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك، فاترك له الرداء أيضاً" (مت ٥ : ٤٠ ، ٤١).

وبنفس الوضع تحدث الرب عن الخد الآخر، فقال "من لطمك على خدك الأيمن، فحول له الآخر أيضاً" (مت ٥ : ٣٩).

وكأنه أراد أن يقول : كن مظلوماً لا ظالماً. وكن مصلوباً لا صالِباً. لا تنتقم لنفسك. إن الذات تريد أن تأخذ حقها، وتأخذ بنفسها، وهنا على الأرض، وبسرعة على قدر الإمكان. أما تعليم الرب لنا في إنكار الذات فهو: "لا تقاوموا الشر" (مت ٥ : ٣٩).

* * *

لا تجعل ذاتك تتدخل ، لتتال حقوقك أو لتنتقم .

واذكر قول الكتاب "لى النعمة. أنا أجازى، يقول الرب" (رو ١٢ : ١٩). ومع أن النعمة

للرب، لكن لا تطلبها أنت منه لنفسك. بل الكتاب يقول:

"المحبة لا تطلب ما لنفسها" (١ كو ١٣ : ٥).

ولماذا لا تطلب ما لنفسها ؟

لأنها بعيدة عن الذات، بعيدة عن الأنا التي تطلب..

تدريب آخر في التخلص من الذات، وهو قول الرسول :

"لأحيا لا أنا.. " (غل ٢ : ٢٠).

الباب الخامس :

المجرد الباطل ومحبة المديح والكرامة

- البر الذائق .
- محبة المديح - وأنواعها .
- خطايا تنتج عن محبة المديح .
- كيف تهرب من محبة المديح ؟
- إخفاء الفضائل .
- البعد عن الرئاسات .
- الامتكا الأخير .

الكبرياء تلد المجد الباطل

والبر الذاتي

المجد الباطل Vain Glory هو المجد المتعلق بأمر المادة والعالميات، وليس المجد الخاص بالروح ومركزها في الأبدية.
والمنشغل بالمجد الباطل يسره مديح الناس له، أو مديح نفسه له.

البر الذاتي :

وأخطر ما يتعب الإنسان روحياً، أن تمدحه نفسه من الداخل .
ويظن في نفسه أنه قد وصل، أو أن فيه شيئاً يستحق الإعجاب من الآخرين. حتى من غير أن يمدحه أحد من الخارج، تكبر نفسه في عينيه من الداخل. ويكون حكيماً في عيني نفسه" (أم ٢٦: ٥) أو "باراً في عيني نفسه" (أى ٣٢: ١)، وهذا ما يسمى بالبر الذاتي. وفيه "يرتئى الإنسان فوق ما ينبغي له أن يرتئى" (رو ١٢: ٣).

✱ ✱ ✱

ومديح النفس قد تكون له أسباب دنيوية أو أسباب روحية:

فالسبب الدنيوية هي أن تمدحك ذاتك من أجل مركز عالمي وصلت إليه، أو من أجل غنى أو جاه، أو جمال جسدي، أو شهرة، أو ذكاء، أو قدرات معينة في العمل أو في الترفيه عن الآخرين، أو في الحيلة، أو الدهاء، أو القدرة على قهر الآخرين، وما إلى ذلك من أسباب.

أما عن مدح النفس لأسباب روحية :

فكان تمدحك نفسك بسبب صلواتك أو أصوامك أو مطاياتك، أو خدمتك الروحية
لآخرين، أو قدرتك على التأمل، وفهم الكتاب وحفظه واستخدامه، أو بسبب توبتك أو
موك الروحي، أو بسبب بعض الفضائل التي تظن أنك قد وصلت إليها...

وتزداد خطورة مديح النفس، إن ارتبطت بالمقارنة أيضاً .

..فلا تظن فقط أنك بار، وإنما أكثر برأ من الآخرين. أو تظن أن خدمتك أنجح من خدمة
غيرك. وأن تأملاتك أعمق، ومستواك الروحي أعلى..! وبالتالي ترى باستمرار أن غيرك
ال منك...

وتزداد خطورة إن أفترت بإحتقار الآخرين أو الإقلال من شأنهم .

أو إدانة الناس، والحديث عن مستواهم الضعيف وفهمهم الضئيل، والمقارنة بين
جاحك وفشلهم.. وقد يصل الأمر إلى حد مواجهة الآخرين، وتوبيخهم على أعمالهم
أخطائهم. وربما تنسب إليهم ما ليس فيهم من الضعفات والنقائص والأخطاء. وتقرض
لبيهم مستواك، أو ما تظن أنك قد وصلت إليه من مستوى ومن فهم.

أو أن تقرض رأيك على غيرك، موقناً أنه الرأي الوحيد السليم، بعكس ما يقوله
غير. وهكذا تكون "حكيماً في عيني نفسك" (أم ٣: ٧).

ويدفعك الإحساس بالحكمة والفهم، إلى التشبث برأيك أو موقفك مهما كان خاطئاً وإلى
جدل والمناقشة حتى إلى درجة العناد.. ومقاطعة الآخرين لكي تتكلم أنت.. ومعارضة
ل من لا يوافقك فهمه...

وربما في كل هذا تفقد صداقة الناس ومودتهم، أو أنك تفقد الروح الإجتماعية،
التعاون مع الآخرين واحترام الغير...

والإنسان الذي تمدحه نفسه، من الصعب أن يعترف بأخطائه.

ربما لأنه لا يجد لنفسه أخطاء يعترف بها! أو لأن الكبرياء الداخلية تدفعه إلى تبرير
عمله أيأ كانت، أو التماس الأعذار لها...

هو لا يرى نفسه مخطئاً. ولا يقبل من غيره أن يراه مخطئاً.. وهكذا يكون 'باراً في

عيني نفسه" (أى ٣٢: ١).

ومادام هو باراً فى نظرتة إلى نفسه، فبأى شئ يعترف؟!

✱ ✱ ✱

الإعتراف هو أولاً إدانة النفس من الداخل. ثم إعلان ذلك .

والمتكبر لا يدين ذاته.. لا يرى أنه قد أخطأ. وإن وُجد خطأ، ينسبه إلى الظروف المحيطة به، أو يلقي التبعية فيه على غيره. أو يسمي أخطاه بأسماء روحية، ويحاول أن يلبسها "ثياب الحملان" (مت ٧: ١٥). ويضع وراءها نيات طيبة ومقاصد روحية، تجعلها تبدو على غير حقيقتها سليمة لا عيب فيها!

✱ ✱ ✱

وإن كان لا يعترف بخطئه، فبالتالى لا يعتذر لغيره .

فى كل خصومة بينه وبين أحد من الناس، يعتبر أن الطرف الآخر هو المخطئ، والطرف الآخر هو الذى يجب أن يعتذر، وهو الذى يجب أن يسعى إلى المصالحة! ومادام لا يعترف فى داخله أنه قد أخطأ، فبالتالى لا يعترف بخطأ أمام الأب الكاهن، ولا يذهب لمصالحة الطرف الآخر قبل الذهاب إلى التناول من الأسرار المقدسة. لأنه "لا يتذكر أن لأخيه شيئاً عليه" (مت ٥: ٢٣، ٢٤).

وإن حاول أحد أن يقنعه بأنه مخطئ، يدخل فى متاهة لا تنتهى من المناقشات وقلب الحقائق. ويجد أمامه ميزاناً خاصاً تقيم به الأمور ويحكم عليها حسب مفهوم خاص غير مفهوم للآخرين!

✱ ✱ ✱

إن البار فى عيني نفسه ، يود أن يكون باراً أيضاً فى أعين الناس.

فهو إما أن يعلن عن هذا البر ويحكى عنه للآخرين، وإما أن يدافع بكل جهده عما يشين هذا البر من نظرات الناس إليه. وإما أن يأخذ مظهراً معيناً يقنع الناس ببره، مهما كانت داخلياته! وإما أن يحيط نفسه بأصدقاء ومريدين يتحدثون عنه بالصلاح كل حين، ويمتدحونه.. أو أن يحيط نفسه باستمرار بمن هم أقل منه سناً أو معرفة أو مركزاً أو درجة روحية، حتى يبدو الأكبر أمامهم فى كل وقت. ولا يعطى فرصة لأى نقد يوجه إليه. لأن كل المحيطين به يمدحونه ويمدحونه، وربما يستشيرونه فى كل شئ أو يتتلمذون عليه...

✱ ✱ ✱

أما المتواضع فهو يقارن نفسه باستمرار بمستويات أعلى منه .

وأمام هذه المستويات الأعلى، تصغر نفسه في عينيه، ويرى أنه لا شيء.. وهو يبحث باستمرار عما هو أكمل وأعلى، شاعراً أنه لم يصل بعد إلى المستوى المطلوب منه.. إنه يضع أمامه قول الرب "كونوا قديسين لأنى أنا قدوس" (١بط: ١: ١٦). وأيضاً قوله "كونوا أنتم أيضاً كاملين، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل" (مت: ٥: ٤٨). والمستويات العليا التى ينظر إليها، قد تكون من الأمثلة الحية أمامه. أو يجدها فى تاريخ القديسين وفى شخصيات الكتاب المقدس. بل حتى فى مثاليات من العلمانيين الفاضلين.. وكما قال القديس بولس الرسول "أنسى ما هو وراء، وأمتد إلى ما هو قدام. أسعى نحو الغرض" (فى: ٣: ١٣، ١٤). وكلما امتد إلى قدام، ينظر إلى الكمال الموضوع أمامه، فيقول "أيها الأخوة، أنا لست أحسب نفسى أنى قد أدركت" "ولكنى أسعى لعلى أدرك" (فى: ٣).

كان أحد الرهبان كلما حارب بالمجد الباطل بسبب جهاده الروحى، يقول لنفسه: "العلى قد بلغت إلى درجة الأنبا أنطونيوس أو الأنبا بولس"

✱ ✱ ✱

الإسنان المتواضع إذا حارب بالبهر الذاتى، يتذكر خطاياها ..

يتذكر ماضيه السابق وكل ضعفاته وكل سقطاته وكل خطاياها. وحينئذ تخف عليه الحرب فلا يتكبر. إن القديس بولس الرسول الذى تعب أكثر من جميع الرسل (١كو ١٥: ١٠)، والذى صعد إلى السماء الثالثة (٢كو ١٢: ٢، ٤) كان يقول "أنا الذى لست مستحقاً أن أدعى رسولاً، لأنى أضطهدت كنيسة الله" (١كو ١٥: ٩). مع أن ذلك حدث فى ماضٍ قد انتهى وغفره له الله، ودخل بعده فى عهد جديد مع الرب "كإنشاء مختار يحمل اسمه أمام أمم وملوك" (أع: ٩: ١٥). ولكنه يذكر نفسه بذلك الماضى فيحيا فى إتضاع.. وبالمثل كان داود النبى يقول "خطيتى أمامى فى كل حين" (مز: ٥٠).

✱ ✱ ✱

إن أنتك أفكار البهر الذاتى، اذكر نعمة الله العاملة معك .

تذكر أن كل خير فيك، لست أنت سببه أو مصدره. إنما هى نعمة الله التى عملت فيك، وقوة الله التى سندهك. وأنت بدون الله ما كنت تستطيع أن تفعل شيئاً (يو: ١٥: ٥). فلا يلىق أن تأخذ عمل الله وتنسبه إلى نفسك، وتنسى عمل النعمة.

لأنك إن نسبت عمل النعمة إلى نفسك، قد تتخلى عنك النعمة فتسقط .
وذلك لكى تعرف ضعفك، ولكى تعترف بضعفك. ولكى تخاف من البر الذاتى،
وتحترس من الافتخار الردى. وقد تسقط فى الخطايا التى انتقدت الناس عليها، وظننت
أنك أقوى منهم فى مواجهتها.

حقاً إن البار فى عينى نفسه، يتخيل أنه قوى وأنه يستطيع!

✱ ✱ ✱

أيضاً لكى تتخلص من البر الذاتى ، انظر باستمرار إلى الأبدية .
لا تحاول أن تبني مجدك على الأرض، فالمجد الأرضى مجد باطل. ولا تحاول أن
تقال أجرك هنا، فكله أجر زائل. إنما باستمرار اعمل من أجل أبديتك. وقل لنفسك لا أريد
ههنا شيئاً...

حاول أن تزهد فى كل كرامة دنيوية وكل كرامة بين الناس. واطلب شهادة الرب لك،
لا شهادة البشر، ولا شهادة نفسك لنفسك .

ليكن كنزك فى السماء، وليس على الأرض (مت ٦: ١٩). ولا تجعل المجد الأرضى
يفقدك المجد السمائى. وإلا تكون أنت الخاسر .

✱ ✱ ✱

اذكر أيضاً طبيعتك الضعيفة القابلة للميل والقابلة للتغير .
هذه الطبيعة القابلة أيضاً للسقوط . واعرف أنك لست أقوى من الأقوياء الذين سقطوا.
فقد كُتب عن الخطية أنها "طرحت كثيرين جرحى. وكل قتلها أقوياء" (أم ٧: ٢٦). لذلك
اذكر أنك إن تهاونت ولو قليلاً، أو إن تخلت النعمة عنك ولو قليلاً، ما أسهل أن يتغلب
العدو عليك...

✱ ✱ ✱

إن احفظ نقاوة قلبك بالاتضاع .
لأنه بالاتضاع تلصق بك النعمة (يع ٤: ٦). فتستطيع بها أن تغلب. قل لنفسك: أنا
مازلت سائراً فى الطريق، ولم أصل إلى نهايته بعد، والعبرة كلها بالنهاية. فلاكن إذن
محترساً، ومتذكراً قول الرسول:

"من يظن أنه قائم، فلينظر لئلا يسقط" (١ كو ١٠: ١٢).

وإله السماء قادر أن يحفظك بالاتضاع ، ويعطيك النصر من عنده .

الكبرياء تلد المجد الباطل

والمجد الباطل يلد محبة المديح والكرامة

محبة المديح :

المديح شئ ، ومحبة المديح شئ آخر. وقد يمدح الإنسان ولا يخطئ، ولكنه لو أحب المديح يكون قد أخطأ.

أباؤنا الرسل مُدحوا، والقديسون والشهداء مُدحوا أيضاً. ولكن كل هؤلاء لم يخطئوا. فليس الخطأ في أن يسمع الإنسان مديحاً، إنما الخطأ في أن يحب هذا المديح ويسرّ به حينما يسمعه .

هناك نوعان من الناس لا يهونون المديح :

أولهما: نوع يهرب من المديح الذي يأتي إليه. سواء كان مديحاً من الناس، أو مديحاً من الشياطين، أو من نفسه.

والنوع الثاني يتمادى في الهروب من المديح والكرامة، حتى أنه ينسب لنفسه عيوباً كثيرة. وحتى يُظهر عن نفسه جهالات ونقائص تحط من قدره. ولو أدى الأمر أن يُقال فيه ما ليس فيه . وهذا النوع توجد عنه قصص كثيرة في سير الرهبان والراهبات .

الذين يحبون المديح

الذين يحبون المديح درجات متفاوتة في الخطأ .

النوع الأول :

إنسان يأتيه المديح دون أن يسعى إليه. وعندما يسمع المديح، يسرّ به ويبتهج، على الرغم من أنه لم يسعَ إليه. وهذا الصنف من محبي المديح على درجات وأنواع :

أ - إنسان يسرّ بالمديح، ويسمعه في صمت، وهو قابع في مكانه: صامتاً ومسروراً في داخله، دون أن يشعر به أحد.

ب - إنسان آخر يسمع المديح، ويتسبب في الإستزاده منه. أى يظل يقول بعض عبارات تجعل الذي يمدحه يزيد في مديحه. كأن يجره من موضوع المديح إلى موضع آخر يُمدح منه، أو نقطة أخرى في نفس الموضوع تستحق المديح. أو يلجأ إلى أية وسيلة تجعل مادحه يزيد المديح.

ج - هناك إنسان يحب المديح وهو مسرور. ويتظاهر بعدم السرور بالمديح أو يرفضه، مع أنه مسرور من الداخل. ويظل يتمنع فيزيد الآخر في مدحه. أو يذكر عن نفسه نقائص وهو لا يقصد أن يعييبها أو يشينها. بل في قرارة نفسه يريد أن يسمع المزيد من المديح.

النوع الثاني :

أصعب من النوع السابق قليلاً: إنسان لم يأت المديح، ولكنه يشتهي أن يسمعه. وفي إشتهائه يسلك أحد طريقتين :

أ - يشتهي المديح، ويظل صامتاً حتى يصله، متحياً أسباب يسمع بها المديح. كأن يبدأ موضوعاً معيناً، يشمل عملاً قد عمله يستحق فيه مديحاً. أو يجر الكلام خطوة خطوة، حتى يصل إلى النقطة التي لا بد أن يسرّ بها الناس ويمتدحونها، ويمدحونه بسببها.

ب - أو أنه يشتهي المديح، فيعمل أعمالاً صالحة أمام الناس، لكي ينظروه فيمدحوه. كما قال الرب عن الذين استوفوا أجرهم على الأرض (مت ٦).

النوع الثالث :

وهو أصعب من النوعين السابقين. وفيه إنسان يحب المديح ويشتهيه. لكن المديح لم يأت به، على الرغم من أنه ينتظره ويتحيل له أسباباً...

فماذا يكون ردّ فعله على انتظاره المديح بلا نتيجة؟

إنه يصل إلى درجة أخرى. فيها يكره من لا يمدحه ويعتبره عدواً، ويكون بينهما سوء تفاهم. ذلك لأنه لم يلاحظ بعد ما فيه من صفات فاضلة تستحق المديح، وما قام به من أعمال توجب له تقدير الناس...

نعم إن هذا الإنسان لم يضره في شيء حتى يصير عدواً. إنما يكفي أنه لم يمدحه ببعض الكلام الطيب. لم يقابله مقابلة لطيفة، ولم يقدم له احتراماً زائداً، ولم يكرمه إكراماً من نوع خاص! مثل هذا الإنسان الذي يكره من لا يمدحه، ماذا يفعل إذن بالذي ينتقده؟! إن كان الساكت فقط عن مدحه، أصبح موضع كراهيته، فكم إذن يكون شعوره من جهة ناقديه؟!!

النوع الرابع :

هناك نوع آخر يشتهي المديح، ويسرّ عندما يسمعه، ويكره من لا يمدحه. ولكنه لا يكتفى بذلك. بل هو يمدح نفسه إذا لم يجد أحداً يمدحه. فيتكلم عن أعماله الفاضلة التي عملها وتستحق المديح. وفي نفس الوقت يخفي خطاياها الشخصية. هذا الإنسان هو الذي يتحدث كثيراً بالخير عن نفسه .

النوع الخامس :

إنه أصعب من ذلك النوع السابق الذي يمدح نفسه . ذلك لأن مديح النفس من صنفين: واحد منهما -الذي ذكرناه- وهو الذي يمدح نفسه بما فيه. فيظل يتكلم عن أفعاله المجيدة التي عملها، وما توجد فيه من صفات حسنة. أما الصنف الثاني - الذي نذكره حالياً - فهو حالة إنسان يمدح نفسه بما ليس فيه. وينسب إلى نفسه فضائل ليست عنده، بل يدعيها ويتخيلها.

أو يذكر صفات حسنة عنده، ولكنه يبالغ في الحديث عنها ويكبرها... أو أنه ينسب فضيلة غيره إلى نفسه! فإن كان مشتركاً في عمل، قد تم نجاحه بمجهود مجموعة من الناس.. فإنه حينما يحكى عن هذا العمل، يركّز على نفسه فقط كما لو كان هو وحده السبب في نجاح العمل، وليس مجرد مشترك فيه، لكي يكون المديح له وحده. متجاهلاً كل الذين اشتركوا في العمل وساهموا في نجاحه، وكأنهم لم يكن لهم وجود ولا مجهود!!

بل قد يحدث فى بعض الأوقات ما هو أسوأ من هذا: أن ينسب إلى زملائه فى العمل كمية كبيرة من العيوب، ويتهمم بالتقصير أو الضعف، ويخفى حقهم ودورهم. كأن يقول عن واحد منهم -على غير حق- أنه لم يستطع أن يتكلم، وكان متلعثماً حتى تضايق الناس منه.. إلى أن تدخل هو وقال الرد الصحيح. أى أنه كان بطل الموقف بينما أخطأ غيره!!
مثل هذا الإنسان لم يمدح ذاته فقط، بل أضاف إلى امتداح نفسه، أنه ذم الآخرين وشهر بهم. وبنى كرامته على إمتهان الآخرين!

✱ ✱ ✱

وعن التواضع الذى هو عكس هذا النوع من مديح النفس:

أنكر قصة راهب فاضل كان ينكر ذاته جداً. فحينما كان يعمل فى خدمة الدير عملاً حسناً، ويدرك أنه لأبد سينال مديحاً بسببه، كان يشرك معه راهباً آخر فى جزء ضئيل جداً من العمل. أو فى نهاية العمل يطلب من أحد الرهبان أن يساعده. فإن مُدح على ذلك العمل بعد إتمامه، يقول "بارك الله أبانا فلان الذى تم العمل على يديه".. وهكذا ينسب إليه الفضل، حتى يُبعد المديح عن نفسه.

هناك مثل آخر واضح فى لعبة كرة القدم. فلو كان كل لاعب فى الفريق يبحث عن مدح نفسه، سيفشل الجميع. لأن كلاً منهم يريد أن يكون الهدف بواسطته وحده! ولكن بروح الفريق يلعب الجميع. وقد يسير أحدهم بالكرة حتى يصل إلى قرب المرمى، ثم يمرر الكرة لغيره فيكسب زميله الهدف ويمتدحونه. المهم هو إنتصار الفريق وليس فرداً معيناً منه.

فإن كان هذا فى الروح الرياضية، فكم بالأكثر تكون الحياة الروحية.

إن الإنسان الذى يسعى إلى مدح ذاته، متجاهلاً باقى الناس والظروف المحيطة، وقد يتجاهل عمل نعمة الله معه، إنما يمدح نفسه بما لا يستحق ..

النوع السادس :

وهو يمثل أرداداً نوع من محبى المديح. إذ قد تصل محبة المديح بشخص إلى الدرجة التى فيها يحب أن يكون المديح له وحده. ويتضايق إذا مُدح شخص آخر غيره. أو يغتاط إن شاركه أحد فى المديح. فهو يريد أن يُمدح وحده وليس غير. وإن مُدح آخر يغار ويحسده، ويحقد عليه ويتكلم عنه بالسوء .

الخطايا التي تنتج عن محبة المديح والكرامة

ما أكثر الخطايا التي تنتج عن محبة المديح والكرامة. ننكر من بينها:

١ - الرياء :

محب المديح قد يصير إنساناً مرئياً، لا يعطى صورة حقيقية عن نفسه. فهو يخفي النقط السوداء التي فيه، ويُظهر فقط النقط البيضاء التي تجلب له المديح. وإخفاء النقط السوداء يتدرج فيه إلى نواح كثيرة. وكذلك إظهار النقط البيضاء يتدرج فيه إلى نقط خطيرة. وبهذا يقع في عيوب لا تُحصى.

❖ ❖ ❖

٢ - الغضب وعدم الاحتمال :

مادام محب المديح يخفي عيوبه، فبالنّسبة لا يقبل أن يوجه إليه أي عيب. فيكون إنساناً يكره الانتقاد. وإذا انتقده أحد، فإنه لا يحتمل. وربما لا يقف فقط عند حدّ عدم الإحتمال، بل قد يتطور به الأمر إلى الغضب والنرفزة والثورة إلى آخر هذا الطريق. فكيف ينقده شخص ويقول عنه كلمة سيئة؟! وكيف يذكر له عيباً معيناً؟! لهذا فإنه يثور ويضج، ويتعب من الداخل ومن الخارج. كما يتعب معه الآخرين أيضاً. وكل هذا بسبب محبته للمديح والكرامة.

وهنا يجب أن نعلم أن علاج أنواع كثيرة من الغضب، هو ألا يكون الإنسان محباً للمديح ولا للكرامة. لأن كثيراً من غضبنا يكون مصدره هو محبة المديح، إذ لا يحتمل

الإنسان كلمة إهانة أو نقد أو أية إساءة .

❖ ❖ ❖

٣ - الكراهية :

محب المديح قد يكره من لا يمدحه. ويكره أيضاً بالأكثر من ينتقده. كما يكره من يمدح غيره أمامه. لأنه يريد المديح له وحده!

❖ ❖ ❖

٤ - الحسد :

محبة المديح والكرامة هي من الأسباب الأساسية للحسد. فالحاسد يريد أن يأخذ مركز غيره ومكانته عند الناس. ولا يريد أن يكون غيره أفضل منه. فلهذا يحسد كل من يراه موضع التقدير والإعجاب!

❖ ❖ ❖

٥ - النقد والإدانة والتشنيع والسب للغير :

يقع محب المديح في هذه الأخطاء. ذلك لأنه يحب أن يكون جميع الناس أقل منه. لذلك فهو يشوه أعمال الغير، لكي يكون هو وحده الذي بلا عيب. ولهذا فإنه يقع في إدانة الآخرين، وفي التشهير بهم. كما يقع في السب، وما إلى ذلك من انتقاص حقوق الآخرين .

❖ ❖ ❖

٦ - وبذلك يخسر محبة الناس :

يخسر محبة الذين ينتقدهم، ومحبة أصدقائهم وأقاربهم. ويخسر محبة من لا يعجبه هذا الأسلوب في تشويه الآخرين .

❖ ❖ ❖

٧ - هو أيضاً يحب المتكآت الأولى :

ولأنه يحب العظمة، فإنه يتنازع مع الناس على المتكآت الأولى، ويدخل في خصومات وفي مشاكل مع من يجلس في المتكآت الأولى، كما لو كان ذلك الشخص يغتصب حقاً من حقوقه، أو لا يعترف بمكانته وأولويته!

إنه يريد باستمرار أن يكون هو الأول والمتقدم والبارز والظاهر، والمختص بالاحترام والهيبة. وكل من يناقسه في هذا، لابد أن يسئ إليه، ويتكلم عنه ردياً.

❖ ❖ ❖

٨ - ومحبة المديح تدفعه إلى الكذب والإدعاء :

إن كان الإدعاء يوصله إلى مركز مرموق بين الناس، فلا مانع عنده أن يكذب ويدعى ما ليس فيه من مواهب وصفات. وربما يخلق قصصاً وأحداثاً لإثبات ذلك.

✽ ✽ ✽

٩ - وقد يصل به الأمر إلى تشبیر نساء :

يتمكن بها من أن ينزع بها الظاهرين من مراكزهم، لكي يبقى هو وحده في الصورة، بلا مناس وبلا شريك في العظمة وفي إعجاب الناس.

✽ ✽ ✽

١٠ - ومحبة المديح تؤدي إلى أكثر من هذا :

فقد تؤدي بمحب المديح إلى اشتهاه موت الآخرين لكي يأخذ مكانهم، أو على الأكل يشتهي فشلهم وعزلهم، لكي ينال موضعهم. فإن كان وكيلاً، وله رئيس، فإنه يتطلع إلى منصب هذا الرئيس، ويشتهي وظيفته بأية وسيلة! ويطلب أن يزاح من مكانه، لكي يجلس هو على كرسيه. ويتخيل خيالات توصله إلى ذلك، كأن تقدم شكاوى ضد هذا الرئيس، ويحقق معه، وتثبت إدانته ويعزل، ويصبح الجو ممهداً أمامه هو، ويخلو له المكان.

وربما لا يسمح له ضميره أن يقول كلمة سوء عن رئيسه. ولكنه ينتظر بفارغ صبر أن تُقال تلك الكلمة من غيره، فيفرح بها ويسرّ، ولا يدافع عنه مع معرفته الأكيدة بأنه برئ. ولكنه لا يشهد بشهادة في صالحه!

فلننظر كم من الخطايا قد وقع فيها مثل هذا الشخص، لفساد قلبه!

✽ ✽ ✽

١١ - ومحبة المديح والكرامة، تجعل الإنسان ليس فقط لا يحتمل التأديب ولا التوبيخ.

بل لا يحتمل مجرد كلمة نصح!

فكيف ينصحه غيره؟ هل هذا الغير أفضل منه، أو يفهم أكثر منه؟! بينما هو العارف والفاهم والعالم، والناصح والموجه والمرشد!!

بل قد يتطور الأمر معه، فلا يحتمل إنساناً ينصح آخر أمامه. لأن النصح والإرشاد هما له فقط! هو الذي ينصح. وهكذا يتضايق دون أن يدرك أحد لماذا تضايق! إنه يغلى من الداخل. وإذا ما سئل عن سبب ضيقه، لا يستطيع أن يقول السبب .

✽ ✽ ✽

١٢ - وبذلك يصبح مشكلة لنفسه، ومشكلة للآخرين .

وربما إذا سئل غيره في وجوده، أو احترم الناس غيره في وجوده، لدرجة شعر بها أنه كان الأحق بهذا الاحترام، أو أن الاحترام الذي قد وُجّه لغيره كان أكثر مما وُجّه إليه، يتضايق ويتعب في الداخل.. ولو من أجل سبب بسيط: كأن يدخل إنسان، ويسلم على غيره باشتياق أكثر أو باحترام أكثر! فهذا الإنسان المحب للمديح يصبح متعباً. فهو لا يحتمل الناس. كما أن الناس أيضاً في مثل هذه الحالة لا يحتملونه...

✱ ✱ ✱

١٣ - محبة المديح والكرامة تجعل الإنسان في موضع متردد غير ثابت .

لأنه لا يسير على مبدأ واحد، وليست له خطة واضحة. وإنما إن كان هذا الأمر يسبب له المديح فإنه يفعله. وإن كان عكسه يأتي بالمديح، فإنه يفعل العكس! إنه يتلون مع الناس كيفما كانت صورهم وأساليهم واتجاهاتهم: مع الوقور يكون وقوراً ومترناً. ومع المهزار يكون مهزراً!!

"ولكل شيء تحت السماوات وقت". والوقت عنده هو مجال المديح: مع محب الكلام يكلمه كثيراً لكي يُمدح على قدرته على الكلام. ومع الذي يحب الصمت، يصمت هو أيضاً لكي يُمدح على صمته. إن كان الدفاع عن الحق يجلب له المديح، فإنه يدافع عنه. لا حياً في الحق، وإنما حياً في المديح! وإن كان الدفاع سيغضب البعض منه، فإنه لا يقول الحق لتلا يغضبهم. وبذلك يخسر مديحهم له!!

إنه يريد المديح وكفى، بلية طريقة وبأية وسيلة. ولا مانع من التلون مع الناس، لكي يصل إلى مديحهم له!

يلبس لكل حالة لبوسها - ويتخذ أمام كل إنسان صورة وشكلاً وتصرفاً ليكسب رضاه ومديحه: أمام إنسان يحب الإتضاع، يجلس بوقار في أتضاع، ويعمل الأعمال التي يُمدح عليها كمتضع. ومع المتكبر يكون في صورة من العظمة التي يحبها.

✱ ✱ ✱

١٤ - هو إنسان ملون، لا يثبت على وضع، لكي ينال المديح.

يعيش في شقاء وتعاسة. يفقد سلامه الداخلي: يشنق إلى الكرامة. فإن لم تأت، يتعب ويشقى. وإن أتته يفرح ويسر. ولكنه يفرح وقتياً، ويلزمه الشقاء: إما لخوفه من ضياع تلك الكرامة، أو لإشتياقه إلى كرامة أفضل. ويعيش في تعب، لأن الكرامة الأفضل لم

تصله بعد.. وسلسلة التعب النفسى معه تتوالى ولا تنتهى .

✱ ✱ ✱

١٥ - محبة المديح يقع فى الغطرسة والكبرياء :

وهذه تقوده إلى باقى الشرور . الكبرياء تدفعه إلى محبة المديح. وإن نال هذا المديح يزيد مقدار الكبرياء عنده. ويتحول إلى الغطرسة .

✱ ✱ ✱

١٦ - وأخيراً فإن محب المديح يخسر حياته الروحية خسراً كاملاً .

لأن كل الفضائل التى يجهد ذاته فى عملها، تشوه تشويهاً شاملاً إذ يدخلها حب المديح فيفسدها، أو يكون حب المديح هو هدفها، وليس حب الخير! فلا تصبح له فضيلة على الإطلاق، لأن كل فضائله قد تشوهت بسبب فساد الهدف والدافع إليها.

✱ ✱ ✱

١٧ - هذا الإنسان - مهما تعب ومهما عمل، يقف أمام الله صفر اليدين .

ولا جزاء له عند الله، لأنه أخذ أجرته على الأرض. إذ يقول له الرب فى اليوم الأخير إنك استوفيت خيراتك على الأرض مديحاً وكرامة وعظمة. ولا تستحق شيئاً عندي فى السماء (مت: ٦: ٢، ٥، ١٦). إنك - لست من أجل الرب - عملت الفضائل بل من أجل كرامة تنالها من الناس، وقد نلتها وانتهى الأمر. فضائلك كانت من أجل ذاتك لكى ترتفع هذه الذات أمام الآخرين، وقد حصلت على ما تريد. فماذا بعد؟!

وهكذا يخسر هذا الإنسان الملكوت الأبدى والعشرة مع الله وقديسيه. وبسبب نزاعه مع الناس فى محبته للكرامة، يخسر الناس أيضاً، لأنهم لا يحبون المتعطرس والمتكبر، ويشمئزون من سعيه وراء المديح. فيتعرض بهذا إلى ازدرائهم واحتقارهم، كما يمتدح نفسه أمامهم.

✱ ✱ ✱

وصدق ما اسحق حينما قال :

من سعى وراء الكرامة، هرب منه. ومن هرب منها بمعرفة، سعت إليه.
إن كان الأمر هكذا، فكيف ينجو الإنسان إذن من محبة المديح والكرامة؟

الهروب من المديح والكرامة

يمكن الهرب منهما بإخفاء الفضائل والتباعد عن الرئاسات

إخفاء الفضائل :

طالما فضائلك ظاهرة أمام الناس، فأنت عرضه للمديح.. فإن أردت أن تهرب من مديحهم، عليك بقدر إمكانك أن تخفى فضائلك وأعمالك الحسنة. ليس معنى هذا أنك لا تعمل شيئاً حسناً أمام الناس. وإنما لا تعمل أمامهم بهدف أن تتال مديحهم. فإن كان العمل ضرورياً ولا يمكنك إخفاءه عن الناس، فعلى الأقل لا يكون هدفك وقصدك هو محبة المديح، بل عمل الخير ذاته.

※ ※ ※

وقد تعرض القديس أوغسطينوس لهذه المسألة في تفسيره للعبارة على الجبل :
يقول الرب "احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات" (مت ٦ : ١). ويقول أيضاً "فليضئ نوركم هكذا قدام الناس، لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات" (مت ٥ : ١٦). فهل يوجد تناقض بين القولين؟ وكيف نوفق بينهما؟

يقول القديس أوغسطينوس في هذا الموضوع "ليس هناك تناقض. لأن العيب ليس في أن ينظر الناس أعمالكم الحسنة. إنما العيب هو أن تعملوا الأعمال الحسنة لكي ينظروكم. فينبغي عليك أن تعمل الخير سواء نظرك الناس أو لم ينظروك. لا يكن هدفك أن يراك

الناس وأنت تعمل الخير، ولا أن يمدحوك. بل إعمل العمل الصالح، لا لكي تتمجد أنت به، بل لكي يتمجد الله "لكي يمجدوا أباكم الذى فى السموات".

يقول البعض إنهم يعملون الصلاح لكي يكونوا قدوة أمام الناس.

ولكن علينا أن نفهم أن للقدوة مواضع، وأناس مفروض فيهم بحكم موضعهم أن يكونوا قدوة. مثل رجال الإكليروس والقادة والمسؤولين والرسل والأنبياء والرعاة. فهؤلاء إن لم يكونوا قدوة، سيعثرون الآخرين.

أما الإنسان المتواضع، فإنه لا يرى فى نفسه شيئاً يُقْتدى به الناس .

ويحاول أن يهرب من مواقف القدوة بحجة أنه خاطئ وضعيف. وعلى عكس هذا يُظهر

نقائصه وضعفاته. ومع ذلك قد يصبح قدوة بانتضاعه..

✱ ✱ ✱

وكلما حاربه الفكر أن يكون قدوة، يقول لنفسه: لا أستطيع أن أكون مرانياً، أظهر بغير حقيقتى. ويصرخ أمام الله قائلاً: أنت تعرف يارب ما بداخل القبور المبيضة من عظام نتنة. إن كنت أنت برحمتك قد سترتني، وأخفيت عيوبى عن الآخرين، هل استغل أنا هذا الستر، لأمتل دور القدوة؟ بينما أنا إنسان خاطئ بعيد عن حياة البر !!

أما الذى يريد أن يصير قدوة، فلكي يظهر أمام الناس حسناً يجوز أن يقع فى الكبرياء والرياء. فيجب أن نرضى الله لا الناس.

✱ ✱ ✱

فلا يكن هدفنا أن نكون قدوة، حتى لو صرنا قدوة بتدبير من الله.

هكذا كان الآباء القديسون يتركون تدبير أمر معين فى الفضيلة إذا اشتهر عنهم ويعملون غيره، إذ كانوا يهربون جداً من المديح. ولكن ليس معنى هذا أن تترك كل تدبير حسن تسير فيه لئلا يأتىك المديح بسببه، بل أثبت فى كل تدريب صالح من أجل نموك الروحى، وليس لكى ينظرك الناس.

البعد عن الرئاسات ؟

* الإنسان المتواضع لا يسعى وراء المناصب والرئاسات. بل فى حكمة يهرب منها. وقد نبغ فى ذلك كثير من آباء الرهبنة ومنهم القديس بينوفوريوس الذى عرفنا قصته من يوحنا كاسيان مؤسس الرهبنة فى فرنسا.

كان القديس بينوفوريوس رئيساً على دير يضم أكثر من مائتي راهباً فى منطقة
البرلس. وكان متضعباً جداً ومهاباً، وله مكاتة عند الكثيرين.

إذ كانوا يحبونه بسبب قداسته وحياته الفاضلة، ولمواهبه العظيمة التى منحه الله
إياها، وأيضاً بسبب كهنوته، ولأنه شيخ وقور .

جلس هذا القديس ذات يوم إلى نفسه وقال: ماذا تكون نتيجة هذا الوضع الذى أنا فيه؟
كل يوم مديح وكرامة واحترام وتوقير!! إننى أخاف أن يقول لى الرب فى اليوم الأخير
"إنك قد أستوفيت خيراتك على الأرض" (لو ١٦: ٢٥). فأين منى الطريق الضيق والكرب
الذى أوصى به الرب، وقال إنه المؤدى إلى الحياة (مت ٧: ١٤). وأين منى قول الكتاب:
"إنه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله" (أع ١٤: ٢٢)؟ وهوذا أنا رجل متمتع
باحترام وتوقير وكرامة ورئاسة!

لذلك هرب القديس بينوفوريوس ذات يوم من الدير دون أن يشعر به أحد.
وتنكر فى زى علمانى، وسار جنوباً حتى وصل إلى أحد أديرة القديس باخوميوس
الكبير فى إسنا. وطرق الباب طالباً أن يقبلوه فى الدير. فنظروا إليه متعجبين من أمر هذا
الشيخ الذى أتى ليترهب! وقالوا له "هل أتيت بعد أن شبتت من العالم، وشبع العالم منك؟"
أتريد أن تأخذ مظهر القداسة فى أواخر أيامك؟ إنك لا تصلح، فأرحل عنا".
فألح القديس بينوفوريوس عليهم فرفضوا. وقالوا له "أنت رجل شيخ، ولا تحتمل الرهينة
وجهاداتها". فظل يلح عليهم وهم يرفضونه. ووقف عند الباب مدة على الرغم من
رفضهم، دون أكل أو شرب. فلما رأوا احتمالته وصبره، أدخلوه الدير على شرط ألا يرسم
راهباً، ويكون فى زى العلمانيين يخدم فى الدير. وأسندوا إليه مساعدة الراهب الشاب
المسنول عن حديقة الدير، ليكون كصبي عنده. فلم يمانع. وكان الشاب يوجه إليه أوامر
يعمل بها، فكان مطيعاً له وخاضعاً.

وتحول القديس الذى كان يحترمه الناس ويطيعونه إلى تلميذ. وكانت هذه أمنيته أن
تتغير حياته، ويكون خاضعاً لغيره بدلاً من خضوع الغير له.

وكان معلمه الشاب شديداً عليه جداً. يريد أن يربى الشيخ تربية صحيحة، لأن الرهينة
ليست كسلاً! وصار القديس يطيعه طاعة كاملة، وينفذ أوامره بكل دقة، لا يجادل ولا
يناقش. وسار على هذا المبدأ مدة وسراً به الشاب.

وأيضاً كان يقوم فى ساعة متأخرة من الليل - والرهبان نيام - ويعمل الأعمال التى يشمئز منها الآخرون لقفارتها. فإذا ما استيقظوا فى الصباح، يجدون كل شئ قد تم دون أن يعرفوا من الفاعل، فيبتهجون ويباركون الرب من أجل ذلك. أما هو فكان مسروراً بهذا العمل. وظل على هذا الطقس ثلاث سنوات وهو يقول "أشكرك يارب من أجل عطياك ونعمك العظيمة، إذ خلصتني من الاحترام والتوقير، ونقلتني إلى حياة الطاعة والخضوع".

حدث بعد ذلك أن أتى لزيارة هذا الدير راهب من أديرة البرلس .

ورأى القديس بينوفوس يحمل السباخ ويضعه حول الشجر. فشك في الأمر ولم يصدق أنه هو! وأخيراً سمعه يرتل المزامير بصوته المعهود، فعزفه وسجد له، وكشف أمره للرهبان. فأخذوه بمجد عظيم وأعادوه إلى ديره.

وبعد ذلك هرب أيضاً إلى بيت لحم، وعمل خادماً فى قلاية يوحنا كاسيان. وتصادف أن ذهب راهب آخر إلى زيارة الأراضي المقدسة، فرآه وعرفه. وأعادوه مرة ثانية باحترام إلى ديره. وزاره يوحنا كاسيان عند مجيئه إلى مصر، وكتب عنه فى مؤلفاته أنه مثال حى للهرب من الرئاسات...

فالذى يريد أن يخلص من مديح الناس والكرامة، عليه أن يهرب من محبة الرئاسات والمناصب.. لأنه إن نجح فى تلك المناصب، تشعره بأنه قد صار موضعاً للكرامة. وإن فشل فيها، وقع فى دينونة عظيمة.

✱ ✱ ✱

★ إن أحلام الرئاسة تعب داخلى :

لأنه أحياناً يخلو الإنسان إلى نفسه. وفى أحلام اليقظة يتصور أنه فى مركز هام، وأنه يعمل ويعمل.. وتدور فى ذهنه مشروعات كبيرة وأمور خطيرة. ويظن أنه لو أعطى السلطان، لسوف يعمل ما لم يستطع غيره أن يعمله!

وهذه تخيلات المجد الباطل، وكبريائه موجودة فى الداخل تشعر الإنسان بأنه يستطيع الشئ الكثير. وقد يسمح الله أن تُسند إلى هذا الشخص مسئولية، فيفشل فيها لكى يعرف مدى ضعفه.

✱ ✱ ✱

ذهب أحد الشيوخ ليزور راهباً شاباً فى قلايته الخاصة. وعندما هم بقرع الباب، سمع صوتاً فى الداخل، فانتظر قليلاً حتى لا يعطل الراهب الشاب. فسمعه يعظ من الداخل.

فانتظره حتى انتهى من العظة وصرف الموعوظين قائلاً "أمضوا بسلام". ثم قرع الباب، وفتح الراهب الشاب، وفوجئ بالشيخ أمامه. فخرج وفكر ما عسى أن يقول عنه الشيخ إذا كان قد سمعه يعظ بمفرده دون موعوظين! فقال "إني أسف يا أبانا، لئلا تكون قد جئت من زمن وتعطلت على الباب". فابتسم الشيخ وقال له "جئت يا بنى وأنت تصرف الموعوظين". وعرف الشيخ أن هذا الراهب محارب بالمجد الباطل، إذ يتصور أنه قد صار معلماً وواعظاً...

فأحذر أن تتخيل أنك قد صرت رئيساً أو قائداً أو مشيراً. قل لنفسك إنك لم تصل إلى هذا المستوى بعد. ويكفى أن تكون أميناً للوضع الذي أنت فيه.

* * *

* إن الرئاسات ضارة لغير الناضجين :

قال القديس أروسيوس أحد خلفاء القديس باخوميوس الكبير :
"إن الرئاسة مضرّة للأشخاص الذين لم ينضجوا بعد". وضرب مثلاً لذلك فقال: "إذا أحضرت لبنة لم تحترق بعد بالنار وألقيتها في الماء، فإنها تذوب. أما إذا احترقت بالنار، فإن ألقيت في الماء، فإنها تبقى وتشتد".

كذلك الشخص الذي يصل إلى الرئاسة قبل أن ينضج، وقبلما يحمص بالنار، أى باختبارات الحياة، وقبلما تزول منه محبة المجد الباطل، فإنه معرض للهلاك. كذلك مساكين هم الناس الذين يخضعون لرئيس محب للمجد الباطل. فإنه يضيع نفسه، ويضيع الناس معه، بسبب المجد الذي يطلبه منهم.

لماذا يهرب المتواضع

من حب الرئاسة والرعاية؟

إنه يهرب من الرئاسة حرصاً على خلاص نفسه، وهروباً من العظمة والكبرياء،
حسبما وعظ القديس يوحنا الأسيوطي:

سئل هذا القديس: "هل يليق بالإنسان أن يطلب رتبة وسلطاناً، بقصد تقويم المعوجين
وإبطال الشرور؟". فأجاب:

كلا، لأنه إن كان الإنسان - وهو بعيد عن الدرجة - يريد أن يكون عظيماً، فماذا
يفعل عندما يصل إلى الرئاسة والعظمة ذاتها؟!

فالذي وهو في ضالة شأنه لم يعرف الإلتضاع، ماذا يفعل وهو في العظمة؟ وإن سعى
إلى الانتفاخ - وهو بعيد عن المناصب - فأى انتفاخ يكون له عندما ينال تلك المناصب؟!
إذ حينما لم يكن لديه سبب للعظمة، كان يطيش بها في ضميره، فكم يكون بالحري
عندما ينال سبباً للافتخار؟!



إن كنت لا تشتهي الإلتضاع، فلا تطلب درجة الرعاية. ولا تشته درجة الكهنوت لكي
تعتنى بالناس. وأعلم أن الله يعتنى بشعبه أكثر منك. أشته أن تكون حملاً في القطيع
يرعاك غيرك، لا أن تكون راعياً مسئولاً عن رعية يطلب الله دمها من يدك.

احترس من شهوة التسلط. واذكر أنك مهما صرت اليوم مكرماً بالعظمة، فغداً ستكون
مثل سائر الناس محبوساً في القبر.

✱ ✱ ✱

يهرب المتواضع من الرئاسة والرعاية، شاعراً بأنه أضعف من القيام بها .
قال القديس يوحنا الأسيوطي أيضاً: "إن كنت الآن لا تقدر أن تربح نفسك، فكيف تقدر
أن تربح نفوساً كثيرة؟!.. إن كنت في الوقت الذي ليس عليك فيه أثقال، لم تستطع أن
تحبى ذاتك، فكيف تقدر أن تخلص شعباً كبيراً من شر هذا العالم؟! إن كنت الآن بلا
مسئوليات كثيرة، ولم تقدر أن تخلص هذه النفس الواحدة التي هي نفسك، فكيف تقدر على
نفوس الناس؟!"

وبنفس منطق القديس يوحنا الأسيوطي، أقول لكل من يشتبهى الرعاية ليخلص
نفوس الآخرين: اهتم يا أخى بخلص نفسك أولاً. فإن لم تستطع، فلن تقدر على تخلص
غيرك مهما أخذت من مناصب..

نفسك التي تعرف عنها كل شئ: تعرف جميع أسرارها، وتاريخها كله، وضعفاتها،
وأسباب ما فيها من ضعفات وعيوب وأمراض روحية.. إذا لم تستطع أن تخلص هذه
النفس المعروفة جداً لديك، فكيف تقدر على خلاص نفوس الناس الذين تجلس معهم فترات
قليلة، ولا تعرف عنهم إلا القليل جداً؟!"

ونفسك التي إذا وبختها، تقبل منك التوبيخ واللوم والزجر، ومع ذلك لم تقوَ على
ردعها! فكيف تقدر على نفوس إن وبختها تغضب منك؟!"

نفسك التي تثق بك، والتي هي مستعدة أن تسمع لك، لست قادراً عليها، فكيف تعمل
مع الناس الذين قد لا يسمعون منك. وإن سمعوا ربما لا يتقون بما تقول!!
فاهتم أولاً بخلص نفسك، لأن تخلص الغير ليس أمراً سهلاً..

✱ ✱ ✱

الذي يهرب من الرئاسة والمناصب، يحب المتكأ الأخير .

لأنه يشعر أن هذا هو وضعه الطبيعي، وهذا هو استحقاقه. إذ قال القديسون "اعتبر
نفسك أقل من الكل وآخر الكل، لكي تستريح. قال القديس برصنوفوس: "لا تحسب نفسك
في شئ من الأمور، ولا يحسبك أحد شيئاً، وأنت تتريح (أى تستريح)..."
فالشخص الذي لا يحب المديح والكرامة، يهرب من الرئاسة، ويهرب من المتكآت

الأولى، ويشتهى أن يكون خادماً لغيره، لا أن يخدمه غيره. يشتهى أن يتلمذ على المرشدين وينتفع بأقوالهم، لا أن يكون مرشداً لآخرين.

قال الشيخ الروحاني "في أي مكان وجدت فيه، كن صغير أخوتك وخدمهم".

✽ ✽ ✽

في مرة طلب مني أحد الآباء الكهنة الجدد - بعد رسامته - أن أقول له كلمة أو نصيحة، فقلت له "كن ابناً وسط أخوتك، وأخاً وسط أولادك". فالذي ينزل درجة يرتفع درجات.. وهذا هو الذي يستريح في أي منصب يُوضع فيه. أما إن كان يريد أن يتمتع بكل كرامة هذا المنصب، ويملاً كرسيه أو ينتخب، فهذا إنسان مسكين أسقطته المناصب..

أما أنت فكن آخر الكل "صغير أخوتك وخدمهم" في كل مكان تحل فيه. وإن كان السيد المسيح قد غسل أرجل تلاميذه" (يو ١٣)، ولم يستح أن يدعوهم أخوة له (عب ٢: ١١)، بينما هو المعلم والسيد، فهل تكون أنت رئيساً على أحد؟!

✽ ✽ ✽

الإنسان المتواضع -- إن صار رئيساً - يعتبر نفسه رئيساً فقط على العمل وليس على الناس. ويعتبر مرؤوسيه زملاء له...

إنه يهرب من الرئاسة والترأس، ومن السلطة والتسلط. أما إن أمسكه الله بإرادته التي لا تقاوم، وجعله رئيساً أو راعياً، فإنه عندئذ يطلب منه قوة يعمل بها، لأنه بنفسه لا يستطيع أن يعمل شيئاً (يو ١٥: ٥). والذي يثق بقدرته الخاصة على تخليص الآخرين، لابد أن يكون مغروراً.

✽ ✽ ✽

إنه لا يرفض الرئاسة إن أتت إليه، دون سعي منه إليها. فليس الضرر في الرئاسة، إنما الضرر في محبة الرئاسة وفي الارتفاع بسببها.

ليس الضرر أن تبقى رئيساً. ولكن الضرر هو أن تتسلط على غيرك. فقد يوجد رئيس وصاحب المتكأ الأول، وفي نفس الوقت يكون إنساناً متضعاً. يعامل مرؤوسيه برفق كأنه واحد منهم. فالرئيس والمرؤوس سواء عند الله. بل قد تكون للمرؤوس منزلة أكبر حسب برّه.

✽ ✽ ✽

والرئيس المتواضع هو الذي يتفاهم مع مرؤوسيه بروح المحبة والبساطة شاعراً أن السلطة إنما تمنح للرؤساء من أجل إدارة العمل، وليس من أجل الكرامة الشخصية. وهكذا

أيضاً درجات الكهنوت مهما علت، هي للتدبير والرعاية والخدمة، وليست للرفعة والتسامخ. وعلى ذلك فإن كل سلطة لا يجوز أن تتحرف عن معناها الأصلي كمجرد وسيلة لتدبير العمل، لتصبح وسيلة إلى تكبير الذات وإظهارها!..

يحكى عن القديس الأنبا باخوميوس أب الشركة: إنه كان يسير مرة مع مجموعة من الرهبان، وكل واحد يحمل حاجياته. فتقدم أحد الرهبان لكي يحمل حاجيات القديس باخوميوس، فرفض ذلك وقال له: إذا كان المسيح له المجد دعا نفسه أخاً لتلاميذه، فهل استخدمكم أنا في حمل حاجياتي؟! لا يصير هذا الأمر أبداً. من أجل هذا فإن بعض الأديرة كائنة في انحلال، لأن صغارهم مستعبدون لكبارهم!"

✱ ✱ ✱

والقديس بولس الرسول يقول عن نفسه "إن حاجاتي وحاجات الذين معي، خدمتها هاتان اليدان" (أع ٢٠: ٣٤).

إن الرئيس المتواضع هو الذى يحترم الكل، ويعامل الكل بلياقة. حقاً ما أعظم محبة وتواضع الذين يعاملون من هم أقل منهم باحترام وتوقير..

إنك بسهولة تحترم الشخص الأكبر منك. فهذا واجب وضرورة، وأنت مرغم على ذلك ومضطر أن تحترمه. لكن من يحترم من هو أقل منه، يكون متضعاً.

الذى يحترم من هم أصغر منه فى المنصب، أو العلم، أو السن، أو فى المقام، ويحفظ حقوقهم ويشعرهم بشخصياتهم، فهو إنسان متواضع يستحق محبة وتقدير الكل. وأعلم أن كرامتك ليست فى أن يخضع الناس لك بحكم القانون. إنما الاحترام الحقيقى، هو تقدير وتوقير ينبع من القلب، لمن هو مستحق لذلك. ولا يكون من الظاهر فقط.

✱ ✱ ✱

★ الرئيس المتواضع يكون رئيساً على ذاته أولاً .

فهو يضبط نفسه أولاً، ويحسن تدبيرها، قبل أن يتولى تدبير الغير. قال الشيخ الروحانى، وهو ينصح الرهبان الصغار ألا يشتهوا رئاسة مجمع الرهبان: "إن حوربت بهذا الفكر، فقل لنفسك: إن مجعنى هو مجع أفكارى التى أقامنى الله عليها رئيساً، لكى أدبر أهل بيتى حسناً".

فكن إذن رئيساً على أفكارك ومشاعرك، واضبطها حسناً. فلا تطيش شرقاً أو غرباً. كن رئيساً على حواسك، على نظرك وسمعك. كن رئيساً على شهوات قلبك واضبطها..

وإن تمكنت من أن تكون رئيساً على نفسك وتضبطها، فأنت الشخص الذى قد تصلح أن تكون رئيساً.

وإذا كنت لم تعرف أن تحكم نفسك، ولا لسانك ولا فكرك، ولا قلبك من الداخل، فكيف تصلح أن تكون رئيساً على غيرك؟! إن لم تكن أميناً على القليل، لا يمكن أن تكون أميناً على الكثير (مت ٢٥: ٢١).

* * *

يمكنك أيضاً أن تهرب من محبة الرئاسة والكرامة، إن كنت تزهد فى الأمجاد الخارجية.

لأن كل ما يتعلق بالوظائف والمناصب هو عَرَض خارجى لا يتعلق بذاتك فى الداخل. فالكرامة التى يقدمونها الناس لك، هى فى الواقع كرامة يقدمونها للمنصب الذى أنت فيه، وللوظيفة التى تشغلها، وليس لك شخصياً. بحيث إن ابتعدت عنك الوظيفة، ابتعدت عنك كرامتها. ولكن المزمور يقول "كل مجد ابنة الملك من داخل" (مز ٤٥) على الرغم من أنها "مشملة بأطراف موشاة بالذهب، ومزينة بأنواع كثيرة".

مجدك إذن فى شخصيتك، لا فى وظيفتك أو رئاستك.

مجدك فى جوهرك: فى روحياتك، فى طبيعتك، فى عقلك، فى حكمتك، فى كل ما يوجد داخل قلبك من الفضائل والصفات الطيبة.

إن عرفت هذا تزهد فى المناصب والوظائف. وتقول مع السيد الرب: "مجداً من الناس، لست أقبل" (يو ٥: ٤١)، مريداً المجد الذى يكللك به الله، وليس المجد الذى يمنحك الناس إياه. نعم، مجدك هو فى حكم الله عليك، وليس فى حكم الناس.

كيف تهرب

من محبة المديح والكرامة

إن هروبك من محبة المديح والكرامة ومن محبة الرئاسة يستدعى الآتى :

١ - ينبغي أن تعرف أن المجد الذى تأخذه من الناس هو مجد زائف .

وربما يكون عن جهل. لأن الذين يمدحونك لا يعرفون حقيقتك. لأنهم يحكمون حسب الظاهر. لا يقرأون أفكارك، ولا يعرفون مشاعرك وإحساساتك الداخلية، ولا خطاياك الخفية وسقطاتك.

وبعض الناس قد يمدح على سبيل المجاملة، أو بسبب التشجيع، والبعض يمدح بسبب أدبه الخاص، أو بسبب التملق، أو لغرض معين فى نفسه. ومدح الناس قد يضر الكثيرين ويضلهم، ويبعدهم عن معرفة النفس، وعن تقويمها.

والمسكين الذى يحب المديح يهمله أن يُمدح كيفما كان الأمر، ويلذ له أن يصدق كل ما يقال فيه خير، سواء عن حق أو عن باطل!

✱ ✱ ✱

٢ - أما أنت فاعرف أن مديح الناس لا يوصلك إلى ملكوت الله .

لأن الله هو فاحص القلوب والكلى (رؤ ٢: ٢٣)، وهو العارف الخبايا والأسرار. وفى حكمه عليك، لا يعتمد على كلام الناس عنك.

لذلك ينبغي لك أن تصادق من يوجهك ويوبخك. أما إذا مدحك الناس، فتذكر خطاياك

ونفانصك، واعترافاتك التى تخجلك، والأخطاء البشعة التى وقعت فيها فى حياتك. وبذلك يخف عليك ألم المديح.

✱ ✱ ✱

٣ - قل لنفسك : أنا ما زلت سائراً فى الطريق، ولا أعرف كيف سأنتهى؟

والكتاب يقول "انظروا إلى نهاية سيرتهم" (عب ١٣: ٧). فكثيرون بدأوا بالروح، وكمّلوا بالجسد" (غل ٣: ٣). والكتاب يقول أيضاً "من يظن أنه قائم، فلينظر أن لا يسقط" (١كو ١٠: ١٢). وما أكثر حروب الشيطان، وما أشد حيله وخداع مكره، فاحفظنى يارب، لأن "الخطية طرحت كثيرين جرحى، وكل قتلها أقياء" (أم ٧: ٢٦)، وأنا لا أحسب نفسى أقوى من الذين سقطوا...

✱ ✱ ✱

٤ - للهروب من المديح ، سواء مديح الناس، أو مديح نفسك لك، انظر إلى المستويات التى هى أعلى منك بكثير. فتصغر نفسك فى عينيك.

إنك إن نظرت إلى الخطاة والضعفاء فى مستواهم الروحى، أو إلى من هم أقل منك فضيلة وبرا، ربما بالمقارنة تجد أنك "بار فى عينى نفسك" (أى ٣٢: ١). وإن نظرت إلى من هم أقل منك فهماً وعلماً ربما بالمقارنة تصبح "حكيماً فى عينى نفسك" (أم ٣: ٧). إن أولاد الله صاروا متواضعين، لأنهم كانوا باستمرار ينظرون إلى الكمال المطلوب منهم، حسب قول الرب "كونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل" (مت ٥: ٤٨)، وأيضاً إلى قول الرب "كونوا قديسين، لأنى أنا قدوس" (١بط ١: ١٦). وبنظرتهم إلى القداسة والكمال، كانوا يرون أنهم "فى الموازين إلى فوق" (مز ٦٢: ٩). فيقول كل منهم لنفسه "وزنت بالموازين فوجدت ناقصاً" (دا ٥: ٢٧).

كانوا يصلون إلى درجات عظيمة فى الصوم والصلاة والنفك وإنكار الذات وفى كل فضيلة يجاهدون للوصول إليها، كانوا فى نظر أنفسهم ضعفاء ومساكين، لأن المستوى العالى الذى كانوا يتطلعون إليه، مازال بعيداً عنهم. وهناك درجات لم يصلوا إليها! إذا مدحتك نفسك على فضيلة معينة قد وصلت إليها، فتذكر ما قد وصل إليه الآباء فى هذه الفضيلة بالذات، حينئذ تدرك أنك لا شئ..

✱ ✱ ✱

إذا مدحتك نفسك مثلاً لمواظبتك على صلاة الأجيبة، تذكر أنك تصلى بعض المزامير.

وهناك آباء كانوا يصلون كل المزامير . ومنهم من كان يقضى الليل كله فى الصلاة . ومن كان يمارس الصلاة الدائمة . ومن كان يصلب فكره فى الصلاة حتى ما يخطر عليه فكر آخر كالترتيب الذى تدرب عليه القديس مكاريوس الاسكندراني . وتذكر أيضاً الصلاة بخشوع ، والصلاة بدموع ، والصلاة بحرارة وحب وإيمان .. حينئذ تجد أنك مجرد مبتدئ فى عمل الصلاة . وربما لم تصل بعد إلى درجة مبتدئ؟

وبالمثل قارن نفسك بالدرجات العليا لباقي الفضائل ..

✱ ✱ ✱

فهل يحاربك المجد الباطل ، لأنك مدقق فى دفع العشور؟ فهل أنت أيضاً تدفع البكور؟ وإن كنت كذلك ، فاعرف أن المسيحية ارتفعت فوق هذا المبدأ فى العطاء ، إذ قال الرب "من سألك فاعطه" (مت ٥ : ٤٢) . وقال أيضاً "إن أردت أن تكون كاملاً ، فاذهب وبيع كل مالك ، وأعط الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء ، وتعال اتبعنى" (مت ١٩ : ٢١) . وإن وصلت إلى هذا ، فأمامك قصة لأحد القديسين كان متتاهياً فى عمل الرحمة : فباع كل ما يملك وأعطى الفقراء . وإن لم يبق له شئ ليعطيه ، باع نفسه عبداً ، وأعطى ثمن نفسه للفقراء ! أقول لك هذا ، لا لتفعل مثله ، فهذا غير ممكن الآن . وإنما لكى تتضع ...

✱ ✱ ✱

٥ - لكى تهرب من الكرامة ، اعرف المعنى الحقيقي للمتكأ الأخير .

فليس المتكأ الأخير . أن تجلس فى المكان الأخير . فهناك من يتصرف هكذا لكى يقال عنه إنه متضع . وقد يتخذ المتكأ الأخير من الظاهر ، بينما محبة المجد الباطل تقتله من الداخل . فالمتكأ الأخير حقاً ، هو أن تشعر فى أعماقك أنك حقاً فى المتكأ الأخير ، من جهة المكانة ، وليس من جهة المكان . قال أحد الرهبان للقديس تيموثاوس "يا أبى ، إنى أرى فكرى مع الله دائماً" فأجابه القديس "الأفضل لك يا ابنى : أن ترى نفسك تحت كل الخليفة" .

✱ ✱ ✱

قيل عن إثنين من الرهبان الشبان إنهما دخلا إلى مائدة الدير . وكانت ذلك الحين مقسمة إلى موائد للشيوخ وأخرى للشبان . فدعا الشيوخ واحداً منهما أن يجلس معهم فجلس . وأما الآخر فذهب إلى مائدة الشبان . وعند الإنصراف قال هذا الأخير لزميله "كيف تجرأت - وأنت شاب - أن تجلس مع الشيوخ؟" فأجابه "إننى لو جلست على مائدة الشبان ، ربما كانوا يقدموننى على أنفسهم فى كل شئ ، لأننى أقدم منهم . ولكننى عندما جلست على

مائدة الشيوخ، كنت أشعر بضالتي وعدم استحقاقى، وبأنى لا استحق الكلام. وجلست فى استحياء مطرفاً كل الوقت. وكنت فى المتكأ الأخير".

* * *

إذن فحتى لو أجلسك للناس فى المتكأ الأول، قل لنفسك: إن كل هؤلاء الناس أفضل منى. إن وقتت مثلاً تدرس الأطفال فى مدارس الأحد، اعتبر أنهم ملائكة أفضل منك. واطلب من الله أن تكون فى بساطتهم ونقاوتهم وكرامتهم عند الله...

كان أحد مدرسى مدارس الأحد إذا وقع فى مشكلة، يطلب من أطفال فصله أن يصلوا من أجله فى ضيقته. وكان يقول: إننى جرّبت صلواتهم فى مشاكل حياتى. وكنت أشعر إنها قوية ولها مفعول كبير، أكثر من صلواتى الخاصة.

* * *

٦ - وإن أردت الهروب من محبة المديح، إهرب من محبة الرؤى والمعجزات.

لثلا يعرف الشياطين عنك هذا، فيضلوك برؤى كاذبة من عندهم. ويقول الرسول "إن الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك نور" (٢كو ١١: ١٤). ظهر الشيطان مرة لأحد القديسين وقال له "أنا جبرائيل الملاك وقد أرسلنى الله إليك". فردّ عليه القديس "لعلك أرسلت إلى غيرى وأخطأت الطريق. أما أنا، فأنى إنسان خاطئ لا أستحق أن يظهر لى ملاك". قال مار اسحق "إن الذى يرى خطاياها، أفضل ممن يرى ملائكة".

* * *

حقاً إن الرؤى لا تخلص نفسك فى اليوم الأخير، فلا تطلبها. إنما معرفتك بخطاياك، فهى التى تقودك إلى التوبة وخلص نفسك.

يدخل فى هذا المجال أيضاً من يسعون إلى التكلم بالأسنة، لا لتبشير الغرباء عن لغتهم، إنما بسبب الإدعاء إنهم قد وصلوا إلى الملء!! والبعض منهم يقول لغيره: تعال لى أمنحك الروح والملء، فنتكلم بالأسنة..!!

* * *

٧ - إن أردت أن تهرب من المديح، ينبغى أن تخفى أعمالك القاضية عن الناس.

لأنك إن كنت تعمل الخير من أجل الله، وليس من أجل كرامة من الناس، فماذا يهملك إن كان الناس يرون هذا الخير منك أو لا يرونه. بل إن إظهار فضائلك لهم، قد يفقدك أجرك عند الله، إذ تكون قد أستوفيت خيراتك على الأرض (مت ٦).

فى إحدى المرات، تقابل بعض رهبان شيهيت مع الأم ساره، وكشفوا لها أفكارهم.

فقال لهم: بالحقيقة إنكم إسقيطيون. الذى لكم من الفضائل تخفونه. وما ليس فيكم من النقائص، تنسبونه إلى أنفسكم...

✱ ✱ ✱

وفى مرة أخرى، كان يعيش فى برية شيهيت راهب سورى الأصل. هذا جاء إلى القديس مكاريوس الكبير وقال له "لى سؤال يا أبى: عندما كنت فى سورية، كنت أستطيع أن أصوم كثيراً، وأطوى الأيام صوماً. أما الآن فى مصر فلا أستطيع أن أكمل اليوم صوماً. فلماذا؟". وحيث أن الأديرة فى سورية كانت فى المدن فى وسط الناس، لذلك ردّ عليه القديس مكاريوس قائلاً "لقد كنت تطوى الأيام صوماً، لأنك كنت تتغذى على المجد الباطل، الذى هو مديح الناس لك أثناء الصوم والإنقطاع عن الطعام. أما فى البرية فلا يراك أحد، ولذلك تجوع بسرعة!"

✱ ✱ ✱

لذلك قال القديسون: إن الفضائل إذا عُرِفَتْ، تبيد وتنتهى. وبسبب هذا، كانوا يخفون فضائلهم ومعرفتهم وحكمتهم .

أما إن أراد الله أن يظهر فضائلك وحكمتك، فلتكن مشيئته. ولكن لا يكن ذلك منك أنت. فحاذر أن تفتخر بنفسك، أو أن تجلب لنفسك صيتاً حسناً .

الباب السادس :

علاقة الإقضاء بالمضائل والمواهب

- النعمة .
- التوبة والاعتراف .
- الشفقة على المخطئين .
- الإيمان والبساطة .
- التعليم .
- الصلاة .
- احترام الآخرين .
- الانتهاز والتوبيخ والمعاقبة .

هناك ثلاث فضائل لابد أن تدخل في كل فضيلة، كما يدخل الخيط في حبات السبحة، وبدونها لا تعتبر الفضيلة فضيلة. هذه الثلاث هي الحكمة، والمحبة، والتواضع. فكل فضيلة لابد أن تُمارس بحكمة. وبدون حكمة قد تتحول إلى اسم آخر غير الفضيلة، أو تتشوه صورتها. وكل فضيلة لابد أن يدخل فيها عنصر المحبة: محبة الله، ومحبة الخير، وأحياناً محبة الناس. وبدون المحبة تفقد الفضيلة قيمتها.

كذلك لابد أن تمارس كل فضيلة في تواضع قلب، وإلا صارت طعاماً للمجد الباطل كما قال القديسون. ونود في موضوعنا هذا، أن نتعرض لعلاقة التواضع ببعض الفضائل كمثال، وأيضاً لعلاقته بالمواهب. ولنبدأ بعلاقة التواضع بالنعمة.

النعمة :

يقول الكتاب "يقاوم الله المستكبرين. أما المتواضعون فيعطيههم نعمة" (يع ٤ : ٦). النعمة تمنح المواهب. ولكن المتكبر يفتخر بالمواهب، ويرتفع قلبه بها. لذلك يأتمن الرب المتواضعين على نعمته وعلى مواهبه، لأنهم يقولون باستمرار "ليس لنا يارب ليس لنا. لكن لاسمك القدوس أعط مجداً" (مز ١١٥ : ١). وهناك كلمة جميلة قالها ماراسحق وهي :

"إذا منحك الله موهبة، فاطلب منه أن يعطيك تواضعاً ليحميها".

ذلك لأن التواضع يحمي المواهب من الاقتخار والمجد الباطل..

لهذا نحن نعجب من الذين يطلبون من الله أن يمنحهم موهبة التكلم بأسنة، بينما لا يوجد غرباء لهم لغة مجهولة تحتاج إلى موهبة أسنة لتبشيرهم. وهكذا يستخدمون الأسنة للمجد الباطل، والإدعاء بأنهم وصلوا إلى "ملء الروح"!!

ما أخطر المواهب على الذين لم يصلوا إلى الاتضاع بعد. إنهم يفرحون بتلك المواهب بسبب (الذات) وارتفاعها! وهنا نتذكر إن السبعين الذين أرسلهم الرب للتبشير، ومنحهم موهبة إخراج الشياطين "رجعوا بفرح قائلين: يارب، حتى الشياطين تخضع لنا باسمك". فوبخهم الرب قائلاً "لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم. بل افرحوا بالحرى أن اسماءكم قد كُتبت في السموات" (لو ١٠: ١٧، ٢٠).

✱ ✱ ✱

ونفس الوضع حينما تساعد النعمة إنساناً على اكتساب فضيلة:

إن كان متواضعاً، ينسب الفضل لله وليس لنفسه. ويقول كما قال القديس بولس الرسول "ولكن بنعمة الله أنا ما أنا" (١كو ١٥: ١٠). ويخشى أن يفتخر أو يتكبر، فتسحب النعمة عملها منه فيسقط. بل هو بالأكثر ينكر ذاته، ويحاول أن يخفى فضائله: لا على الناس فقط، بل حتى على نفسه. ولا يتأمل ما هو فيه من فضيلة. بل يحاول أن ينساها. ويتحول شعوره إلى الشكر، لا إلى الفخر...

أما الفضيلة عند المتكبر، فهي عرضة للضياع. ولا تكون فضيلة حقيقية. بل لا يتبرر بها، كما حدث في قصة الفريسي والعشار (لو ١٨: ٩-١٤).

ذلك الفريسي وقف في الهيكل مفتخراً بفضائله، حتى أمام الله! فقال "أشكرك يارب أنى لست مثل باقى الناس الخاطفين الظالمين الزناة، ولا مثل هذا العشار. أنا أصوم مرتين فى الأسبوع، وأصوم كل ما أقتنيه" (لو ١٠: ١١، ١٢). هذا الفريسي لم يذكر عمل النعمة معه. ولم ينفعه صومه ولا عشوره، ولا بعده عن بعض الخطايا. لذلك لم يخرج من الهيكل مبرراً (لو ١٠: ١٤).

ننتقل إلى نقطة أخرى . وهى علاقة التواضع بالتوبة :

التوبة :

المتواضع هو الذى يصل إلى التوبة. أما المتكبر فلا يقدر .

المتكبر لا يشعر أن له عيوباً تحتاج إلى إصلاح. أو أنه واقع فى خطايا تحتاج إلى توبة. ذلك لأنه "بار فى عينى نفسه". والذى يكشف له ضعفاته وأخطائه وينصحه بالتوبة، لا يقبل ذلك منه، بل يعتبره عدواً..! فكيف يتوب هذا المتكبر، وهو لا يعرف عن نفسه

خطية يتوب عنها!٢١

* * *

أيضاً المتكبر يظن أنه أكبر من أن يخطئ، فلا يحترس . فيسقط .

وبسبب ادعائه القوة، قد يعرض نفسه إلى مواقع الزلل، في غير مبالاة ولا حرص، فيضربه الشيطان في مقتل. وهكذا قال الكتاب عن الخطية إنها "طرحت كثيرين جرحى، وكل قتلها أقوياء" (ام٧: ٢٦). والمقصود بكلمة (أقوياء) هنا: من يظنون في أنفسهم أنهم أقوياء.. وقد نكر مار اسحق أن العجرفة تسبب السقوط فقال إن "المتعجرف بالفضلة يسقط في الخطية، والمتعجرف بالعلم والمعرفة يسقط في البدعة والمهرطقة" ..

والكتاب يقول قبل الكسر الكبرياء: وقبل السقوط تشامخ الروح" (أم١٦: ١٨).

* * *

نقطة أخرى وهي أنه : حتى لو اعترف المتكبر بأنه خاطئ، وسعى إلى التوبة، فإنه يعتمد على قوته وإرادته وتدابيره الروحية.

يظن أنه قادر على ضبطه لنفسه. ثم يكتشف عملياً أن نفسه ليست بالقدرة التي تستطيع أن تقاوم كل حين العدو، وأنها لا تقدر أن تطفئ جميع سهام الشرير الملتهبة" (أف٦: ١٦). وعلى الرغم من ذلك يتشبث بإدعاء القدرة والصمود!

* * *

أما المتواضع فيعترف بأنه خاطئ وأنه ضعيف، وأنه محتاج إلى قوة من فوق تساعد على التوبة. ويردد تلك العبارة العميقة:
"توبني يارب فأتوب" (أر ٣١: ١٨).

المتواضع لا يعتمد على نفسه في التوبة. بل من أعماقه يردد قول المزمور: "إنضح على بزوفاك فأطهر. أغسلني فأبيض أكثر من الثلج" قلباً نقياً إخلق فيّ يا الله، وروحاً مستقيماً جدده في أحشائي" (مز ٥١: ٧، ١٠).

ويقول كما في صلاة الساعة الثالثة "تقنى من دنس الجسد والروح".

وحينما ينعم الله عليه بالتوبة، لا ينسب ذلك إلى جهاده الروحي، بل إلى نعمة الله التي أنقذته من الخطية. فيشكر ولا يفتخر.

* * *

والمتواضع - إذ يشعر بضعفه - يحترس من أبسط الحروب الروحية.

يحترس من أقل عثرة، ومن الحروب التي تحارب المبتدئين. ويردد ما قاله القديس الأنبا أنطونيوس - في اتضاعه - للشيطان "أنا أضعف من أن أقاتل أصغركم!" وإذ يتوب المتواضع، لا ينسى خطاياہ السابقة وضعفاته. بل ينسحق قلبه بسببها، وتمتلئ عيناه بالدموع. كما حدث مع داود في توبته (مز ٦).

* * *

إن هناك علاقة متبادلة بين التوبة وتواضع القلب .

التواضع يقود إلى التوبة. والتوبة تقود إلى الإبتضاع .

إنها تقود التائب إلى القلب المتخشع والمتواضع الذي لا يردئه الله (مز ٥٠).

ولنأخذ داود كمثال في توبته واتضاعه وانسحاقه ودموعه، حيث يقول للرب في مزاميره "لصقت بالتراب نفسي، فأحسبني ككلمتك" (مز ١١٩: ٢٥) "ضللت مثل الخروف الضال، فاضلّب عبدك" (مز ١١٩: ١٧٦) "خير لي أنك أذللتني، حتى أتعلم حقوقك" (مز ١١٩: ٧١). ويقول أيضاً "تعبت في تنهدى. أعوم كل ليلة سريري، ودموعي أبلى فراشي" "ارحمنى يارب فأنى ضعيف" (مز ٦).

نقطة أخرى تتعلق بالإبتضاع . وهي الإعتراف وكشف الأفكار .

الإعتراف :

تواضع الإنسان يساعده على الاعتراف بخطاياہ، وكشف أفكاره وحروبه.

أما المتكبر فلا يكشف حروبه وضعفاته. ولذلك تبقى بدون علاج.

المتواضع في اعترافه يذل نفسه. ويرى أن هذا نافع له حتى لا يرجع إلى الخطأ مرة أخرى. أو يهرب من ذلك بحجة أنه لا يريد أن يكون عثرة. أو يمنعه الخجل.

الشيطان يبعد الخجل عن الإنسان أثناء ارتكاب الخطية. ويضع أمامه الخجل في وقت الاعتراف. أما المتواضع فينتصر على خجله باتضاعه .

ومعرفة المتواضع بضعفاته وسقطاته تقوده إلى نقطة أخرى وهي :

الشفقة على المخطئين :

إنه يشفق على الخطاة ويقابلهم بحنو، لأنه عارف بضعف البشرية وقوة حروب الشيطان. ويضع أمامه قول القديس بولس الرسول:
"أذكروا المقيدون، كأنتم مقيدون معهم. واذكروا المذنبين كأنتم أيضاً فى الجسد"
(عب ١٣: ٣).

ويذكر قول الرسول أيضاً "ناظراً إلى نفسك لئلا تُجرب أنت أيضاً" (غل ٦: ١).
المتواضع إن رأى خاطئاً، يقول فى نفسه "كلنا تحت الضعف". ويذكر أنه قد قيل عن إيليا النبى "إيليا كان إنساناً تحت الألام مثلنا" (يع ٥: ١٧)، مع أنه بصلاته أغلق السماء فلم تمطر، ثم صلى فأمطرت.

✱ ✱ ✱

المتواضع يستر على الخطاة، لشعوره أنه محتاج إلى الستر مثلهم.
إنه يرحمهم فى سقوطهم، حسب قول الآباء "من يرحم، باب الرحمة مفتوح أمامه"
وكما يقول الرب "طوبى للرحماء، فإنهم يُرحمون" (مت ٥: ٧). ويقول فى قلبه "أرحم
غيرى لكى يرحمنى الله. وأنا مثلهم خاطئ محتاج إلى الرحمة. وما يزرعه الإنسان، إياه
يحصد. والرب يقول "بالكيل الذى به تكيلون، يُكال لكم" (مت ٧: ٢).

✱ ✱ ✱

المتواضع فى رحمته على الخطاة والضعفاء، لا يفرز المستحق من غير مستحق..
إذ يقول: لو كانت الرحمة للمستحقين فقط، فأنا غير مستحق.

والرب إلهنا الحنون، قد قيل عنه إنه "يشرق شمس على الأشرار والصالحين. ويمطر
على الأبرار والظالمين" (مت ٥: ٤٥). لذلك فالمتواضع لا يتشامخ على أحد، ولا يحتد
ولا يدين. بل يعامل الكل بشفقة وحنان وحب. حتى الذين يؤذونه، يرحمهم أيضاً. ينظر
إلى احتياجاتهم، وليس إلى انتقام نفسه لنفسه.

أما المتكبر فهو غير ذلك. قد ينظر إلى الخطاة فى اشمزاز وتعال كما تنظر قمة
الجبل إلى المستقع فى أسفل الوادى. وكأن هذا المتكبر لم يخطئ ولن يخطئ!! لذلك فهو
يدين الخطاة ويزدرى بهم. وقد يشهر بهم أيضاً .

الإيمان والبساطة :

★ المتواضع له بساطة القلب التي تقبل من الله كل شيء، دون مجادلة ودون شك. مثل بساطة الأطفال الذين يتلقون قواعد الإيمان، فيقبلونها دون مجادلة. ولهذا قال الرب "إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأطفال، فلن تدخلوا ملكوت السموات" (مت ١٨: ٣). على أن كثيراً من الناس كلما تنمو عقولهم، تقف عقولهم ضد بساطة الإيمان، ولا يقبلون إلا ما تستطيع عقولهم أن تستوعبه عن الله وعن حكمته ووصاياه! بينما عقولهم محدودة، والله غير محدود. ولا يستطيع المحدود أن يستوعب غير المحدود.

✽ ✽ ✽

★ وهكذا فإن بعض الفلاسفة انحدروا إلى الإلحاد، إذ أنهم في كبرياء المعرفة اعتزوا بعقولهم، ورفضوا الله الذي لا يروونه ولا يلمسونه.

يُروى عن أحد الفلاسفة أنه مرّ في طريقه على أحد الحقول، ورأى فيه فلاحاً راکعاً يصلى. فوقف يتأمله في تعجب. وقال في نفسه "أنا مستعد أن أتنازل عن نصف فلسفتي، إذ منحت بساطة هذا الفلاح الذي بكل ثقة يتكلم في صلاته مع كائن لا يراه!!"

ونرى في هذه القصة مثلاً عن تواضع البساطة التي تقود إلى الإيمان، إلى جوار "المعرفة التي تنفخ" (١كو ٨: ١)، وتقود إلى الكبرياء الذي ينكر وجود الله! عجيب هذا الأمر جداً: أن العقل وهو هبة من الله للإنسان، يستخدمه الإنسان لينكر الله الذي وهبه إياه. وإذ بالفيلسوف الذي قد يكون أكبر الناس عقلاً، يتحول في كبرياء العقل إلى الجهل بالله. وصدق المرثم حينما قال في المزمور "قال الجاهل في قلبه ليس إله" (مز ١٤: ١).

✽ ✽ ✽

★ في كبرياء العقل أيضاً ينكر المعجزة .

ينكرها لأنه لم يفهمها، فيدعى أن المعجزة ضد العقل!

والواقع أن المعجزة ليست ضد العقل، إنما هي مستوى أعلى من العقل. يقبلها إيمان المتواضع، ويرفضها العقل المتكبر. ولهذا فإن المتواضعين يطلبون من الله المعجزة وقد يهدم إياها إن كانت توافق مشيئته. بينما المتكبر لا يطلب المعجزة. وإن حدثت أمامه، يحاول أن يرجعها إلى أسباب طبيعية، أو يقابلها بتعجب دون أن يرجعها إلى الله..

✽ ✽ ✽

★ ومن المعجزات التي ينكرها العقل المتكبر : الخلق والقيامة .

بينما كل المؤمنين بالله فى العالم أجمع يؤمنون بالخلق من العدم، ويؤمنون بالقيامة من الموت. ويصدقون - فى اتضاع وبساطة - ما قالته كتب الوحي الإلهى عنهما. فى إنكار الخلق، قال الغنوسيون إن المادة أزلية، بينما لا يوجد أزلى إلا الله وحده... وماذا أيضاً عن الحياة؟ لا يمكن أن تكون الحياة الأرضية أزلية. لأنه مرّ وقت كانت فيه الأرض قطعة ملتبهة، حينما انفصلت عن المجموعة الشمسية. وكانت حرارتها لا تسمح بوجود حياة لبشر أو حيوان أو إنسان. فمن أين إذن أتت الحياة؟ لاشك من الله. وهنا يتفق العقل مع الإيمان. ولكن المتكبرين يرفضون قبول الله، لأن عقولهم ترفض أن تتنازل عن كبرياتها، وتريد أن تستوعب فكرة وجود الله!..

وغالبية الفلاسفة ترفض عقولهم فكرة القيامة بسبب الكبرياء التى ترفض كل ما لا تفهمه! أسنا بالنسبة إلى كثير من المخترعات الحديثة: نقبلها دون أن نفهمها؟! ولا يفهمها إلا المتخصصون فى العلم الخاص بها!..

✱ ✱ ✱

الرؤى أيضاً والظهورات الروحية، يراها المتواضعون ببساطة قلوبهم ... يقبلونها ، ويفرحون بها، بل وينتظرونها ويتهللون برؤيتها. بينما المتكبرون قد لا يرون لأن قلوبهم غير مستعدة، أو لأن الكبرياء تعوق الإيمان. أو لأنهم حتى إن رأوا نوراً إلهياً، يحاولون أن يرفضوا مصدره الإلهى، زاعمين تخمينات لا يسندها العقل ولا الواقع، مثل الليزر والأطباق الطائرة!! وتساءلهم عن مصدر ذلك الليزر وتلك الأطباق الطائرة، وعلاقتها بتلك الرؤى، فلا يجيبون.. مجرد الرفض هو الأساس فى تفكيرهم، ويخونهم العقل، وينقصهم الإيمان، بسبب الكبرياء ...

✱ ✱ ✱

✱ نفس الوضع بالنسبة إلى الكتب المقدسة: يقبلها المتواضعون بإيمان وفرح. بينما الكبرياء تقود البعض إلى النقد الكتابى **Biblical Criticism**.

يجعلون عقولهم مشرفة على الكتاب المقدس. تحلله وتنقده، وتقبل فقط ما تقبله عقولهم، وترفض الباقى. وأيضاً تضع الكتاب المقدس خاضعاً لأهواء الناس، يرفضون منه ما لا يوافق أهواءهم. مثل المؤيدين للشواذ جنسياً أو الخائفين منهم، أو المشجعين للشذوذ الجنسى Homosexuality، هؤلاء يرفضون آيات الكتاب التى تدين هذا الشذوذ. ليس لهم التواضع الذى يقبل كلام الله ويطيعه. بل فى كبرياء لا يقبلون ما لا

يستطيعون طاعته بسبب شهوات قلوبهم! وهناك ما ترفضه عقولهم، لا لأنه ضد العقل. وإنما لأن عقولهم ليست حرة، بل هي مقيدة بقيود أهوائهم وشهواتهم.

✽ ✽ ✽

★ والمتكبرون لهم أيضاً أسلوبهم في ترجمة الكتاب المقدس وفي تفسيره .

فالبعض قد يترجم الكتاب ترجمة توافق معتقداته، فيحرف فيه ويغير. مثلما فعل شهود يهوه في ترجمتهم التي أسموها (ترجمة العالم الجديد للكتاب):

. New World Translation of The Scripture

ففيها آيات كثيرة محرفة في مدلولها وألفاظها لتثبت ما ينادون به من بدع وهرطقات. ويستخدمون هذه الترجمة في كتبهم ويضلون بها الناس.

والمتكبرون أيضاً يفسرون حسب هواهم وفهمهم ونوع عقلياتهم، ولو أدى الأمر أن ينشئوا مذهباً جديداً. ولهذا السبب كثرت المذاهب في بلاد الغرب، وتعددت طوائفهم.

أما المتواضعون فليسوا كذلك. إنهم يقبلون الكتاب كما هو، ولا يخلطونه بنوعية عقولهم في الترجمة أو التفسير. ويعتمدون في معناه ومفهومه على ما وصل إليهم من التقليد Tradition ومن أقوال الآباء وتفسيراتهم .

كل هذا يقودنا إلى نقطة أخرى هي علاقة التواضع بالتعليم .

التعليم :

★ ونود أن نطرق هذه النقطة من ناحيتين هما :

تعليم الإنسان لغيره، وقبول الإنسان للتعليم من غيره .

فالمتكبر يحب أن يأخذ صفة المعلم، ويرى في نفسه الكفاءة أن يعلم غيره. أما المتواضع فإنه يفضل باستمرار أن يتعلم، لكي ينال معرفة، أو لكي يزداد في المعرفة. وهو مستعد أن يتلقى العلم ويقبله، حتى لو أتاه في صورة توبيخ، أو إن أتاه ممن هو أصغر منه. بل هو بنفسه يطلب العلم.

✽ ✽ ✽

وأمامنا قصص من سير القديسين في قبول التعليم وفي طلبه:

★ القديس الأنبا أنطونيوس في بدء رهبنته، كان يجلس على حافة القرية يتعلم الفضيحة من النساك هناك. وفي أحد الأيام أتت امرأة لكي تستحم في النهر، وبدأت تخلع ملابسها

أمامه. فقال لها "يا امرأة، أما تستحين أن تتعري أمامي وأنا راهب؟" فقالت له في استهزاء "من قال إنك راهب؟ لو كنت راهباً، لدخلت إلى البرية الجوانية. لأن هذا المكان لا يصلح لسكنى الرهبان". فاستمع الأنبا أنطونيوس إلى اجابتها في اتضاع شديد، واعتبر أنها رسالة من الله إليه على فمها. وفعلاً ترك المكان ودخل إلى البرية الجوانية.

✱ ✱ ✱

والقديس أنبا مقار الكبير، أخذ نصيحة من صبي راعي بقر .
والقديس الأنبا موسى الأسود، سأل زكريا الصبي كلمة منفعة. فلما قال له الصبي "أنت عمود البرية ومنارتها وتطلب مني؟" أجابه القديس "أنا واثق يا ابني، بالروح الذى فيك، أن عندك كلاماً ينقصنى معرفته".

والبابا ثاوفيلس ، الثالث والعشرون فى عداد البطارقة، كان يذهب أحياناً إلى البرية ليطلب كلمة منفعة من أحد المتوحدين مثل الأنبا أرسانيوس والأنبا بفتوتيوس. حتى حينما كان يعتذر البعض منهم عن لقائه، كان يمضى منتعماً!

✱ ✱ ✱

★والمتكبر "حكيم فى عينى نفسه" يتباهى بمعرفته. لذلك لا يطلب المعرفة من غيره! وفى كبرياته، لا يجد أحداً أكثر منه معرفة حتى يطلب منه مزيداً من العلم. بعكس المتواضع الذى لا مانع عنده من أن يسأل. ولا مانع من أن يقول عن أحد الأمور "لا أعرف". وهو يستمع إلى كلام غيره ليستفيد. أما المتكبر فإنه يقاطع غيره إذا تكلم، لكى يثبت رأيه هو وكلمته. وهو كثير الجدل والنقاش.

✱ ✱ ✱

★المتواضع يضع أمامه قول الرسول: لا تكونوا معلمين كثيرين يا أخوتى، عالمين أننا نأخذ دينونة أعظم، لأننا فى أشياء كثيرة نعثر جميعنا" (يع ٣: ١، ٢).
لذلك فهو يحترس جداً فى مسائل التعليم لئلا يخطئ. ولا مانع لديه من أن يستشير ليتأكد، أو يرجع إلى المصادر الرئيسية ليرى أن تعليمه موافق لعقيدة الكنيسة وأقوال الآباء، وبخاصة لو كان بصدد فكر جديد.

✱ ✱ ✱

أما المتكبر فبكل جرأة يقدم تعليماً جديداً. وقد يقع بذلك فى بدعة .
إنه يفرح بأن يطرق أموراً عويصة قد تكون فوق مستواه "ويرتئى فوق ما ينبغى" (رو ١٢: ١٣). ويبدى الرأى كأنه عقيده جديدة محاولاً إثباتها! وإن عارضته الكنيسة

يتشبث بفكره، وتمنعه كبرياؤه من التنازل عما علم به. وهكذا يقع في الهرطقة. وقد حدث ذلك مع ترتليانوس، وأوريجانوس، وأريوس، ونسطور". وفى هذا المجال أتذكر أننى كتبت بضع مقالات بعنوان :

"البدعة كالكبرياء . كل قتلاها أقوياء" .

لذلك ما أجمل قول السيد الرب "أحمدك أيها الأب رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهاء وأعلنتها للأطفال" (مت ١١ : ٢٥).

نعم، إن المتواضعين هم الذين ينالون حكمة من فوق، لأنهم يطلبونها. أما المتكبرون فتخفى عنهم الحكمة الإلهية، لأنهم مكتفون بحكمتهم البشرية. وهكذا رفض الله حكمة هذا العالم المغرور بحكمته (١كو ١ : ٢٠). وأصبحت كثير من فلسفات العالم تقود إلى الشك واليأس .

علاقة التواضع بالصلاة

حاجته إلى الصلاة :

الإسنان المتواضع هو إنسان شاعر بضغفه وباحتياجه إلى قوة تسنده، لذلك فهو دائماً يصلى، طالباً هذه القوة.

إنه يتذكر دائماً قول الرب "بدونى لا تقدرون أن تعملوا شيئاً" (يو ١٥ : ٥). لذلك فهو دائماً يتطلع إلى الله، ويقول له: أنت معينى يارب، منك استمد المشورة والقوة التى بها أعمل عملاً. بل منك استمد حتى مجرد الرغبة فى عمل الخير. أليس الرسول يقول "الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا لأجل المسرة" (فى ٢ : ١٣). إذن إعمل فى يارب لكى أريد...

وأحياناً يارب أريد "الإرادة حاضرة عندى. ولكن أن أفعل الحسنى، فلست أجد. لأنى لست أفعل الصالح الذى أريده. بل الشر الذى لست أريده، إياه أفعل!" (رو ٧ : ١٨، ١٩).
حياتى الروحية هى بين يديك: أنت تعطينى الرغبة، وتعطينى القوة للعمل.

وأنت أيضاً تعطينى الاستمرارية فى عمل ما يرضيك، وعدم النكسة فى الرجوع إلى الوراء، أو فى الفتور...

✱ ✱ ✱

أما المتكبر ، فهو واثق بنفسه وبقدرته، لذلك فهو لا يطلب. إنه نادراً ما يصلى، لأنه لا يشعر بالاحتياج إلى الصلاة!! إنه يعتمد على ذراعه البشرى وليس على ذراع الله! حتى إن كان خادماً فى الكنيسة، يندر أن يصلى لأجل ذلك لأنه "حكيم فى عيني نفسه". يعرف جيداً ما سوف يقول، ويفهم ما يريد أن يقوله. ناسياً قول الكتاب "توكل على الرب بكل قلبك، وعلى فهمك لا تعتمد" "لا تكن حكيماً فى عيني نفسك" (أم ٣: ٥، ٧).

المتكبر يشعر بقوة الذاتية، فلا يصلى طالباً قوة. تكفيه قوته!

لهذا كتبت مرة فى مذكرتى الخاصة هذه العبارة :

قال الشيطان لله: "أترك لى الأقوياء، فأتى كفيل بهم. أما الضعفاء فإذ يشعرون بضعفهم، يطلبون القوة منك، فتعطيهم ، فلا أقدر عليهم".

نعم المتواضع الشاعر بضعفه، إنما يحارب العدو بقوة الله التى يحصل عليها بالصلاة، وبها ينتصر. فيسبح الله ويقول "قوتى وتسبحتى هو الرب، وقد صار لى خلاصاً" (مز ١١٨: ١٤).

طريقة الصلاة :

المتواضع أيضاً يتميز بالخشوع فى صلاته.. إنه يشعر بضآلته، وهو يكلم ملك الملوك ورب الأرباب (رؤ ١٩: ١٦) خالق السموات والأرض.

وهكذا يقول له: من أنا يارب حتى أتحدث إليك؟! ومن أنا حتى تميل بإذنك وتسمعنى؟! إن كان ابراهيم أبو الآباء والانبياء - حينما تحدث إليك - قال "عزمت أن أكلم المولى، وأنا تراب ورماد" (تك ١٨: ٢٧)، فماذا أقول أنا؟! أنا الذى لست شيئاً...

من أنا حتى أكلمك، أنت الذى يقف أمامك الملائكة ورؤساء الملائكة، الشاروبيم والسارافيم. "ألوف ألوف وقوف قدامك، وربوات ربوات يقدمون لك الخدمة". كيف أحشر نفسى وسط طغمات القديسين وأتحدث إليك!؟

✱ ✱ ✱

المتواضع يبدأ صلاته بالسجود والركوع، ويتمجيد الله.

وإن وقف يصلى ، يرفع يديه إلى فوق، ويحفظ حواسه جيداً حتى لا تتشغل بشئ أثناء صلاته، مما يتعارض مع مهابته لله.

إن سفر الرؤيا يرينا صورة عجيبة من المهابة والخشوع. فيها يختر الأربعة والعشرون قسيساً قدام الجالس على العرش، ويسجدون للحى إلى أبد الأبدين. ويطرحون أكاليلهم قائلين: أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة.. (رؤ: ٤: ١٠، ١١).

فإن كان أولئك السماويون لابسو الأكاليل التى من ذهب يفعلون هكذا فى خشوعهم أمام الله، فكم خشوع يجب علينا نحن الأرضيين!؟

حقاً، إنه تنازل من الله أن يقبلنا مصلين، وأن ينصت إلينا ونحن نصلى. لذلك فالمتواضع يقول فى صلاته: "تدخل طلبتى إلى حضرتك" (مز ١١٩)...

مجرد دخول صلواتنا إلى حضرة الله، أمر لا نستحقه. ففى اتضاع قلب، نطلب من الله أن يقبل صلواتنا، وأن يسمعنا.. لأنه ليست كل الصلوات مقبولة. كصلاة الفريسي التى كانت بكبرياء قلب، وكصلوات أولئك الذين قال لهم الرب فى سفر أشعياء النبى "حين تبسطون أيديكم، أستر وجهى عنكم. وإن أكثرتم الصلاة لا أسمع. أيديكم ملأه نماً" (أش: ١: ١٥).

عَمَّ الإِسْتِحْقَاقُ :

والإنسان المتواضع، يذكر فى صلاته أنه غير مستحق، معترفاً بخطاياهم. كما فى صلاة الاستعداد التى يصلحها الأب الكاهن قبل القداس:

ويقول فيها : أيها الرب العارف قلب كل أحد، القدوس المستريح فى قديسيه. الذى بلا خطية وحده، القادر على مغفرة الخطايا.. أنت يارب تعلم أنى غير مستحق ولا مستعد ولا مستوجب. وليس لى وجه أن أقترب واقترب فإى أمام مجدك الأقدس".

ثم يقول "بل ككثرة رأفاتك اغفر لى أنا الخاطئ. وامنحنى أن أجد نعمة فى هذه الساعة. وارسل لى قوة من العلاء، لى ابتدئ وأهينى وأكمل خدمتك المقدسة كما يرضيك". ثم يقول أيضاً "أنت دعوتنا نحن عبيدك الأذلاء غير المستحقين لنكون خداماً لمذبحك المقدس.. أعط يارب أن تكون مقبولة أمامك ذبيحتنا عن خطايائى وجهالات شعبك..".

إنها صلاة كلها اتضاع. لئيتنا نتأمل معها تواضع القديسين فى صلواتهم.

وهذا موضوع طويل، لست أرى هذا المقال يتسع له. بل لبتنا أيضاً نتأمل التواضع فى باقى صلوات القداس الإلهى، وفى صلوات الأجبية... لنرى ليس فقط العلاقة بين التواضع والصلوة، بل بالحرى التواضع فى الصلاة...

التواضع فى الطلب :

إذا وصل الإنسان إلى التواضع فى عمقه، لا يجد شيئاً يطلبه... يقول للرب: ماذا أطلب، وأنت لم تدعنى معوزاً شيئاً من أعمال كرامتك". أنت يارب ترعانى، فلا يعوزنى شئ..". (مز ٢٣ : ١). كل ما قد أعطيتنى حتى الآن هو كثير على. اعطيتنى فوق ما أطلب، وفوق ما استحق، بحيث أشعر بفيض منك، لا ينقصه شئ يزداد عليه.

* * *

ثم أنى يارب لا أعرف ما هو الصالح لى لأطلبه..

أنت الذى تعرف ما أحتاج أنا إليه. تعرف ما ينفغنى إليه، وتعطينى إياه دون أن أطلب. جرأة منى أن أذكرك بما يحسن فى عينك أن تعمله لأجلى، حسب وفرة حنان أبوتك. كل ما أطلبه هو أن تغفر لى خطاياى، كذلك أطلب ملكوتك فى حياتى، كما سبق أن علمتنا "لا تهتموا بما للغد" "أطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذه كلها تزداد لكم" (مت ٦ : ٣٤، ٣٣).

* * *

كذلك أنا يارب فى خجل أن أطلب، على الرغم مما أقرفته من خطايا!

استحى من الطلب، وقد خالفت الكثير من وصاياك، وقصرت فى واجباتى من نحوك. ولم تعد لى دالة أطلب بها شيئاً. الخجل يغطى وجهى، وتذكر خطاياى يعقد لسانى عن الطلب. أنت تعرف يارب كل شئ.

* * *

وأيضاً كيف أطلب شيئاً جديداً، وأنا لم أشكر على عطايك السابقة!؟

أقول "باركى يا نفسى الرب، وكل ما فى باطنى ليبارك اسمه القدوس. باركى يا نفسى الرب، ولا تنسى كل احساناته" (مز ١٠٣ : ١، ٢). أنت يارب قد أعطيتنى الكثير والكثير، ولم أشكر بعد على كل ما غرقتنى به من كرمك. فليتتى أحيا حياة الشكر لا الطلب. أقول مع المزمور: "بماذا أكافئ الرب عن كل ما أعطانيه!؟ كأس الخلاص آخذ،

وباسم الرب أدعو.. قدام كل شعبه" (مز ١١٦).

✱ ✱ ✱

إن وضعنا أمامنا كل هذا، يستحيل على المتواضع أن يطلب العظام! إن كان ما معه كثيراً عليه، فكيف يُعقل أن يطلب عظام الأمور؟! لهذا فإن المتواضع لا يطلب المواهب العالية. لا يطلب أن يصنع القوات والعجائب، ولا أن يتكلم بالسنة (١كو ١٢). يقول لنفسه: إن كنت لم أسلك في المستوى الطبيعي العادى الذى يليق بأولاد الله، فكيف أطلب من الله ما هو فوق الطبيعة؟! وهل أنا أستطيع أن أحتمل تلك المواهب، أم تقودنى إلى الكبرياء والمجد الباطل، إن حدث ونلت شيئاً منها..! لذلك فالمتواضع "لا يرتنى فوق ما ينبغى أن يرتنى" (رو ١٢: ٣). ولا يطلب نصيباً من الإيمان غير ما قسمه الرب له... لاشك أن الشخص الذى فى صلواته يطلب العظام والمواهب الفائقة، هذا يوجد فى قلبه شئ من حب العظمة، شعر بذلك أو لم يشعر!

يطلب الصلاة لأجله :

والمتواضع أيضاً - إذ يشعر بضعف صلواته، وقلة دالته عند الله - فهو لا يكف عن طلب صلوات الناس من أجله، وشفاعة القديسين..

إن القديس بولس العظيم، كان يقول "صلوا لأجلنا" (١ تس ٥: ٢٥) (عب ١٣: ١٨). بل حتى فى خدمته ومن جهة عظاته، نراه يقول فى رسالته إلى أهل أفسس "مصلين بكل صلاة وطلبية، كل وقت فى الروح.. لأجل جميع القديسين ولأجلى، لكى يُعطى لى كلام عند افتتاح فمى، لأعلم جهراً بسرّ الإنجيل" (أف ٦: ١٨، ١٩). فإن كان القديس بولس الذى اختطف إلى السماء الثالثة (٢كو ١٢: ٤).. يطلب فى تواضعه الصلاة من أجله، فماذا نفعل نحن الضعفاء؟! ألسنا نسند ضعفنا بطلب الصلاة لأجلنا، من أخوتنا الأحياء معنا على الأرض، ومن الذين انتقلوا.. بغير غرور أن صلواتنا فيها الكفاية!

✱ ✱ ✱

نقطة أخيرة أقولها فى خجل: إن المتكبر قد يدعى أنه ليس لديه وقت للصلاة! كما لو كان غير محتاج إلى الصلاة! أو أنه فى صلواته يعطى وقتاً لله!! أما المتواضع فيصلى لأنه محتاج إلى الله فى كل شئ، وفى كل وقت. ويرى الصلاة عوناً له، وأيضاً بركة له، إذ يتكلم مع الله، ويقف فى حضرته...

التواضع واحترام الآخرين

الإنسان المتواضع يحترم غيره، كبيراً كان أم صغيراً. أما المتكبر فإنه يتعالى على من هو أصغر منه، ولا يحترم الكبار سواء في الكلام أو التصرف.

مثال المسيح

إن ربنا يسوع المسيح، رب المجد، في كل عظمته وفي لاهوته غير المحدود، يقدم لنا مثلاً في ذهابه ليعتمد من يوحنا. ولما قال له يوحنا "أنا المحتاج أن أعتمد منك"، نراه يجيبه بعبارة كلها اتضاع "اسمح الآن" (مت ٣: ١٤، ١٥).

ما أعجب هذا السيد، يقول لأحد عبده: اسمح الآن!!

✱ ✱ ✱

وفي احترام الآخرين، نراه خاضعاً للناموس في كل شيء: عندما شفى الرجل الأبرص، قال له: "إذهب أر نفسك للكاهن، وقدم القربان الذي أمر به موسى شهادة لهم" (مت ٨: ٤). عجيب أن رئيس الكهنة الأعظم يقول له "إذهب أر نفسك للكاهن"!! إنه يعطى لكل ذي حق حقه.. كذلك عندما دعا شاول الطرسوسي، أرسله إلى حنانيا (أع ٩). ولما قبل إليه كرنيليوس الأممي، أرسله إلى بطرس الرسول.

✱ ✱ ✱

بل الأعجب من هذا كله، أنه حينما جاء يهوذا الخائن ليسلمه بقبلة، قال له "يا صاحب لماذا جئت؟" (مت ٢٦: ٥٠).

يقول للخائن "يا صاحب"، لأنه لا يريد أن يخذش شعوره!!

نفس الوضع في تعامله مع المرأة السامرية: لم يوبخها على خطاياها، ولم يحدثها عن التوبة والندم، بل كلمها إيجابياً عن الماء الحي، وعن السجود لله بالروح والحق. ولما بدأ يمس حياتها الخاصة، قال لها "كان لك خمسة أزواج" (يو ٤: ١٨). وفي الواقع لم يكونوا أزواجاً لها، ولكنه تحاشى الوصف الجارح لعلاقتها بهم، حرصاً على شعورها. وحتى هذه العبارة بدأها بقوله لها "حسناً قلت" وختمها بقوله "هذا قلت بالصدق..".

بنفس هذا الأسلوب الرقيق، لم يחדش شعور المرأة "المضبوطة في ذات الفعل" بل أنقذها من الذين يطلبون رجمها ولما مشوا، قال لها "ولا أنا أدينك. اذهبي ولا تخطئي أيضاً" (يو ٨: ٢-١١).

✱ ✱ ✱

وفي احترامه للأمم، كان خاضعاً لأمه مريم وليوسف (لو ٢: ٥١). ولما طلبت منه إجراء معجزة في عرس قانا الجليل - مع أن ساعته لم تكن قد أتت بعد - (يو ٢: ٤)، استجاب لطلبها، ونفذ لها ما أرادت.

وفي احترامه لتلاميذه، ولو أنه لا أريد لاهوتياً أن استخدم هنا كلمة احترام، ولكن عذري أن اللغة عاجزة عن التعبير، نراه يقول لهم:

"لا أعود أسميكم عبداً.. لكنى قد سميتكم أحبباء" (يو ١٥: ١٥).

بل أكثر من هذا سماهم أخوة لها. وقال للمجدلية بعد القيامة "اذهبي إلى أختي وقولي لهم..". (يو ٢٠: ١٧). إنه لم يستح أن يدعوهم أخوة (عب ٢: ١١) بل أكثر من هذا أيضاً، قال عنهم للأب "المجد الذي أعطيتني، قد أعطيتهم" (يو ١٧: ٢٢). وأعطاهم احتراماً في نظر الناس بالموهب التي منحهم إياها..

إحترام الكبار:

الإنسان المتواضع يتكلم عن كل شخص باحترام، ويتصف باللطف في حديثه مع كل أحد، وبخاصة مع كبار السن. كما يقول القديس بولس الرسول لتيموثاوس الأسقف:

لا تنتهر شيخاً، بل عظه كأب، والأحداث كأخوة، والعجائز كأمهات" (١ تي ٥: ١).

مع أن القديس تيموثاوس كان أسقفاً، وكل هؤلاء يعتبرون أبناء له من جهة كهنوتية، ولكنه يجب أن يعاملهم باحترام معين كأبَاء وأمهات وأخوة. والقديس بولس الرسول نفسه

اتبع نفس هذا الأسلوب، فقال في رسالته إلى روميه "سلموا على روفس المختار في الرب، وعلى أمه أمى" (رو ١٦: ١٣).

ليس فقط في احترام كبار السن، كآباء وأمهات، بل حتى في التعامل مع الصغار "الأحداث كأخوة، والحداث كأخوات (١تى ٥: ١).

✱ ✱ ✱

واحترام الشيوخ والآباء، نجده واضحاً جداً في "بستان الرهبان".

وكذلك في جميع سير القديسين: فالقديس بولس البسيط حينما كان يتكلم عن معلمه الأنبا أنطونيوس، كان يقول "أبي القديس الأنبا أنطونيوس". ولما أحضروا إليه شخصاً عليه شيطان ليخرجه منه، قال للشيطان: "أبي القديس الأنبا أنطونيوس يقول لك أخرج منه. بصلاة أبي القديس أخرج منه". تعبير جميل..

✱ ✱ ✱

يذكرنا هذا بقصة عن القديس يوحنا القصير حينما أرسله أبوه الروحي القديس الأنبا بموا ليحضر له ضيعة من مكان معين. فذهب إلى هناك ولم يخف. ولما رأى الضيعة، جرى وراءها، وقال لها: أبا القديس الأنبا بموا يقول لك تعالي...

وما أكثر ما كان أحد الرهبان يقع في ضيقة، فيقول للرب "بصلاة أبا، يارب نجنى"..
حقاً إن الاستشفاع بالقديسين فيه لون من الاتضاع..

✱ ✱ ✱

إن أول وصية في العلاقات البشرية هي: أكرم أباك وأمك (خر ٢٠: ١٢).

سواء الروحانيين منهم أو الجسديين. ومن مظاهر هذا الإكرام، الاحترام.
قال القديس الأنبا بيجيمي السائح: في بدء رهنيتي، قضيت سنوات مع آباء شيوخ أبرار، لم أرفع عيني لأرى وجه واحد منهم.

كان الرهبان عندهم هذا اللون من الحياء، الذي يدل على أدب في التعامل فما كان أحدهم يملأ عينيه من وجه إنسان، كما ينصح الشيخ الروحاني.

✱ ✱ ✱

ومن احترام الكبار، ذلك المبدأ الرهباني الذي يقول:

إذا جلست وسط الشيوخ فكن صامتاً. وإن سألتك عن شيء، فقل لا أعرف.

يقصد: لا أعرف المعرفة التي استطيع أن أتكلم بها أمام الكبار. فإن جلسنا مع الكبار،

فإنما لكي نتعلم، وليس أن نتكلم.

ونرى أمثلة لهذا الأمر: اليهو في قصة أيوب الصديق:

أصحاب أيوب الصديق تبادلوا الكلام معه في ٢٨ إصحاحاً من سفر أيوب. وكان معهم رابع هو اليهو، ظل صامتاً طول ذلك الوقت كله. ولما حانت الفرصة له أن يتكلم، قال:

"أنا صغير في الأيام، وأنتم شيوخ. لأجل ذلك خفت وخشيت أن أهدى لكم رأيي. قلت الأيام تتكلم، وكثرة السنين تظهر حكمة" (أى ٣٢: ٦، ٧).

حقاً، كان الصغير لا يتكلم في حضرة الكبار، إنما ينصت ويتعلم. يأخذ من الكبار خبرة الأيام، وحكمة التجارب التي مرت عليهم.. ويحترم سنهم..

✱ ✱ ✱

وكان هذا الأمر في الرتب الكهنوتية: في وجود أحد الآباء الأساقفة، لا يستطيع كاهن أو شماس أن يلبس التونية لخدمة المذبح، إن لم يقدمها للآب الأسقف ليرشمها له.. وإن احتاج أسقف إلى تحليل، وقال لأحد الآباء القسوس "حاللني"، يرد عليه قائلاً "من فمك الجلت يا سيدنا" ..

من احترام الكهنوت الذي تعلمه لنا الكنيسة، أن نقول للآب الكاهن يا أبانا، ونقول للآب الأسقف يا سيدنا. ونقبل يد كل منهما. وقديماً، وفي الريف، كان الشخص يقبل يد أبيه، ويد أمه، ويد جده، ويطلب بركتهم. إنه لون من احترام الكبار.

✱ ✱ ✱

في الاتضاع، يوجد احترام الأبوة، واحترام الكبار، واحترام الكهنوت .

يقول الكتاب "الخوف لمن له الخوف، والإكرام لمن له الإكرام، (رو ١٣: ٧). إن داود النبي كان يحترم شاول الملك احتراماً فائقاً، على الرغم من أن شاول قد فارقه روح الرب، وبغته روح ردي من قبل الرب" (اصم ١٦: ٤). وكان داود يقول "حاشا لي أن أمد يدي إلى مسيح الرب. إنه مسيح الرب هو" (اصم ٢٤: ٦). وكان يخاطبه بعبارة أبى، وسيدى (اصم ٢٤: ١٠، ١١).

والتقوانين الكنسية تقول: إن كان من يقول لأخيه يا أحمق يستحق نار جهنم (مت ٥:

٢٢) فكم بالأكثر من يقول كلمة سوء على أسقفه، الذى يوضع يده ينال الروح القدس.

ويعطينا الكتاب المقدس مثلاً عن احترام (مسيح الرب):

★ وفي احترام الكبار تذكر احترام المسوَّحين من الرب كما فعلت أهبجاييل .

كان داود قد قرر قتل زوجها نابال الكرملى بسبب بخله وتعييره لداود. فأخذت أهبجاييل هدية من الأطعمة التي كان يحتاجها داود ورجاله وحملتها إليه "ولما رأته أهبجاييل داود، أسرعت ونزلت عن الحمار، وسقطت أمام داود على وجهها، وسجدت إلى الأرض. وخطبت داود بعبارة سيدي، وعن نفسها بكلمة أمتك. وقدمت له الهدية قائلة له "والآن هذه البركة التي أتت بها جاريتك إلى سيدي، فلتعطَ للغلمان السائرين وراء سيدي" (اصم ٢٥: ٢٣-٢٧).

ولما كانت في موقف تشعره فيه بخطأ إتيانه للدماء وانتقام يده لنفسه، مزجت ذلك بالمديح والاحترام اللائقين، وقالت له: "إن سيدي يحارب حروب الرب، ولم يوجد فيك شرٌ كل أيامك.. ويكون عندما يصنع الرب لسيدي حسب كل ما تكلم به من الخير من أجلك، ويقيمك رئيساً على إسرائيل، أنه لا تكون لك هذه مصدمة ومعثرة قلب لسيدي، أنك قد سفتك دماً عفواً، أو أن سيدي قد انتقم لنفسه. وإذا أحسن الرب إلى سيدي، فاذاً أمتك" (اصم ٢٥: ٢٨-٣١).

وأحدث هذا الحديث المتضع أثره في نفس داود، وأزال غضبه، فقال لها "مبارك عقلك ومباركة أنت، ولأنك منعتني اليوم عن إتيان الدماء، وانتقام يدي لنفسى" وصرفها بسلام.

ويظهر احترامنا للكبار أيضاً في حديثنا عن الرسل والقديسين .

فلا نقول: كما يقول بولس أو بطرس أو أثناسيوس. إنما نقول القديس بولس الرسول، والقديس بطرس الرسول، والقديس أثناسيوس الرسولي.

بل قد يتطاول البعض، ويتحدث عن الرب "يسوع" باسمه المجرد!! بينما نحن في قراءة الانجيل نقول "ربنا وإلهنا ومخلصنا وملكتنا كلنا، ربنا يسوع المسيح الذي له المجد الدائم إلى الأبد أمين.

ونقول القديسين مارجرجس، ومارمينا. وكلمة (مار) معناها سيد. ونقول سيدي الملك جوارجيوس. وسيدتنا وملكتنا كلنا العذراء الطاهرة مريم...

ليتنا نتعود الاحترام في حديثنا عن الآباء القديسين، متذكّرين قول الرب "من يكرمكم يكرمني". ولا نتعود نطق اسمائهم مجردة، كما يفعل علماء الغرب في حديثهم عن الآباء،

فيقولون جهاد أثاسيوس، وتأملات أوغسطينوس، ورسائل أنطونيوس، وحرومات
كيرلس.. كل ذلك بدون ألقاب!!

★ ومن جهة احترام الكبار، احترام الأنبياء:

★ إن أليشع النبي كان يحترم معلمه إيليا النبي. ولما رآه صاعداً في مركبة نارية إلى
السماء، قال "يا أباي، يا أباي، يا مركبة إسرائيل وفرسانها" (٢مل٢: ١٢).

★ نذكر حديث قائد الخمسين الثالث مع إيليا النبي، بعد أن أمر إيليا، فنزلت نار من
السماء وأكلت قائد الخمسين الأول وقائد الخمسين الثاني، لأنهما تكلما مع النبي العظيم
بكبرياء، بعبارة: يا رجل الله، الملك يقول لك انزل (٢مل٢: ١، ٩، ١١).

★ أما رئيس الخمسين الثالث، فإنه - في تواضع - صعد إلى حيث كان إيليا، وجثا
على ركبتيه أمام إيليا، وتضرع إليه وقال له: يا رجل الله، لتكرم نفسي وأنفس عبيدك
هؤلاء الخمسين في عينيك. هوذا قد نزلت نار من السماء وأكلت رئيسي الخمسينين
الأولين وخمسينيهما. والآن لتكرم نفسي في عينيك" (٢مل٢: ١٣، ١٤).

وأمر ملك الرب إيليا أن ينزل معه. ولم يمت رئيس الخمسين الثالث لإتضاعه.

والشخص المتواضع كما يحترم الله وقديسيه، يحترم كل ما يتعلق بالله.

يحترم بيت الله، وهيكل الله، ومذبح الله. فيدخل بيت الله في مخافة. ويقول للرب كما
في المزمور "أما أنا فبكثر رحمتك أدخل إلى بيتك، واسجد قدام هيكل قدسك بمخافتك"
(مز٥). ويحترم الكتاب المقدس ويقبله، ولا يضع شيئاً فوقه في مكتبته. ويحترم اسم الله
ولا ينطق به باطلاً (خر٢٠: ٧). ويحترم رجال الله وخدامه.

إننا نحترم الرهبان وندعوهم آباء، حتى ولو لم يكونوا كهنة.

ونحترم الراهبات وندعوهم أمهات. ونلتمس بركة هؤلاء وأولئك. ونحترم مواضعهم
المقدسة وأديرتهم. ونحترم رفاتهم ونضمخها بالأطياب.

ومن احترامنا لهم، نذكرهم في الذكصولوجيات والألحان، ونطلب صلواتهم وشفاعتهم
فينا. ونقيم لهم التذكارات والأعياد.

والمتواضع يتطور من احترام الآباء والقديسين إلى احترام كل الكبار.

فيحترم التلميذ مدرسه واستاذه، ويحترم الموظف رئيسه، ويحترم الجميع قوانين الدولة وانظمتها. ويذكرون قول الكتاب "اخضعوا لكل ترتب بشرى من أجل الرب" (ابط ٢: ١٣). "اكرموا الجميع.. اكرموا الملك" (ابط ٢: ١٧). "أيها الأحداث اخضعوا للشيوخ" (ابط ٥: ٥).

* * *

*ومن جهة احترام السادة :

نذكر قول الملاك لهاجر وهي هاربة من سيدتها "يا هاجر جارية ساراي، ارجعى إلى مولاتك، واخضعى تحت يديها" (تك ١٦: ٨، ٩).

إحترام الأبوة والأمومة

* أول احترام نقدمه هو احترام الأبوة والأمومة بكل تفاصيلها ...
* والأبوة تشمل أبوة الله لنا، وأيضاً أبوة البشر لنا بما في ذلك الأبوة الجسدية والروحية، ومن هم في مركز الأب. وكذلك أبوة السن.

إحترام أبوة الله :

الله - تبارك اسمه - ندعوه "أبانا الذي في السموات" في كل صلواتنا اليومية (مت ٦: ٩). وفي العهد القديم قال له اشعيا النبي "أنت يا رب أبونا.. (أش ٦٤: ٨). واحترامنا له هو لون من الخشوع أمام عزته الإلهية. وهو - بالنسبة إلينا - لا يدخل في باب التواضع، بل في مجال العبادة. ويعتبر التواضع هو من جانب الله الذي يقبل صلواتنا، والذي من تواضعه شرفنا بأن ندعى أبناء له (١ يوح ٣: ١).

* * *

* واحترامنا لله يدعونا إلى احترام كتابه المقدس .

هذا الذي قبل قراءته في الكنيسة، يقول الأب الكاهن للرب "أجعلنا مستحقين أن نسمع ونعمل بأناجيلك المقدسة بطلبات قديسيك". ويصيح الشماس "قفوا بخوف من الله لسماع الإنجيل المقدس"...

★ واحترامنا للكتاب المقدس يدعونا إلى الإيمان به كله، مع العمل به.
لا نكون مثل الذين يقبلون أسفاراً من الكتاب ويرفضون أسفاراً أخرى ... أو الذين يقيمون أنفسهم رقباء على الكتاب لا يطيعون منه إلا ما يوافق هواهم! ولا يقابلون كلمات الرسل بنفس الاحترام اللائق بمن ينطق الروح على ألسنتهم!
في إحدى المرات زارني في الدير أحد رؤساء الكنائس الكبرى. وفي حوارنا معاً حول مشكلة قبول كهنوت المرأة، سردت عليه آيات من رسائل القديس بولس الرسول. فقال لي "ولكن هذا ما يقوله بولس". فقلت له وهل ما يقوله القديس بولس موحى به من الله أم لا؟ فصمت لحظة ثم قال "نعم موحى به". فقلت إذن لماذا لا نقبله؟ لأن كل الكتاب موحى به من الله وناقع للتعليم.. (٢تى ٣: ١٦).

واحترام الكتاب المقدس يعنى أيضاً عدم ترجمته ترجمة محرفة .
كما يفعل شهود يهوه لكي يثبتوا ما ينادون به من عقائد لا تقبلها الغالبية العظمى من المسيحيين...! أو تفسير الكتاب حسب الهوى الخاص وضد الحق الإلهي.
في كل هذه الأمثلة يختفى الكتاب ويختفى الوحي، وتظهر الذات البشرية .

✱ ✱ ✱

★ واحترامنا لله يدعونا أن نطيع وصاياه، وأن نعيش في مخافة الله.
نهابة هذا الذي يقف أمامه الملائكة ورؤساء الملائكة في هيبة ووقار.
نهابة أيضاً هيكله المقدس، فلا ندخله بأحذيتنا حسب وصية الله لعبده موسى (خر ٣: ٥). بل نسجد أمام هذا الهيكل، ونقبل المذبح المقدس في خشوع وتوقير. كذلك نصلى إلى الله في مهابة، ولا نفعل كالذين يصلون على موائدهم وهم جلوس!

إحترام الأبوة الجسدية ٢

★ احترام الأبوة الجسدية (والأمومة أيضاً) تشمل وصية الرب القائلة "أكرم أباك وأمك" (خر ٢٠: ١٢)، وتشمل الخضوع لتعليم الآباء وتأديبهم (عب ١٢: ٧، ٨). أنظروا كيف كان أبونا اسحق خاضعاً لأبيه، وقد وضعه على المذبح وربطه ووضعته على المذبح لكي يقدمه محرقة للرب (تك ٢٢). واحترام الأبوة الجسدية يشمل أيضاً كل الأقارب الذين هم في مركز الأب أيضاً، كالعم والخال والجد...

وتشمل أيضاً احترام الكبار فى السن الذين هم فى مستوى الأب كقول الكتاب: "أمام الأسيب تقوم، وتحترم وجه الشيخ" (لا ١٩٧: ٣٣).

إحترام الأبوة الروحية :

★ أما الأبوة الروحية فتشمل احترام رجال الكهنوت والمرشدين الروحيين .

نحترم الكهنة فى الكنيسة والآباء الأساقفة والمطارنة لأنهم آباء فى الكنيسة، ولأجل كهنوتهم. ولأنهم وكلاء لله (تى ١: ٧) ووكلاء سرائر الله (اكو ١: ٤) ولأجل مركزهم، كما ورد فى سفر ملاخى أن الكاهن رسول رب الجنود، ومن فمه يطلبون الشريعة، ونحترمهم أيضاً لأجل سنهم، وخدمتهم للأسرار الإلهية، وأنتمان الرب لهم على خدمة التعليم (اتى: ٥: ١٧). وكما يقول الكتاب "أطيعوا مرشديكم واخضعوا، لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم كأنهم سوف يعطون حساباً.." (عب ١٣: ١٧).

إن احترام رجال الكهنوت يدخل ضمن احترام الرب نفسه، لأنهم رجال الله، وهم سفراؤه ووكلاؤه. وعنه قال "من يكرمكم يكرمنى".

✱ ✱ ✱

أما عدم احترام الكهنوت والتطاول على كل رتبة، فيدل على كبرياء فى القلب، وعلى أن من ينتقد هؤلاء، إنما "يرتئى فوق ما ينبغى أن يرتئى" (رو ١٢: ٣). فقد يحدث أن فتنى صغيراً، أو خادماً مبتدئاً، قد قرأ كتاباً أو كتابين، وربما لم يستطع أن يضمن مفهومها كما ينبغى، يبدأ فى انتقاد بعض الآباء الكهنة، أو الآباء الأساقفة، كأنه يفهم ما لا يفهمون. ويقول هذا خطأ وهذا لا يجوز!! وليس فى فكره فقط يسرى هذا المفهوم، بل يشهر بهم علناً أمام الناس!!

✱ ✱ ✱

★ يظهر احترام الكهنوت أيضاً بعضهم لبعض .

كل رتبة تحترم الرتب التى تعلوها، أو التى هى أكبر منها سناً، أو أقدم منها فى السيامة. وسنضرب مثلاً لاحترام أحد الآباء الأساقفة للبابا البطريرك.

حدث فى أيام محمد على الكبير حاكم مصر، أنه كان على ابنته (زهرة) شيطان يصرعها ويتعبها. ونصحها البعض أن يحولها على البابا البطريرك (وكان وقتذاك الأنبا بطرس الجاولى) لكى يصلى عليها ويشفيها. فلما أوصلوها إليه، قال فى اتضاع ليست لى

هذه الموهبة. وطلب من الأنبا صرابامون أبو طرحة أسقف المنوفية أن يصلى لها إذ له هذه الموهبة. وحاول القديس الأنبا صرابامون أن يعتقى من هذا الأمر فلم يستطع. فقال لقداسة البطريرك "اعطني صليبك يا سيدنا لكي أرشمها به وأنا أصلى، لكي تشفى". .. فعل ذلك حتى فى شفائها ينسب ذلك إلى صليب البابا، وليس إلى صلاته هو.. ما أعجب ذلك الاتضاع!

* * *

★ واحترام الكهنوت يعنى أيضاً احترام المجمع المقدسة، وما أصدرته من قرارات. تلك المجمع - المسكونية والأقليمية والمكانية التى كان يجتمع فيها مجموعة من الآباء الأساقفة، ويصدرون قوانين تلتزم بها الكنيسة الجامعة. وبذلك القوانين أمكن تنظيم الكنيسة من الداخل. بل أمكن أيضاً وضع قواعد الإيمان السليم، وإرساء التقاليد الثابتة التى سارت عليها الكنيسة من جيل إلى جيل..

إحترام الأمومة :

★ أما عن احترام الأمومة فتشمل الأم بالجسد، والقديسة العذراء، والكنيسة. يحترم الإنسان أمه التى ولدته وأرضعته وربته، وكانت أشببته فى المعمودية. ★ ويحترم القديسة العذراء مريم، فهى أمنا وملكتنا كلنا . هذه التى استقبلتها القديسة اليسانبات (الأكبر سنا)، بكل اتضاع وتوقير، قائلة "من أين لى هذا أن تأتى أم ربى إلى" (لو ١ : ٤٣). وهى التى كانت أمأ روحية للرسول. وعنها قال الرب وهو على الصليب لتلميذه القديس يوحنا الرسول "هذه أمك" (يو ١٩ : ٢٧). هذه التى جميع الأجيال تطوبها (لو ١ : ٤٨). وهى التى تطوبها الكنيسة قائلة لها فى تسابيحها "علوت يا مريم فوق الشاروبيم، وسموت يا مريم فوق السارافيم".

* * *

★ وفى احترام الأمومة، نحترم الكنيسة التى ولدتنا فى جرن المعمودية . ولدتنا فى الإيمان وفى التعليم والتوبة، وفى الأسرار المقدسة. التى لولاها ما كنا مسيحيين. وإنما صرنا هكذا بكرازتها وجهادها. إننا نحترم الكنيسة ونحترم عقيدتها وإيمانها، ونحترم مجامعها وآباءها، وقديسيها وتعاليمهم، ونحترم تاريخها وطقوسها. ونقف بكل اتضاع أمام تقاليدها، وندافع عنها،

ونفخر بالانتساب إليها. ونذكر جهاد الكنيسة حتى حفظت لنا الإيمان سليماً، وقدمت في سبيل ذلك ألقاً من الشهداء..

* * *

ونقف بكل اتضاع أمام تعليم آباءنا .

نعتبرهم مراجع لنا في الإيمان وفي التفسير، وفي التأملات الروحية. ولا نعتبر كتاباتهم مجرد آراء كما تفعل بعض الطوائف.

وفي احترامنا لأباء الكنيسة نحترم أبطال الإيمان معلمى البيعة، ونحترم الشهداء الذين سفكوا دماءهم لأجل الإيمان، ونحترم الرعاة وآباء البرية. ونشفع بكل هؤلاء في قداساتنا وصلواتنا، ونقيم لهم الأعياد، ونضع الشموع أمام أيقوناتهم، ونقدس رفاتهم. إنه ميزة في اتضاع الكنيسة الأرثوذكسية في توقيرها لأبائها .

* وفي احترام الزوج، نذكر أن سارة كانت تدعو زوجها ابراهيم: سيدى (تك ١٨: ١٢). كذلك قول الكتاب "أيها النساء أخضعن لرجالكن كما للرب. لأن الرجل هو رأس المرأة، كما أن المسيح أيضاً رأس الكنيسة" (أف ٥: ٢٢، ٢٣).

إحترام الصغار :

إن احترام الكبار واجب، تدرب الكثيرون عليه .

أما احترام الكبير للصغير، فهو تواضع من الكبير، ونبل منه .

إن الله - تبارك اسمه - هو المثل الأعلى في التواضع، وقدوتنا في كل تصرف. وفي هذه النقطة بالذات، لا نقول إنه يحترم عبده، مخلوقاته.. فربما هذا التعبير غير مقبول لاهوتياً. وإنما نقول: إنه في معاملته لهم، يحتفظ لهم بكرامتهم، ويرفع من قدرهم، ويعطيهم احتراماً في نظر الآخرين. ولا يدعوهم عبداً بل أصدقاء" (يو ١٥: ١٥).

ولا يتخطى وكلاءه، كما قال للأبرص بعد أن شفاه "اذهب أر نفسك للكاهن" (مت ٨: ٤).

* * *

وعجيب أن الله - في بعض الأحيان - يعرض قراراته على بعض عبده أو وكلاءه، قبل تنفيذها. ويأخذ رأيهم وينفذه!

*مثال ذلك قبل أن يحرق سادوم، قال "هل أخفى عن عبدى ابراهيم ما أنا فاعله؟"

(تك: ١٨ : ١٧). وعرض الأمر عليه. ورضى أن يقول له ابراهيم: أديان الأرض كلها لا يصنع عدلاً! أتهلك البار مع الأثيم؟ فيكون البار كالأثيم! حاشا" (تك: ١٨ : ٢٥). وفى اتضاع شديد، يدخل الرب فى حوار مع ابراهيم، ويقبل فكره نقطة نقطة، إلى أن يصل إلى المستوى الذى إن وُجد فيه عشرة أبرار فى المدينة، لا يهلك المدينة من أجل العشرة (تك: ١٨ : ٣٢).

★ مثال آخر إنه لما عبد بنو اسرائيل العجل الذهبى، وأراد الرب افناءهم، نراه يكلم موسى أولاً، ويقول له "أتركنى لأقنى هذا الشعب..". (خر: ٣٢ : ١٠). كما لو كان موسى ممسكاً به. فلا يفعل، إن لم يتركه موسى يفعل!!

ورفض موسى أن يترك الرب يفنى الشعب، وشرح وجهة نظره. وقال له فى جرأة أو فى دالة "إرجع يارب عن حمو غضبك، واندم على الشر" (خر: ٣٢ : ١٢). والعجيب هنا فى تواضع الرب أنه استجاب لموسى فيما طلبه. وهكذا يقول الكتاب "فرجع الرب عن حمو غضبه، وندم على الشر" (خر: ٣٢ : ١٤).

★ الله أيضاً فى إكرامه لداود النبى - حتى بعد موته - لما أخطأ إليه سليمان بن داود خطية كبيرة، وأوقع عليه عقوبة، لم يشأ أن تكون تلك العقوبة فى أيام سليمان، وإنما بعده، قائلاً "من أجل داود عبدى..". (امل: ١١ : ١٢، ١٣).

✱ ✱ ✱

★ ونجد فى قصة الابن الضال (لوقا ١٥) مثلاً آخر من تواضع الآب السماوى:

أتاه الابن نادماً ومنسحقاً، يقول له "أخطأت إلى السموات وقدامك، ولست مستحقاً أن أدعى لك ابناً..". ولكن الأب فى حنوه، وحرصه على أن يحفظ كرامة ابنه، منعه فى حنوه أن يكمل انسحاقه بعبارة "اجعلنى كأحد أجرائك" التى كان قد عزم أن يقولها (لوقا: ١٥ : ١٩، ٢١). بل بالأكثر أكرمه ورفع شأنه جداً فى توبته، وأمر أن يذبحوا له العجل المسمن، وأن يضعوا خاتماً فى يده..

وأيضاً الابن الكبير لما رفض أن يحضر الوليمة التى صنعت لأخيه، لم يهمله الأب، بل خرج إليه ليصالحه. ولما اشتط هذا الابن فى الكلام وتطاول على أبيه قائلاً "ها أنا أخدمك سنين هذا عندها، ولم تعطنى قط جدياً لأفرح مع أصدقائى. ولما جاء ابنك هذا الذى صرف معيشتك على الزواني، ذبحت له العجل المسمن!..". لم يرد الأب على تطاول ابنه وغضبه، بل قال له فى اتضاع: "يا ابنى، أنت معى، وكل مالى فهو لك. ولكن كان

ينبغي أن نفرح ونسرّ لأن أذاك هذا كان ضالاً فوجد، وكان ميتاً فعاش" (لوقا: ١٥: ٢٨-٣٢).

✱ ✱ ✱

✱ نلمح اتضاع الكبار أيضاً في سير الآباء وأقوالهم :

نرى ذلك في اتضاع القديس أوغسطينوس في صلته لأجل شعبه.

إذ يقول "أطلب إليك يارب من أجل سادتي عبيدك". فيعتبرهم سادته!

ويقول: "أنا بالنسبة إليهم راع لهم. ولكنني أمامك - معهم - خروف في قطيعك: ترعاني وترعاهم" .. وهكذا - على هذا النمط - فإن بعض الآباء الأساقفة في اتضاعهم، يقول كل منهم عن نفسه "خادم إيارشية (كذا).." .

✱ ويقول الآباء في بستان الرهبان: "ليكن كل إنسان كبيراً في عينيك" "أطلب بركة كل أحد" "اجعل كل أحد يباركك".

✱ ✱ ✱

✱ ومن أمثلة الكبار الذين يرفعون من قدر أبنائهم: القديس بولس الرسول :

✱ ويظهر هذا في رسالته إلى فليمون من أجل عبده أنسيموس .

فعلى الرغم من أن فليمون كان أحد تلاميذه، إلا أنه كان يكلمه برجاء وباحترام. ومع أن أنسيموس كان عبداً، إلا أن بولس الرسول يذكره بتوقير شديد، فيقول لفليمون: "أطلب إليك لأجل ابني أنسيموس الذي ولدته في قيودى.. الذى هو أحشائي. الذى كنت أشاء أن أمسكه عندي لكي يخدمنى عوضاً عنك فى قيود الاتجىل. ولكن بدون رأيك لم أرد أن أفعل شيئاً" "لا كعبد فى ما بعد، بل أفضل من عبد: أخاً محبوباً، ولاسيما إلى". ثم يقول لفليمون أيضاً "إن كنت تحسبنى شريكاً، فاقبله نظيرى. ثم إن كان ظلمك بشئ، أو لك عليه دين، فاحسب ذلك على.. أنا أوفى.. أرح أحشائي فى الرب" (فل ١٠-٢٠).

إنه أدب عجيب فى التخاطب يصدر من رسول قديس ومعلم كبير لتلميذه: يقول له "إن كنت تحسبنى شريكاً" ويرجوه قائلاً "لم أرد أن أفعل شيئاً بدون رأيك". ويقول عن العبد "أقبله نظيرى" "لا كعبد بل أخاً محبوباً" ويقول عنه "ابنى" "أحشائي". أليس هذا درساً لنا فى احترام الصغار!؟

✱ ✱ ✱

✱ وبنفس الأسلوب فى توقير تلاميذه، يكتب فى آخر رسالته إلى رومية:

فيقول عن أكيليا وبريسكلا "اللذين لست أنا وحدي أشكرهما، بل أيضاً جميع كنائس الأمم". ويقول "سلموا على أندرونيكوس ويونياس" اللذين هما مشهوران بين الرسل، وقد كانا في المسيح قبلي" (رو ١٦: ٧). بينما كثيرون جداً من المسيحيين لا يعرفون عنهما شيئاً ويقول أيضاً "سلموا على روفس المختار في الرب، وعلى أمه أمي" (رو ١٦: ١٣). وفي إرسال سلامه يسجل تعب العاملين معه في الخدمة. ومن أولئك يذكر "تريفينا وتريفوسا التاعبتين في الرب" و"برسيس المحبوبة التي تعبت كثيراً في الرب" (رو ١٦: ١٢). بل في المقدمة وقبل الكل يذكر فيبي خادمة الكنيسة التي في كنخريا "كي تقبلوها في الرب كما يحق للقديسين" (رو ١٦: ١). إنه يمتدح تلاميذه ويرفع ذكرهم. ويقول مثلاً "سلموا على أبلس المزكى في المسيح" (رو ١٦: ١٠). و"أبينتوس حبيبي الذي هو باكورة أخائية للمسيح" (رو ١٦: ٥).

بعد كل ما ذكرناه من التواضع في معاملة الصغار ، نسال :

هل يُمكن للمتضع أن

ينتهر ويوبخ ويعاقب؟

★ نعم ، يمكن هذا ، فإن القديس بولس هذا، قد وبخ وعاقب .

وبخ أهل غلاطية مثلاً وقال لهم "أهكذا أنتم أغبياء. ابعدها ما ابتدأتم بالروح، تكلمون بالجسد؟! (غل ٣: ٣). وقال لتلميذه تيموثاوس الأسقف: "وبخ. انتهر. عظ، بكل أناة وتعليم" (٢ تي ٤: ٢). وقد عاقب خاطئ كورنثوس وأمر "أن يسلم مثل هذا للشيطان لإهلاك الجسد، لكي تخلص الروح في يوم الرب" (١ كو ٥: ٥). وأمر أهل كورنثوس قائلاً "اعزلوا الخبيث من بينكم" (١ كو ٥: ١٣).

والقديس بولس وبخ القديس بطرس أيضاً قائلاً له "إن كنت وأنت يهودى تعيش أممياً، فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا" (غل ٢: ١٤).

ومع كل ذلك، كان القديس بولس متواضعاً. ويكفي قوله عن ظهورات السيد المسيح

بعد القيامة "وأخر الكل، كأنه للسقط ظهر لى أنا، لأنى أصغر الرسل، أنا الذى لست أهلاً لأن أدعى رسولاً، لأنى أضطهدت كنيسة الله" (١كو ١٥ : ٨ ، ٩).

✽ ✽ ✽

والقدیس یوحنا المعمدان وبعث الفريسيين والصدوقيين الآتين إلى معمديته.

وقال لهم 'يا أولاد الأفاعى، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى. فاصنعوا ثماراً تليق بالتوبة. ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا ابراهيم أباً..'. (مت ١٣ : ٧ ، ٨). ولا ينكر أحد تواضع القدیس یوحنا المعمدان.

✽ وإيليا النبى وبعث آخاب الملك لسيره وراء البعلیم (١مل ١٨ : ١٨).

وعاقب أنبياء البعل والسوارى (١مل ١٨ : ٤٠)، كما عاقب قائدى الخمسين الأول والخمسين الثانى (٢مل ١ : ١٠ ، ١٢).

✽ ويعقوب أبو الآباء وبعث ابنیه قائلاً 'سمعون ولاوى أخوان. آلات ظلم سيوفهما. فى مجلسهما لا تدخل نفسى. بمجمعهما لا تتحد كرامتى..'. (تك ٤٨ : ٥ ، ٦).

وكثير من الأنبياء وبخوا أفراداً وجماعات، بل أرسلهم الله ليوبخوا.

✽ ✽ ✽

✽ بل السيد المسيح نفسه انتهر ووبخ، وهو الوديع المتواضع القلب (مت ١١ : ٢٩).

وبخ المدن التى صنعت فيها أكثر قواته لأنها لم تنب (مت ١١ : ٢٠). وقال 'ويل لك يا كوزين. ويل لك يا بيت صيدا.. وأنت يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء، ستهبطين إلى الهاوية..'. (مت ١١ : ٢١-٢٣). ووبخ الكتبة والفريسيين المرانين (مت ٢٣).. ووبخ تلميذه بطرس الرسول قائلاً له 'اذهب عنى يا شيطان، أنت معثرة لى. لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس' (مت ١٦ : ٢٣).

وانتهر تلميذه يعقوب ويوحنا لما طلبا منه أن تنزل نار وتحرق إحدى مدن السامرة. وقال لهما 'لستما تعلمان من أى روح أنتما. لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص' (لو ٩ : ٥٥).

✽ ✽ ✽

✽ والأمثلة كثيرة، ولكن فلنناقش موضوع التوبيخ ومدى تمثيه مع التواضع.

أولاً : ممن يصدر ؟ وهل الذى يوبخ وينتهر له سلطان أن يوبخ؟

هل كل إنسان له سلطان الرب في التوبيخ؟! أو له سلطان القديس يوحنا المعمدان، أو القديس بولس الرسول، أو القديس تيموثاوس الأسقف.

وهل هذا التوبيخ أو الانتهاز هو في حدود مسئوليتهم. مثلما في مسئولية الأب أن يوبخ ابنه ويؤدبه، كما قال الكتاب "أى ابن لا يؤدبه أبوه؟" (عب ١٢: ٧). أو هل له مسئولية المعلم في تأديب تلاميذه؟ أو مسئولية كل صاحب منصب في تأديب مرؤوسيه أو توبيخهم، حتى لا يدفعهم التهاون إلى الاستهتار.

وما أعمق قول الآباء في البستان "أدبوا الأحداث قبل أن يودبوكم".

✱ ✱ ✱

ثانياً : ما هو الأسلوب الذى يتبعه المتواضع فى التوبيخ وفى التأديب؟

البعض يوبخ فى شدة وفى قسوة، وفى غير احترام للناس، ويظن أن فى ذلك فضيلة، ناسياً كيف كان القديس بولس الرسول يوبخ، هذا الذى قال لتلميذه تيموثاوس "وعظ وبخ انتهر". إنه يقول لشييوخ أفسس "ثلاث سنين.. لم افتر عن أنذر بدموع كل أحد" (اع ٢٠: ٣١). كان ينذر بدموع - فى تواضع وحب - وليس فى تسلط.

يقول أيضاً "أطلب إليكم بوداعة المسيح وحلمه، أنا نفسى بولس، الذى هو فى الحضرة ذليل، وأما فى الغيبة فمتجاسر عليكم" (٢كو ١٠: ١). لاحظوا أنه يقول عن نفسه "فى الحضرة ذليل". لذلك يتشجع بالكتابة، ويحسب نفسه أنه متجاسر عليهم!! هذا هو أسلوب الشخص المتواضع حينما يوبخ، لا بروح التعالى، ولا بقسوة الأسلوب، ولا بالصوت العالى المتسلط.. وإنما بأسلوب الذى يحس بالخشبة فى عينيه، حينما يخرج القذى من عين أخيه...

✱ ✱ ✱

إنه أسلوب من يطلب حق الله من نفسه أولاً، قبل أن يطلب حق الله من الآخرين. فيوبخ فى وداعة المسيح وحلمه.

إنى أعجب لهؤلاء الذين لا يرون السيد المسيح إلا ممسكاً بالسوط! ولا يسمعونه إلا فى عبارة "ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون". كما لو كانت حياة المسيح هى هذه فقط!!

إن السيد المسيح عامل الكتبة والفريسيين بكل لطف وبكل احتمال، دون أن يرد عليهم،

بل كان يزورهم. وبكل وداعة وحلم يحاورهم محاولاً اقناعهم. أما صبة الويلات عليهم، فكان في الأسبوع الأخير بالذات، حينما أراد أن يمهد الطريق لإلغاء تلك القيادات قبل صلبه، حتى لا تسيطر على الكنيسة الجديدة التي سيؤسسها بدمه. لذلك كشف رياءهم في الأسبوع الأخير، بعد طول صبر.. وليس هم فقط بل أيضاً الصدوقيين والناموسيين (مت ٢٢) والكهنة (مت ٢١).

فهل أنت في نفس موقف المسيح؟ وهل لك سلطانه؟! وهل لك وداعته وحلمه؟! أم أنك توبخ في غير اتضاع؟!...

الباب السابع :

الوداعة

- أهمية الوداعة .
- وداعة الله .
- صفات الإنسان الوديع .
- كيف تفتنى أو تفقد؟
- الوداعة لا تقارض مع الشجاعة
- * أمثلة كثيرة
- * الغضب المقدس .
- * قوة الشخصية .
- * الدفاع عن الحق .
- * الإنقاذ .
- * هل يمكن أن يدين؟

الوداعة

أهمية الوداعة ١

فضيلة الوداعة من أهم الفضائل المسيحية. يكفي قول السيد الرب: **تعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب. فتجدوا راحة لنفوسكم** (مت ١١ : ٢٩). كان يقدر أن يقول تعلموا منى سائر الكمالات المسيحية. لكنه ركز على الوداع والتواضع بالذات، وذكر نتيجتها أنكم "تجدون راحة لنفوسكم". فالإنسان الوديع يعيش في هدوء وراحة، بينما من يفقد الوداعة يعيش في صراعات وتعب... والسيد المسيح في عظته على الجبل، وضع التواضع والوداعة في مقدمة التطويبات. فقال "طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات.. طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض" (مت ٥ : ٣، ٥). فهم يرثون هذه الأرض التي نعيش عليها، إن يكونون محبوبين من جميع الناس. كما أنهم في العالم الآخر، يرثون "أرض الأحياء" التي ذكرها داود النبي في المزمور (مز ٢٧ : ١٣) حينما قال "أومن أنى أعاين خيرات الرب في أرض الأحياء"

وقال أيضاً "الرب يرفع الودعاء"، ويذل الخطاة إلى الأرض" (مز ١٤٧ : ٦).

* * *

والقديس بولس الرسول يضع الوداعة ضمن ثمار الروح (غل ٥ : ٢٣). فالإنسان الذي يسلك بالروح، من الطبيعي أن يكون ودعاً..

والذى يكون مسكناً للروح القدس، لا بد أن يكون وديعاً وهادئاً. وهكذا يقول القديس بطرس الرسول "..زينة الروح الوديع الهادئ، الذى هو عند الله كثير الثمن" (بط ٣: ٤). وقال "يسمع الودعاء فيفرحون" (مز ٣٤: ٢).

✱ ✱ ✱

ومن اهتمام الكنيسة بالوداعة، أنها تنصحنا بها فى كل صباح:

فتضع لنا فى مقدمة صلاة باكر جزءاً من رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس يقول فيه "اسألکم أنا الأسير فى الرب أن تسلكوا كما يليق بالدعوة التى دعيتم إليها بكل تواضع القلب والوداعة وطول الأناة، محتملين بعضهم بعضاً فى المحبة.." (أف ٤: ١، ٢). ولاشك أن طول الأناة والاحتمال هما من صفات الوداعة أيضاً. التى تنصحنا بها الكنيسة فى كل صباح، لتسير بها طول النهار.

✱ ✱ ✱

وفى شرح أهمية الوداعة فى الحياة الروحية، يقول القديس يعقوب الرسول :

"من هو حكيم وعالم بينکم، فليبر أعماله بالتصرف الحسن فى وداعة وحكمة" (يع ٣: ١٣). وشرح كيف أن "الحكمة النازلة من فوق، هى طاهرة ثم مسالمة مترفقة مذعنة، مملوءة رحمة وأثماراً صالحة" (يع ٣: ١٧). وهذه من صفات الوداعة. الوداعة إذن مرتبطة بالحكمة، والحكمة مرتبطة بالوداعة. وهذه هى "وداعة الحكمة".

✱ ✱ ✱

حتى فى إصلاح الآخرين، يكون ذلك فى وداعة .

وفى هذا يقول القديس بولس الرسول "أيها الأخوة إن انسبق إنسان فأخذ فى زلة، فاصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة. ناظراً إلى نفسك نثلاً تجرب أنت أيضاً. إحملوا بعضهم أثقال بعض" (غل ٦: ١، ٢).

إذن فى إصلاح شخص أخطأ، لا يكون ذلك بالعنف ولا بالشتيمة والتشهير، إنما بروح الوداعة. فهذا هو أسلوب الروحانيين.

✱ ✱ ✱

وقد كانت الوداعة هى صورة المسيحيين منذ البدء.

حتى إنه قيل عن روحيات المسيحيين فى العصر الرسولى: إنه حينما كان أحد الوثنيين يقابل زميلاً له، ويجده بشوشاً هادئاً.. يقول له "لعلك قابلت مسيحياً فى الطريق"!!.. ويقصد بذلك أن لقاءه مع أحد المسيحيين فى وداعته، يكون قد طبع الوداعة على وجهه بالتأثير.

ويقول القديس بطرس الرسول في الحديث عن الإيمان:

"مستعدين في كل حين، لإجابة كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذي فيكم بوعادة وخوف" (بط ٣: ١٥). وأما وقد تكلمنا عن أهمية الوداعة، فنقول إن الله هو مثالها الأول.

وداعة الله :

إن الله وديع في تعامله. يعطي الفرصة للعاملين معه، أن يكلموه بكل حرية، ويعبروا عن رأيهم - مهما كان يبدو مخالفاً - بكل جرة وبغير خوف!

من تواضع الرب كلم أبانا ابراهيم من جهة سادوم قبل أن يهلكها. وإذا بابراهيم يتكلم مع الله بجرأة عجيبة، ويقول له "أفتهلك البار مع الأئيم، فيكون البار كالأئيم. حاشا لك. أديان الأرض كلها لا يصنع عدلاً!" (تك ١٨: ٢٣-٢٥).

✱ ✱ ✱

لولا وداعة الله الذي يقبل مثل هذا الكلام دون أن يغضب، ما كان ابراهيم يتكلم مع الله بمثل هذا الأسلوب!!

أحياناً لا يجروء موظف أن يكلم رئيسه هكذا، ولو كان هذا الرئيس مديراً لإدارة صغيرة..! أن يقول له: حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر، أو أن يلح له في كلامه أنه بذلك "لا يصنع عدلاً"!!

إن الله في وداعته طويل البال في الحوار .

كثيرون من رجال السلطة لا يقبلون أن يناقشهم أحد في قراراتهم. وإن قبلوا، لا يستطيعون أن يطول النقاش، وأن يستمروا في التنازلات. بل أنهم يضعون للحوار حدوداً. أما الله فوداعته بغير حد.

✱ ✱ ✱

*مثال آخر لوداعة الله، حديثه مع عبده موسى، بعد عبادة الشعب للعجل الذهبي. حيث أراد الله أن يفنى ذلك الشعب الخائن .

يقول الرب - في وداعته - لعبده موسى "أتركني" لأفنى هذا الشعب (خر ٣٢: ١٠). ولكن موسى يقول للرب في جرة "ارجع يارب عن حمو غضبك، واندم على الشر.. اذكر ابراهيم واسحق واسرائيل..". وذكره بأنه قد يقول المصريون "أخرجهم بخبث، ليقتلهم في الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض" (تك ٣٢: ١٢، ١٣).

العجيب أن الرب في وداعته قبل كلام موسى، وندم على الشر (خر ٣٢: ١٤).

✱ ✱ ✱

في وداعة الرب مع ابراهيم قبل أن يناقشه في قراره. أما في وداعته مع موسى، فقد فعل ما هو أكثر: أن يلغى قراره!!

قد يوجد إنسان، بشر من تراب: إن طلبت منه أن يلغى قراره، يثور ويعتبر هذا الطلب ضد كرامته، ولا يقبل الرجوع عن قرار أصدره أو ينوي إصداره. أما الرب فواسع الصدر، ويقبل النقاش ويقبل الرجوع. وأكثر من هذا، يقبل الكلمات الشديدة في كلام عبده معه. مثل عبارات حاشا، ولا يصنع عدلاً، وأخرجهم بخبث ليهلكهم..

لولا أن الله وديع وطيب، ما كان يقبل كل هذا...

✱ ✱ ✱

★ أمثلة أخرى يقبل فيها الرب عبارة (لماذا) عن أحكامه وأعماله:

يقول له ارميا النبي "أبرّ أنت يارب من أن أخاصمك. لكن أكلّمك من جهة أحكامك: لماذا تتجح طريق الأشرار. إطمأن كل الغادرين غدرًا" (أر ١٢: ١). ما أكثر الرؤساء والحكام، الذين لا يجروا أحد أن يكلمهم من جهة أحكامهم، وأن يقول لهم لماذا؟ ولكن الله الوديع ليس كذلك...

ويقبل أيضاً أن يقول له عبده داود معاتباً "يارب لماذا تقف بعيداً؟ لماذا تختفي في أزمنة الضيق؟" (مز ١٠: ١). يقول هذا للراعي الصالح، الذي لم يعوزه شيء" (مز ٢٣: ١).

✱ ✱ ✱

★ بل لولا وداعة الله ، ما كان يسمح للشيطان أن يناقشه وأن يطلب منه، في قصة أيوب الصديق.

وداعة من الله أنه بينما بنو الله يمثلون أمامه، يسمح أن يجيء الشيطان في وسطهم (أى: ١: ٦). ووداعة منه أيضاً أنه بينما يقول الله عن أيوب إنه رجل كامل ومستقيم.. يتدخل الشيطان محتجاً على ذلك فيقول "هل مجاناً يتقى أيوب الله؟ أليس أنك سيجت حوله وحول بيته.. وباركت أعمال يديه.. ولكن أبسط يدك الآن، ومن كل ما له، فإنه في وجهك يجدف عليك" (أى: ١: ٩-١١).

والعجيب أنه - في وداعة الله - يقبل هذا الكلام من الشيطان، ويسمح له بأن يجرب أيوب قائلاً له "هوذا كل ماله في يدك" (أى: ١: ١٢).

وبعد أن ينجح أيوب في التجربة، يسمح الله مرة أخرى للشيطان أن يقف أمامه مع بنى الله. ويبدى الرب إعجابه بأيوب قائلاً "وإلى الآن هو متمسك بكماله.. وإذا بالشيطان يتطاول ويقول لله "ابسط الآن يدك، ومسّ عظمه ولحمه، فإنه فى وجهك يجذف عليك!" (أى ٢: ٥). والعجيب أنه فى وداعة الله يقبل من الشيطان ما قاله فى غير خجل! بل ويقول له أيضاً "ها هو فى يدك، ولكن احفظ نفسه" (أى ٢: ٦).

✱ ✱ ✱

مثل آخر فى الوداعة أن السيد المسيح يقبل أن يجربه الشيطان . واستغل الشيطان هذه الوداعة ، فقال للسيد عن كل ممالك الأرض ومجدها "أعطيك هذه جميعها، إن خررت وسجدت لى" (مت ٤: ٩).
إن الوديع يسمح أن يكلمه البعض بما يريد بكل جراءة. ولكن لا يجوز أن تُستغل وداعة الوديع، لكى يتطاول البعض عليه بغير حياء.

صفات الإنسان الوديع

١ - من صفات الإنسان الوديع إنه طيب وهادئ ومسالم :

إنه هادئ فى صوته، لا يصيح ولا يحدث شغباً.. وهادئ أيضاً فى معاملاته: لا يخاصم، ولا يقطع صلته بإنسان، ولا يحتد على أحد.

قيل عن السيد المسيح فى العهدين القديم والحديث إنه "لا يخاصم ولا يصيح، ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته. قسبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مدخنة لا يطفى" (مت ١٢: ١٩، ٢٠) (أش ٤٢: ٢، ٣).

إنه لا يقطع رجاء إنسان: فلا يطفى الفتيلة المدخنة، ربما تمرّ عليها ربح بعد حين، فتشعلها.

✱ ✱ ✱

قيل فى لقائه مع إيليا النبى لما كان هارباً من الملكة إيزابل، إنه "إذا بريح عظيمة قد شقت الجبال وكسرت الصخور.. ولم يكن الرب فى الريح. وبعد الريح زلزلة، ولم يكن

الرب في الزلزلة. وبعد الزلزلة نار، ولم يكن الرب في النار. وبعد النار صوت منخفض خفيف.. (١مل: ١٩، ١١، ١٢). وكان الرب يتكلم..

* * *

٢ - هكذا هو صوت الله في وداعته، الصوت المنخفض الخفيف .

والإنسان الوديع إنسان هادئ، لا يرفع صوته أزيد مما يجب، ولا يعلو صوته أكثر مما تحتمل الحالة في الكلام. صوته هادئ غير صاخب. بعكس العنفاء الذين في كلامهم صخب. يتكلمون بصوت عالٍ وبحدة، وعنفة.. أحياناً صوتهم يرفع..

* * *

٣ - والوديع : كما أن صوته منخفض، كذلك نظره منخفض أيضاً .

لا يحتق في أحد، ولا يحملق في أحد. تتطبق عليه عبارة "لا يملأ عينيه من وجه إنسان". ومادام لا يملأ عينيه من وجه إنسان، فهو يحتفظ بمعاملات طيبة مع الكل، لأنه لا يفحص مشاعر الناس بنظراته، ولا يحاول أن يعرف ما بداخلهم. لأن محاولة معرفة الدواخل تعكر المعاملات.

أما غير الوديع فإنه يكلم غيره، وينظر إلى غنيبه أثناء كلامه ليرى هل هو صادق أم لا؟ وهل نظراته عكس كلامه؟ وهل ملامحه عكس كلامه؟ وهل هو يبطن غير ما يظهر؟ وهل.. وهل..؟ مما يجعله يشك فيه...

٤ - أما الوديع فيكون في سلام مع الناس، لأنه لا يفحص ملامحهم وتصرفاتهم.

إن تعامل مع أحد لا يتناوله بالفحص والتحقيق. ولا يتناول كل ما يعمله هذا الشخص بتحليل وتدقيق، ويصدر أحكاماً عليه!

وإن جلس مع أناس يأكلون، لا ينظر إليهم ماذا يأكلون وكيف؟ وأي صنف يأكلونه؟ وما الذي يحبونه أكثر من غيره؟ وهل يأكلون بسرعة أو بشهوة أو بنهم؟ ولا يراقبهم أثناء الأكل، كما لو كان يحصى كم لقمة يأكلونها.

* * *

٥ - إنه هادئ لا يفحص أعمال الناس ولا يراقبهم. ولذلك فهو لا يقع كثيراً في

إدانة الآخرين. يقول في داخله "ما شأنى بذلك؟".

فإدانة الآخرين تأتي غالباً من فحص الآخرين ومراقبتهم. أما الوديع فيقول في نفسه "وأنا مالى؟ خلينى في حالى". نعم ما شأنى بكل هؤلاء؟! وما دخلى بتصرفاتهم؟! إن كان

السيد المسيح قد قال فى إحدى المرات "من أقامنى قاضياً أو مقسماً؟" (لو ١٢ : ١٤) ... فماذا أقول أنا عن نفسى؟ ولماذا أتدخل فى أمور لست مسؤولاً عنها؟ ولماذا أقحم نفسى فى أمور ليست من شأنى؟ وهكذا يحتفظ بسلامه الداخلى.

※ ※ ※

٦ - والإنسان الوديع يكون دائماً بشوشاً مبتسماً، لا يهيس فى وجه أحد. لا يقطب جبينه ولا نظراته، ولا يتجهم. ولا يستقر عليه أبداً روح الغضب أو الضيق. له ابتسامة حلوة محببة إلى الناس، وملامح مريحة لكل من يتأملها. ولا تسمح له طبيعته الهادئة أن يزجر ويوبخ، وأن يشتد ويحتد. بل هو بطبيعته إنسان هادئ، وكلامه لين ولطيف، وبخاصة إن كان من الخدام أو من رجال الدين.

إن قوانين الكنيسة وتعاليم الآباء تطلب من رجال الدين أن يكونوا بشوشين، يتصفون بالحلم والسماحة غير مخاصمين (١تى ٣ : ٣). وكذلك سير الآباء تقدم لنا أمثلة كثيرة للوجه السمع المحب والمحبوب. فرجل الدين الذى فى ملامحه سلام، يمكنه أن يمنح الناس سلاماً. أما المتجهم دائماً فإنه يخيفهم من الدين نفسه.

※ ※ ※

٧ - الإنسان الوديع يتمتع بسلام داخلى. فهو لا ينزعج ولا يضطرب، ولا يتسجس، مهما كانت الأسباب الخارجية.

قد يكون البحر هائجاً والأمواج مرتفعة، والسفينة تضطرب فى البحر ذات اليمين وذات اليسار. أما الصخرة الثابتة فى البحر فإنها لا تضطرب. والجنادل التى فى البحر لا تهتز، مهما كان عنف الأمواج..

كذلك الوديع: هو كالصخرة أو الجندل، لا يتزعزع مهما كانت الظروف. بل فى هدوء يسلم الأمر لله ولا يضطرب. يقول مع داود النبى فى المزمور: "إن يحاربنى جيش، فلن يخاف قلبى. وإن قام على قتال، ففى هذا أنا مطمئن" (خر ٢٧ : ٣).

يقول مار اسحق "من السهل عليك أن تحرك أحد الجبال من موضعه، وليس سهلاً أن تحرك الإنسان الوديع عن هدوئه".

※ ※ ※

٨ - ومهما عومل الوديع، لا يتذمر ولا يتضجر، ولا يشكو. بل غالباً ما يلتمس العذر لغيره، ويبرر فى ذهنه مسلكه، ولا يظن فيه سوءاً، وكان

شيئاً لم يحدث! ولا يتحدث عن إساءة الناس إليه، ولا يحزن بسبب ذلك في قلبه. فإن تأثر ذلك أو غضب، سرعان ما يزول تأثره ويصفو. ولا يمكن أن يتحول حزنه إلى حقد..

٩ - وقد يثور البعض عليه، ويوجه إليه اتهامات أو إهانات. فلا يحتد. ولا ينتقم لنفسه، ولا يقاوم الشر (مت ٥: ٣٩).

بل قد يصمت في هدوء، ويتسم في وجه من يثور عليه ابتسامة بريئة، وكأنه ليس هنا! مما يجعل التأثير عليه يخجل من إهاناته له!

هذا الإنسان الوديع، له أحياناً طبع الطفل الهادئ المبتسم.

١٠ - الإنسان الوديع بعيد عن الغضب، حليم واسع الصدر.

إنه لا يغضب بسرعة، ولا ببطء. ولا يفعل الانفعالات الشديدة. ولا تراه أبداً تقرأ ولا عصبياً. بل ملامحه هادئة. وكما أنه لا يغضب، فإنه لا يتسبب في غضب أحد. وإن غضب منه أحد، فإن له "الجواب اللين الذي يصرف الغضب" (أم ١٥: ١).

لذلك فهو إنسان طويل البال، وكثير الإحتمال .

وإذ "له صورة الله" (تك ١: ٢٦، ٢٧)، فهو مثله يحتمل الخطاة للذين يخطئون إليه، ويطول أناته عليهم، ويعيش في سلام.

الوديع يتميز بأنه إنسان بطئ الغضب .

كما قال معلمنا القديس يعقوب الرسول "ليكن كل إنسان مسرعاً إلى الاستماع، مبطناً في التكلم مبطناً في الغضب. لأن غضب الإنسان لا يصنع بر الله" (يع ١: ٩). وما أكثر ما قيل عن إلينا الوديع: إنه "بطئ الغضب" (يون ٤: ٢)، وإنه "طويل الروح كثير الرحمة" (مز ١٠٣: ٨).

١١ - كذلك فإن الوديع لا يغضب لأي سبب .

إذا غضب الوديع، فاعرف أنه لا بد من أمر خطير دعاه إلى ذلك. وغالباً ما يكون غضبه لأجل الرب، وليس لأجل نفسه، وليس بسبب كرامته أو حقوقه كما يفعل غير الودعاء.

وإذا غضب لا يثور ولا يفقد أعصابه. إنما يعبر عن غضبه بعدم موافقه وعدم

رضاه. فالوديع أعصابه هادئة، لا يفعل بسرعة. وإذا انفعل لا يشتعل.

١٢ - وإذا غضب ، لا يحقد. إنما سرعان ما يصفو ويغفر .

وهكذا قيل عن إلهنا الوديع إنه "لا يحاكم إلى الأبد، ولا يحقد إلى الدهر. لم يصنع معنا حسب خطايانا، ولم يجازنا حسب آثامنا.. لأنه يعرف جبلتنا. يذكر أننا تراب نحن" (مز ١٠٣: ٩-١٤).

١٣ - الإنسان الوديع مسالم لا ينتقم لنفسه .

لا يقاوم الشر (مت ٥: ٣٩). أى لا يقابله بمثله. وإنما هو كثير الإحتمال. لا يدافع عن نفسه، بل غالباً ما يدافع الغير عنه، موبخين من يسئ إليه بقولهم "ألم تجد سوى هذا الإنسان الطيب لتعتدى عليه؟".

الإنسان الوديع لا يؤذى أحداً، بل يحتمل الأذى من المخطفين .

ما أجمل ما قيل عن موسى النبي "وكان الرجل موسى حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض" (عد ١٢: ٣).

حتى أنه حينما تقولت عليه أخته مريم، ووبخها الله على ذلك وعاقبها فضربها بالبرص.. تشفع فيها موسى، وهو فى موقف المُساء إليه. وصرخ قائلًا "اللهم إشفها" (عد ١٢: ١٣).

ومن الأمثلة الجميلة ، ما قيل عن وداعة سليمان الملك وسعة صدره، إن الله منحه "حكمةً وفهماً كثيراً جداً، ورحبة قلبه كالرمل الذى على شاطئ البحر" (مل ٤: ٢٩).

١٤ - والإنسان الوديع طيب ، سهل التعامل مع الناس .

إذا تناقش مع أحد، لا يجعل المناقشة تحدد وتعمد، بل يبدى رأيه ببساطة، ويدافع عنه بهدوء، بطريقة وديعة، كما يقول الكتاب "فى وداعة الحكمة" (يع ٣: ١٣)، حتى إن كان ينبه محاوره إلى خطأ!

إنه بسيط فى التعامل، لا عنده دهاء ولا مكر ولا خبث .

ولا يظهر غير ما يظن . ولا نعى بكلمة (بسيط) أنه إنسان ساذج! كلا، بل قد يكون فى منتهى الحكمة. ولكنه فى بساطته لا يعقد الأمور. وهو لا يلف ولا يدور فى حديثه،

ولا يدبر خطماً ضد أحد.

✽ ✽ ✽

١٥ - بل هو صريح ومريح يمكنك أن تثق به وتطمئن إليه .

ورقيق في معاملته ، لا يخدش شعور من يتحاور معه، إذا أخطأ. بل هو حلو الطبع،
دمت الخلق، حسن المعاملة. لذلك تجده محبوباً من الكل، كإنسان طيب ...

✽ ✽ ✽

١٦ - الإنسان الوديع مملوء من الحنان والعطف، حتى على أشتر الخطاة .

فإن رأيت إنساناً قاسياً في تعامله، أعلم أنه غير وديع .

أنظروا إلى وداعة السيد المسيح مع المرأة السامرية، وكيف أنه لم يجرح شعورها
ولم يخدش حياءها ولا بكلمة واحدة. بل أجتنبها إلى الاعتراف بوداعة ولطف. ووجد فيها
شيئاً يمتدحه، فقال لها "حسناً قلت إنه ليس لك زوج.. هذا قلت بالصديق" (يو: ٤: ١٧،
١٨).. وبهذه الوداعة أمكنه أن يقتادها إلى التوبة، وإلى الإيمان بأنه المسيح وبشرت أهل
المدينة بذلك (يو: ٤: ٢٩).

وبنفس الوداعة أيضاً تصرف مع المرأة الخاطئة المضبوطة في ذات الفعل.. لم
يكتها. بل أنقذها من الذين أرادوا رجمها. فلما أنصرفوا قال لها "أين هم أولئك المشتكون
عليك؟ أما دانك أحد؟ ولا أنا أدينك. أذهبى ولا تخطنى أيضاً" (يو: ٨: ١٠، ١١).

✽ ✽ ✽

وفى وداعة من نوع آخر، عاتب بعد القيامة تلحيزه بطرس :

ذلك الذى أنكره ثلاث مرات، وحلف ولعن وقال: لا أعرف الرجل (مت: ٢٦: ٧٤).
فقال له الرب ثلاث مرات "يا سمعان بن يونا، أتحببني أكثر من هؤلاء؟" .. ومعها ثلاث
مرات تثبته فى عمل الرعاية بقوله "أرع غنمى.. أرع خرافى" (يو: ٢١: ١٥ - ١٧).

وهكذا أيضاً فى وداعة، قائل نيقوديموس ليلاً (يو: ٣: ٢).

ولم يوبخه على خوفه من اليهود.. إذ جاء إليه ليلاً، حتى لا ينكشف أمره لهم.. وإذا
بالسيد المسيح - فى وداعته - يلصقه بمحبته، التى جاهر بها بعد صلبه، إذ اشترك فى
تكفينه مع يوسف الرامى (يو: ١٩: ٣٩).

✽ ✽ ✽

وداعة الله تعامل الخطاة بطول أناة. وطول أناة تنتظر توبتهم.

وهو يود توبتهم، دون أن يعرضهم إلى عدالته ونقمة.

وهكذا الإنسان الوديع لا ينتقم من المخطئين إليه، قائلاً في نفسه: "لا أنتقم من أحد، لئلا
الله ينتقم أيضاً منى بسبب أخطائي". ولا يفرح مطلقاً ببليّة المسيئين إليه. لأن الفرحان
ببليّة لا يتبرأ" (أم ١٧: ٥).

* * *

١٧ - والإيمان الوديع يضع أمامه أربع درجات فى التعامل مع المخطئين :

منها احتمال المخطئ إليه، فلا يغضب منه، ولا يثور عليه .

ثم المغفرة للمخطئ، فلا يمسك عليه خطيئته، ولا يحقد عليه .

ثم الصلح مع المخطئ. ولتكن المبادرة منه هو، كما قال الرسول: "مسرعين إلى حفظ
وحدانية الروح برباط الصلح الكامل" (أف ٤: ٣).

وأكثر من هذا كله: محبة هذا المخطئ، كأخ. والصلوة من أجله حسب وصية الرب
"وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطرونكم" (مت ٥: ٤٤).

وهو لا يفعل ذلك كله، إلا إذا كان قلبه واسعاً، وطبعه هادئاً. ويتشبه بالهنا الوديع الذى
قال عنه المرتل فى المزمور إنه "لم يصنع معنا حسب خطايانا، ولم يجازنا حسب آثامنا"
(مز ١٠٣: ١٠).

* * *

١٨ - وأكثر من هذا، فإن السيد المسيح الوديع يقيم عذراً للمخطئين .

فلما ذهب إلى بستان جثيمانى مع ثلاثة من أقرب تلاميذه إليه، وذلك فى أخرج
الأوقات، فى الليلة التى سيقبض فيها عليه. وكان يجاهد ونفسه حزينة حتى الموت
(مت ٢٦: ٣٨). ولم يسهر تلاميذه معه فى تلك الليلة، بل ناموا "لأن أعينهم كانت ثقيلة".
وعلى الرغم من أنه عاتبهم قائلاً "أما قدرتم أن تسهروا معى ساعة واحدة؟"، إلا أنهم
ناموا أيضاً...

فقال لهم "ناموا الآن واستريحوا". والتمس لهم عذراً فى نومهم وتخليهم عنه، قائلاً "أما
الروح فنشيط، وأما الجسد فضعيف" (مت ٢٦: ٤١)... ما أعمق وداعتك يارب! حتى
هؤلاء النائمين فى أخرج ساعات جهادك، تلتمس لهم عذراً، بل تذكر أيضاً لهم شيئاً حسناً،
قائلاً عنهم "أما الروح فنشيط!"

* * *

١٩ - الإنسان الوديع ، لا يتشبث برأيه، ولا يكون عنيداً.

وإن دخل في مناقشة، يكون هدفه أن يكسب من يناقشه، لا أن يكسب للمناقشة ذاتها. لا يظهر للمناقش أخطاءه، ولا يكشف له ضعف حجته. بل في إيجابية وديعة، يشرح وجهة نظره بأسلوب رقيق مقنع.. وهو في كسبه لمن يناقشه بكل لياقة وأدب، يمكنه أن يكسب المناقشة...

أما غير الوديع، فيتمسك بلوية نقطة - مهما كانت صغيرة - ويقوم عليها مشكلة ومناقشة، ويكبرها ويضخمها، ويصير الحبة تبة كما يقول المثل! حتى ليطق البعض قائلًا "أوقعت في يد فلان؟! فلينقذك الله منه إنه يمكن أن يستنتج لك أخطاء في كلامك، لم تفكر فيها قط!!"

* * *

٢٠ - الإنسان الوديع لا يحل إشكالاته بإشكال آخر ...

إنه بطبيعته الوديع يحب أن يبعد عن المشاكل، ويتفادها بقدر طاقته. وإن وُجد أمام مشكلة، إما أن يحتملها في هدوء، أو أنه يعطيها مدى زمنياً تحل فيه، أو يجد لها حلاً في هدوء، أو أن يمررها دون أن تجعلها تمرره أو تمرر غيره.. المشكلة بالنسبة إليه كقطعة طين القيت في بحر واسع، فلم تعكر البحر، بل ذابت في أعماقه..!

* * *

٢١ - الإنسان الوديع هو شخص (مهاود)، يميل إلى الطاعة:

طبعاً يطيع في ما لا يخالف ضميره، وما لا يخالف وصية الله. أما باقي الأمور، فيكون فيها سهل الاستجابة، ولا يجعلها موضعاً للجدل والنقاش.

أما غير الوديع، فقد يكون صلباً وشديداً في كل ما يُطلب منه. ويظل يضع أسئلة وعراقيل: لماذا تريد؟ وكيف يمكن التنفيذ، وهناك صعب؟ ولماذا تطلب مني أنا بالذات؟ وعلام الإسراع؟ لماذا لا تنتظر؟ ومن قال لك إن وقتي يسمح وإن ظروفي تسمح؟! ويستمر في المعارضة.. وقد ينتهي به الأمر أن يرفض، أو قد يوافق أخيراً، بشروط، وبعد تعب في الأخذ والرد.

* * *

٢٢ - أما الوديع، فإنه يريد باستمرار أن يريح غيره.

والخير الذي يستطيع أن يعمله لأجل غيره، فإنه يعمله بكل محبة وكل هدوء، وبتون

جدل، وبدون إبطاء. وكما قال الكتاب "لا تمنع الخير عن أهله، حين يكون فى طاقة يدك أن تفعله.." (أم ٣: ٢٧).

٢٣ - لذلك فالإنسان الوديع يكون مستعداً لأداء أية خدمة .

سواء كان ذلك فى نطاق عمله الرسمى أو تطوعاً منه: لأن هناك نوعاً من الموظفين الرسميين ليست لهم روح الخدمة ولا روح الوداعة فى الاستجابة لطلبات الجماهير. ولذلك قلتُ مرةً: إن الموظف الوديع المريح يجد حلاً لكل مشكلة. أما الموظف المتعب المعقد، فإنه يجد مشكلة لكل حل!!

ولكن الوديع يعمل باستمرار على إراحة غيره، حتى لو لم يكن مسئولاً عن ذلك رسمياً. إنه يستجيب بكل بشاشة لكل طلب يُطلب منه. وحتى دون أن يُطلب منه، يعمل تطوعاً لخير غيره وراحته...

٢٤ - وإن نال الوديع مركزاً أو سلطة يستخدم ذلك لمنفعة الناس.

لا يرتفع قلبه بالمركز أو السلطة، بل يظل خادماً للجميع، محققاً للناس ما يستطيع أن يحققه لهم عن طريق سلطته وإمكانياته. كما قال السيد الرب "إن ابن الإنسان لم يأت ليخدم بل ليخدم، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين" (مت ٢٠: ٢٨).

٢٥ - من أجل هذا كله، يكون الوديع باستمرار شخصاً محبوباً.

الناس يحبون فيه طيبة قلبه، وبشاشة ملامحه، وحسن تعامله، وطاعته وخدمته لكل، ورقة أسلوبه. وبسبب ذلك يدافعون عنه إن أصابته أية أذية. الكل يدافع عنه، وإن كان هو لا يدافع عن نفسه.

والشخص الذى يستغل طيبته ويظلمه، يتعبه ضميره ويخاف، لأنه قد أذى إنساناً طيباً لا يؤذى أحداً!

٢٦ - والإنسان الوديع له سلام فى قلبه، لا يتعب من أحد .

وإن ضغطت عليه الظروف وتعب، لا يظهر تعبهُ فى الخارج بهيئة ضيق أو نرفزة، أو برد الإهانة بمثلها.. كلا، فهو كما أن له سلاماً داخل قلبه، كذلك له سلام مع الناس.

٢٧ - ومن صفات الوديع : الهدوء والبعد عن العنف .

إن العنف هو عكس الوداعة تماماً. فحتى لو كان الوديع في موضع المسؤولية، وكان من واجبه أن يوبخ وينتهر، فإنه يفعل ذلك أيضاً في غير عنف. وإن اضطرتته مسؤولياته أن يحكم على أحد، فإنه يحكم في غير قسوة وفي غير ظلم. وإن لجأ إلى العتاب أو النصح، فإنه يكون رقيقاً في نصحه، وهادئاً ومحبباً في عتابه.

ينطبق عليه ما قلناه مرة في رثاء الأرشيدياكون حبيب جرجس:

يا قوياً ليس في طبعه عنفٌ	ووديعاً ليس في ذاته ضعفٌ
يا حكيماً أدب الناس وفي	زجره حبٌّ وفي صوته عطفٌ
لك أسلوب نزيه طاهرٌ	ولسانٌ أبيض الألفاظ عَفٌ
لم تقل بالذم إنساناً ولم	تذكر السوء إذا ما حلّ وصفٌ
إنما بالحب والتشجيع قد	تصلح الأعوج، والأكدرُ يصفو

* * *

٢٨ - الإنسان الوديع هو إنسان بسيط .

ونقصد بالبساطة عدم التعقيد . فقد يكون بسيطاً وحكيماً في نفس الوقت. كما قال السيد الرب "كونوا بسطاء كالحمائم، وحكماء كالحيات.." (مت ١٠ : ١٦) ... فهو يكون في عقله حكيماً، وفي تصرفاته بسيطاً...

بقي أن أحذرك عن كيف تُقتنى الوداعة؟ وكيف يفقدها البعض؟

كيف تقتنى الوداعة؟ ولماذا تفقد؟

إقتناء الوداعة ،

هناك من وُلدوا من بطون أمهاتهم ودعاء، بطبع هادئ لم يتعبوا في أقتنائه، إنما نالوه عن طريق الوراثة، أو هبة من الله وهبهم إياها، بعكس البعض الذين يُولدون بطبع نارى يميل إلى العصبية أو إلى العنف...

ولسنا عن الودعاء بالطبع أو الميلاد أو الهبة، نتكلم هنا...
إنما نتحدث بصفة عامة عن كيفية إقتناء الوداعة أو تعودها...
* * *

والإنسان الذى يصل إلى الوداعة بجهد وضبط النفس ومحاولات للسيطرة على أعصابه وعلى إرادته، هذا يكون أجره عند الله أكبر.
إنه يجاهد -ربما بتدريبات كثيرة- لكي يضبط ذاته، ويضبط أفكاره، وألفاظه، وحركاته، ويقتنى كل أنواع الهدوء.. ويتخلص من الغضب والنفرة بكل أنواعها وكل نتائجها.

إنها وداعة ليست طبيعية وإنما مكتسبة. مثلها القديس موسى الأسود، الذى كان غضوباً وقاتلاً وحاد الطبع، بل كان مخيفاً أيضاً. ولكنه بضبط النفس، وبالتدريبات والصبر، بحكمة المرشد ومعونة الله، صار وديعاً جداً. وقد اختبروا وداعته يوم سيامته قساً، نجح فى الاختبار.

ومادام الله يطلب منا أن نكون ودعاء، فلا بد أنه قد وضع فى إمكانية طبيعتنا الوصول لى هذه الفضيلة، وتنفيذ وصيته فيها (مت ١١ : ٢٩).

* * *

*تدرّب يا أخى إنن على الهدوء ، وابدأ مثلاً بهدوء الصوت:

فى حديتك العادى؁ ابعء عن الصوت العالى. وءاول أن يكون صوتك منءضفاً ءفياً. ولاشك أن هذا أمر سهل. ءءرء منه إلى الصوت الهاءى غير الءاء. فلا ءءكم بعنف ولا بشءة؁ مءفظفاً بأعصابك ءئما ءءكم؁ مءءمفاً فى نبراء صوتك..

فإن ءءربء على هءوء الصوت؁ ءءرب أيضاً على هءوء الملامء .

لأن الشءص الغضوب؁ يظهر غضبه فى ملامءه؁ وفى نظراء عئنه؁ وفى ءءهه وءقءب ءبئنه. فإن وءءء أنك ءء وصلت إلى هذا كله؁ أو إلى بعض منه؁ قل لنفسك: إن شكلى الآن أصبء لا ىلىق؁ بل ربما أصبء منءراً.. وءئئذ ءاول أن ءهءئ ملامءك. وءءءء أنك مضطر فى نفس الوقت أن ءهءئ إنءعالاتك الءاءلئة..

★نقءة ءالءة : وهى هءوء الءراء .

الشءص الغضوب ءء يظهر غضبه فى عءم هءوء ءراءه؁ وبءاصة فى ءراءاء ىءه. فى العسكراء لا ىسءطبع ءءءى أن ىءءء أءء رؤساءه وهو ىءرك إءءى ىءه؁ بل ىقال له "إءبء" .. ءءلك أنت؁ ءاول أن ءضبء لئس فقط ءراءاء ىءك؁ بل ءراءاءك. وكن هاءفاً فى ءلسءك؁ وفى مشئك؁ لا ءءملل؁ ولا ءظهر العصبئة علك؁ ولا ءبءو أمام الناس منءعلاً..

✽ ✽ ✽

★وفى كل ءلك ءءرب على هءوء ألفاظك .

غير الءءاء ءصءر عنهم ألفاظ ءاسئة عئفة؁ أو ألفاظ مءهءمة ءءئر مءءئهم؁ أو ألفاظ ءءءل فى نطاق الشءئمة والإهانة. أو أنهم فى غضبهم: إذا ءءلموا لا ىراءون ءءة الألفاظ فءمسك علبهم أءءاء. وءء يكونون فى ءلامهم غير مهءبئن؁ ىسءءءمون ألفاظاً ءارءة؁ أو غير لائقة؁ أو ألفاظاً ءءرء عن ءءوء الأءب والوقار والءشمة. وكل هذا ضد الءءاءة..

أما أنت ءءاول أن ءضبء ألفاظك. وإن لم ءسءطع ءلك فى غضبك؁ إذن ءاول أن ءضبء غضبك. أو على الأقل: إن غضبء؁ اصمء. وقل "ضع ىارب ءافظاً لقمى؁ وباباً ءصئنا لشفءئى" (مز ١٤١: ٣).

✽ ✽ ✽

★على أن أهم من هذا كله؁ هءوء القلب وءءاءه .

فالءءاءة فى أصلها هى وءاءة القلب. والقلب الءءع يكون وءعفاً فى كل شئ: فى صوءه؁ فى ملامءه؁ فى ألفاظه؁ فى أعصابه؁ فى ءراءه. لأن كل هذه مظاهء ءارءئة ءعبء عن ءالة القلب من الءاءل. ومع ءلك فالءءرب علبها ىوصل إلى وءاءة القلب؁ أو ىنبه القلب إلى الاءءرام بالوءاءة.

★ على أن وداعة القلب ترتبط بفضائل أخرى كثيرة .

لعل في مقدمتها التواضع. فالإنسان المتواضع يتصرف في وداعة. والسيد المسيح جمع الفضيلتين معاً في آية واحدة، حينما قال "تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب" (مت ١١: ٢٩). كذلك المحبة أيضاً إن عاش الإنسان فيها، يحيا بالضرورة في حياة الوداعة. فالمحبة كما قال الرسول: تتأني، وتترفق، ولا تقبح، ولا تحتد، ولا تظن السوء.. وتحتمل كل شيء، وتصبر على كل شيء (١ كو ١٣: ٤-٧). وكل هذه من صفات وعناصر الوداعة أيضاً.

كذلك الوداعة ترتبط بفضائل اللطف، والهدوء، وطول الروح، وسعة الصدر، والتسامح، وريح النفوس، والحكمة. فمن يقتنى هذه الفضائل وأمثالها، يقتنى الوداعة أيضاً. والوداعة تُقتنى أيضاً بعمل النعمة في القلب . ويحتاج الإنسان أن يطلب ذلك في صلاته، وأن يتجاوب عملياً مع عمل النعمة فيه، ويشترك مع الروح القدس الذي يقوده إلى الوداعة. فإن إقتنينا الوداعة، نحرص ألا نفقدها. فما أسباب فقدها .

أسباب فقد الوداعة :

هناك أسباب إذا سلك فيها الإنسان بطريق خاطئ، فإنها تفقده وداعته، أو لا تساعد على اقتنائها من بادئ الأمر. نذكر من بينها:

السلطة والمركز والغنى وسائر نواحي العظمة :

أحياناً يتولى إنسان منصباً رفيعاً، فيظن أنه من مستلزمات المنصب أن يأمر وينهى، ويزجر وينتهر، ويتعالى وينظر إلى الآخرين من فوق. وهكذا يفقد وداعته وتواضعه أيضاً، ويدخله روح التسلط...

ولكن ليست المناصب العليا أمراً مانعاً للوداعة. فهناك عظماء ودعاء، جمعوا بين الرئاسة والوداعة. مثل داود النبي وهو قائد للجيش في عهد شاول المملك (اصم ١٨: ٥)، كان وديعاً ويختلط بالناس في محبة "وكان جميع إسرائيل ويهوذا يحبون داود لأنه كان يخرج ويدخل أمامهم" (اصم ١٨: ١٦).

والسيدة العذراء وصلت إلى أعلى مركز تصل إليه امرأة، إذ أن جميع الأجيال تطوبها

(لو ١: ٤٨) ومع ذلك لم تفقد وداعتها. والسيد المسيح نفسه في كل مجده، كان وديعاً. لكن الذى يستغل المنصب والعظمة استغلالاً خاطئاً، فهذا الذى يفقد الوداعة، مثل الكتبة والفريسيين (مت ٢٣). وهامان فى سفر أستير .

✱ ✱ ✱

★ويدخل فى نطاق العظمة أيضاً : القنى والمال :

وعلى الرغم من ذلك نقرأ فى التاريخ عن أغنياء كانوا ودعاء، وكانوا يختلطون بالفقراء والمحتاجين يحلّون لهم مشاكلهم مثل المعلم ابراهيم الجوهري وأخيه المعلم جرجس الجوهري.

✱ ✱ ✱

★وقد يفقد البعض وداعتهم ، إذا ما دخلوا فى مجال إصلاح الآخرين، بطريقة خاطئة.

ويظن هؤلاء أن وسيلة الإصلاح لا تأتى إلا بالعنف والشدة. أو أن الدفاع عن الحق لا يتم إلا بالتشهير، وإدانة المخطئين أو من يظنونهم مخطئين، بسبهم علناً وتحريض الناس ضدهم. ويحسبون أنهم بذلك يخلعون الزوان من الأرض، بينما يخلعون الحنطة معه (مت ١٣: ٢٩). ولا يضعون أمامهم قول السيد الرب "أخرج أولاً الخشبة من عينك، وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك" (مت ٧: ٥).

مشكلة أولئك وأمثالهم أنهم يفقدون وداعتهم، ويرتكبون العديد من الخطايا، دون أن يدركوا ذلك، بل على العكس يفتخرون بما يفعلون... وأكثر من ذلك يحسبون أنفسهم أبطالاً ومصلحين..!

✱ ✱ ✱

★يذكرنى هذا بأشخاص يُعهد إليهم بتنظيم أحد الاجتماعات .

وباسم العمل على حفظ النظام، ينتهرون، ويصيحون. بل ويمنعون ويطردون. ويستخدمون كل القسوة فى عملهم. وأحياناً لا نسمع ضوضاء فى الاجتماع، إلا ما يصدر من أصوات المنظمين!!

لماذا لا يعمل أولئك على حفظ النظام فى هدوء، وفى غير عنف. مثل عصا الراعى التى ينظم بها مسيرة غنمه، بالإشارة واللمس دون أن يضرب. لذلك يقول المرتل فى مزمور الراعى "عصاك وعكازك هما يعزياننى" (مز ٢٣: ٤٩).

✱ ✱ ✱

★ البعض يفقد وداعته باسم الصراحة وقول الحق:

وباسم الصراحة يجرح شعور الآخرين بطريقة منفرة مؤذية. والعجيب أنه يقول في افتخار "أنا إنسان صريح. أقول للأعور أنت أعور، في عينه!" ولماذا يا أخى تجرحه وتؤلمه بصراحتك هذه، الخالية من المحبة، ومن اللياقة؟! أما كان ممكناً أن تستخدم أسلوباً آخر؟!

إن السيد المسيح كان صريحاً مع المرأة السامرية، في رفق، بأسلوب لم يجرح فيه مشاعرها، بل امتدحها فيما تستحق فيه المديح (يو: ٤: ١٧، ١٨). وبهذا الأسلوب الرقيق الرفيع، اجتذبتها إلى الإيمان.

✱ ✱ ✱

★ وقد يدخل في موضوع الصراحة هذه، العتاب .

فقد يوجد إنسان - بالعتاب - يريح أخاه. بينما آخر، يفقده للوداعة في عتابه يفقد صديقه أيضاً. وقد قال الشاعر في هذا:

ودع العتاب قرباً شراً
كان أوله العتابا

★ إنسان آخر يفقد وداعته بسبب الحزم .

والحزم ليس معناه بالضرورة العنف. فما أسهل أن يكون الإنسان حازماً ووديعاً. يأخذ موقفاً حازماً، وفي نفس الوقت يشرح سبب هذا الحزم بطريقة مقنعة لا تفقده محبة من يستخدم الحزم معهم. وهكذا يفعل الأب مع أبنائه، يتصرف بحزم ممزوج بالمحبة والإقناع. وبمثل هذا الحزم أيضاً يتصرف رئيس مع مرؤوسيه، ولكن بحزم بعيد عن الغضب والنرفزة، بل بحكمة رصينة هادئة.

بهذا الحزم منع الرب داود النبي من بناء الهيكل، شارحاً السبب في ذلك (١أى ٢٨: ٣، ٦). وفي نفس الوقت لم يجرح شعور داود، ولم يتعارض ذلك مع محبته له.

✱ ✱ ✱

★ البعض يفقد وداعته بسبب الحرص على كرامته الشخصية .

وهذا أمر ردى. فالكرامة الحقيقية هي أن يحتفظ الإنسان بالصورة الإلهية التي خلق بها (تك ١: ٢٦). ولكي نكون على صورة الله وشبهه، ينبغي أن نكون ودعاء مثله.

★ والبعض يفقد الوداعة في مجال الشجاعة .

وهذا ما سنتحدث عنه الآن ...

الوداعة لا تتعارض مع الشجاعة والشهامة

الوداعة هي الطيبة، واللطف والهدوء. ولكن لا يصح أن تُفهم فهماً خاطئاً. وكان الوديع يبقى بلا شخصية ولا فاعلية، ويصبح كجثة هامدة لا تتحرك!! بل قد يصير هزأة يلهو بها الناس!!

وبالفهم الخاطئ يتحول هذا (الوديع) إلى إنسان خامل لا يتدخل في شيء!
كلا. هذا كلام غير مقبول لا يتفق مع تعليم الكتاب، ويُفقد الوداعة صفتها كفضيلة. ولا يتفق مع سير الأباء والأنبياء.

✱ ✱ ✱

حقاً إن الإنسان الوديع هو شخص طيب وهادئ. ولكن هذا هو نصف الحقيقة. أما النصف الآخر فهو أن الوداعة ليست منفصلة أو متعارضة مع باقى الفضائل كالشجاعة مثلاً أو الشجاعة.

وإنما "لكل شيء تحت السموات وقت" كما يقول الكتاب (جا ٣: ١).

نعم، هكذا يعلمنا الكتاب: "للغرس وقت، ولقلع المغروس وقت.. للسكوت وقت، وللتكلم وقت" (جا ٣: ٢، ٧). هكذا أيضاً بالنسبة إلى الوديع: يعرف متى يهدأ، ومتى ينفعل؟ متى يصمت، ومتى يتدخل؟

ولقد سئل القديس الأنبا أنطونيوس الكبير مرة عن أعظم الفضائل: هل الصلاة أم الصوم أو الصمت..؟ فأجاب إن أهم فضيلة هي الإفراز: أى الحكمة فى التصرف، أو تمييز ما ينبغى أن يُعمل.

✱ ✱ ✱

الطيبة هي الطبع السائد عند الوديع. ولكن عندما يدعو الموقف إلى الشهامة أو الشجاعة أو الشهادة للحق، فلا يجوز له أن يمتنع عن ذلك بحجة التمسك بالوداعة..! لأنه لو فعل ذلك، وامتنع عن التحرك نحو الموقف الشجاع، لا تكون وداعته حقيقية. إنما تصير رخاوة في الطبع، وعدم فهم للوداعة، بل عدم فهم للروحانية بصفة عامة. فالروحانية ليست تمسكاً بفضيلة واحدة، تُلغى معها باقى الفضائل. إنما الروحانية هي كل الفضائل معاً، متجانسة، ومتعاونة في جو من التكامل. وأمامنا أمثلة كثيرة من الكتاب في مقدمتها السيد المسيح له المجد.

السيد المسيح :

إنه وديع ومتواضع القلب (مت ١١ : ٢٩) "قصة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مدخنة لا يطفئ" (مت ١٢ : ٢٠).. ومع ذلك فإنه لما رأى اليهود قد دنسوا الهيكل. وهم يبيعون فيه ويشترون، "أخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب موايد الصيارفة وكراسى باعة الحمام. وقال لهم: مكتوب بيتى بيت الصلاة يُدعى. وأنتم جعلتموه مغارة لصوص" (مت ٢١ : ١٢، ١٣) (يو ٢ : ١٤-١٦).

أكان ممكناً للمسيح - باسم الوداعة - أن يتركهم يجعلون بيت الأب بيتاً للتجارة؟! أم أنه مزج الوداعة بالغيرة المقدسة كما فعل. "فتذكر تلاميذه أنه مكتوب: غيرة بيتك أكلتني" (يو ٢ : ١٦، ١٧).

✱ ✱ ✱

وكما قام السيد المسيح بتطهير الهيكل، هكذا وبخ الكتبة والفريسيين . حقاً "لكل أمر تحت السموات وقت". للهدوء وقت، وللغيرة المقدسة وقت. للسكوت وقت، وللتعليم وقت. وقد كان الكتبة والفريسيون يضلون الناس بتعليمهم الخاطئ. فكان على المعلم الأعظم أن يكشفهم، ولا يبيحهم جالسين على كرسي موسى فى المجتمع المسيحى الجديد. فقال لهم "ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المرأون. لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس. فلا تدخلون أنتم، ولا تدعون الداخلين يدخلون" (مت ٢٣ : ١٣).

هل كان ممكناً - باسم الوداعة - أن يتركهم يغلزون أبواب الملكوت؟! ✱ ✱ ✱

الوداعة فضيلة عظيمة. ولكنها لا تمنع من الغيرة المقدسة. وكذلك لا تمنع من الشهادة للحق، كما فعل السيد المسيح له المجد. والشهادة للحق أمر هام يريده الله. ولعل أهميته تظهر من قول الله على لسان ارميا النبي في العهد القديم "طوفوا في شوارع اورشليم وانظروا واعرفوا، وفتشوا في ساحاتها. هل تجدون إنساناً أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق، فاصفح عنها؟" (أر ٥ : ١). وقال الرب لتلاميذه: ".وتكونون لى شهوداً" (أع ١ : ٨). فهل الوداعة تمنع الشهادة للحق. أمامنا بولس الرسول كمثال.

بولس الرسول :

نضع أمامنا موقفه من القديس بطرس الرسول، لما سلك مع الأمم مسلكاً رآه بولس الرسول مسلكاً ريبانياً. فقال القديس بولس فى ذلك "قاومته مواجهة لأنه كان ملوماً. وقلت لبطرس قدام الجميع: إن كنت وأنت يهودى تعيش أممياً لا يهودياً، فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا؟" (غل ٢ : ١١ ، ١٤).

ومعروف عن القديس بولس أنه إنسان وديع. أليس هو القائل فى رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس "أطلب إليكم بوداعة المسيح وحلمه، أنا نفسى بولس، الذى هو فى الحضرة ذليل بينكم. وأما فى الغيبة فمتجاسر عليكم.." (٢كو ١٠ : ١).

بولس الوديع هذا - حينما أضطرته الضرورة - وبخ القديس بطرس الرسول، الذى كان أقدم منه فى الرسولية، وأكبر منه سناً، وكان أحد أعمدة الكنيسة (غل ٢ : ٩). ولكن وداعة القديس بولس لم تمنعه من توبيخ ذلك الشيخ الكبير، ومواجهته قدام الناس.

إن فضيلة الوداعة لا يجوز لها أن تعطل باقى الفضائل .
وأمامنا مثل فى مزج الوداعة بالشهامة هو ابراهيم أبو الآباء :

أبونا إبراهيم :

لاشك أن ابراهيم أبا الآباء كان وديعاً. هذا الذى سجد لبنى حث، حينما طلب مكاناً يدفن فيه سارة زوجته. بينما كان بنو حث يبجلونه قاتلين "أنت يا سيدى رئيس من الله بيننا. فى أفضل قبورنا أدفن ميتك" (تك ٢٣ : ٦-٧). ومع ذلك سجد لهم..!

ابراهيم الوديع هذا، لما أخبروه بسبى لوط ضمن سبى سادوم فى حرب أربعة ملوك ضد خمسة، يقول الكتاب "فلما سمع ابرام أن أخاه لوطاً قد سبى، جرّ غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر، وتبعهم إلى دان وكسرهم، وتبعهم إلى حوية.. واسترجع كل الأملاك، واسترجع لوطاً أخاه أيضاً وأملاكه والنساء أيضاً والشعب" (تك ١٤ : ١٤-١٦).

أكانت شهامة ابراهيم ونخوته ضد وداعته وطيبته؟! حاشا.

مثال آخر فى امتزاج الوداعة بالشهامة والشجاعة والقوة، هو الصبى داود فى محاربتة لجليات الجبار.

داود النبى :

لاشك أن داود كان وديعاً. يقول عنه المزمور "انكر يارب داود وكل دعتة" (مز ١٣٢ : ١). داود راعى الغنم الهادئ، صاحب المزمار، الذى يحسن الضرب على العود (اصم ١٦ : ٢١). داود الحسن المنظر مع حلاوة فى العينين (اصم ١٦ : ١٢). داود هذا، لما ذهب إلى ميدان الحرب يفتقد سلامة أخوته، وسمع جليات الجبار يعير الجيش كله ويتحداه، والكل ساكت وخائف.. تملكته الغيرة المقدسة. وبكل شجاعة وقوة وإيمان قال "لا يسقط قلب أحد بسببه" وعرض أن يذهب ليحاربه (اصم ١٧ : ٣٢). وتقدم فى شجاعة نحو ذلك الجبار الذى أخاف الكل وقال له "اليوم يحبسك الرب فى يدي..! (اصم ١٧ : ٤٦). وأعانه الله فانتصر عليه وخلص الجيش منه. وعلى الرغم من قوة داود وشجاعته، لم تفارقه وداعته ولا اتضاعه. بل قال لشاول الملك فيما بعد لما طارده "وراء من خرج ملك إسرائيل؟ وراء من أنت مطارده؟ وراء كلب ميت! وراء برغوث واحدا!" (اصم ٢٤ : ١٤).

مواقف لشجاعة الوديع

نتابع كلامنا في هذا الموضوع ، فنذكر النقاط الآتية :

الغضب المقدس :

ومثال لذلك موسى النبي الوديع، الذي قيل في وداعته "وكان الرجل موسى حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض" (عد ١٢ : ٣).

ماذا فعل هذا الوديع، حينما نزل من على الجبل، ووجد الشعب في رقص وغناء حول العجل الذهبي الذي صنعوه وعبدوه؟ يقول الكتاب "فحمى غضب موسى، وطرح اللوحين (لوحى الشريعة) من يديه، وكسرتهما في أسفل الجبل. ثم أخذ العجل الذي صنعوه وأحرقه بالنار، وطحنه حتى صار ناعماً، وذراه على وجه الماء" (خر ٣٢ : ١٩ ، ٢٠). ووبخ موسى أخاه هارون رئيس الكهنة، حتى ارتبك أمامه هارون وخاف. وقال له "لا يُحم غضب سيدى. أنت تعلم الشعب أنه فى شر". وقال فى خوفه وارتبأكه عن الذهب الذى جمعه من الناس "طرحته فى النار، فخرج هذا العجل" (خر ٣٢ : ٢٢ ، ٢٤). وعاقب موسى الشعب. فمات فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف.

موسى الوديع غضب غضبة مقدسة للرب، ووبخ وعاقب. وما كان يستطيع فى وداعته أن يسكت على الذى حدث . إن الوداعة لا تمنع الغضب المقدس.
الوداعة أيضاً لا تمنع قوة الشخصية ولا قوة التأثير .

قوة الشخصية :

كان السيد المسيح وديعاً، وفي نفس الوقت كان قوى الشخصية، وكان قوياً فى تأثيره على غيره. ولكننى أريد هنا أن أقدم مثلاً فى مستوى البشر الذى شرحنا من قبل شيئاً عن وداعته، وهو بولس الرسول.

يقول سفر الأعمال عن القديس بولس وهو أسير "وبينما كان يتكلم عن البر والتعفف والدينونة العتيدة أن تكون، ارتعب فيلكس (الوالى) وأجاب: أما الآن فإذهب. ومتى حصلت على وقت استدعيك" (أع ٢٤: ٢٤، ٢٥).

ولما وقف بولس - وهو أسير أيضاً - أمام أغريباس الملك. قال له بعد أن ترفع أمامه "أتؤمن أيها الملك أغريباس بالأنبياء؟ أنا أعلم أنك تؤمن". فقال أغريباس الملك لبولس "بقليل تقنعنى أن أصير مسيحياً" (أع ٢٦: ٢٧، ٢٨).. وحينئذ فى قوة وعزة، أجابه القديس بولس: "كنت أصلى إلى الله، أنه بقليل وكثير، ليس أنت فقط، بل أيضاً جميع الذين يسمعوننى، يصيرون هكذا كما أنا، ما خلا هذه القيود" (أع ٢٦: ٢٩). أترى تتعارض الوداعة مع هذه القوة؟! كلا بلا شك.

الدفاع عن الحق :

ووقت الضرورة، لا تتنافى الوداعة مع الدفاع عن الحق .

* ويتضح هذا الأمر من قصة بولس الرسول مع الأمير كلوديوس ليسياس، لما أمر أن يفحصوه بضربات، ليعلم لى سبب كان اليهود يصرخون عليه. يقول الكتاب "فلما مدوه للسياط، قال بولس لقائد المائة الواقف "أيجوز لكم أن تجلدوا رجلاً رومانياً غير مقضى عليه؟! وإذ سمع القائد هذا، أخبر الأمير الذى جاء واستخبر من بولس عن الأمر. "وحينئذ تنحى عنه الذين كانوا مزمعين أن يفحصوه. واختشى الأمير لما علم أنه روماني، ولأنه قيده" (أع ٢٢: ٢٥-٢٩).

ما كان القديس بولس يهرب من الجلد، فهو الذى قال "من اليهود خمس مرات قبلت أربعين جلدة إلا واحدة" (٢كو ١١: ٢٤). لكنه هنا دافع عن حق معين، وأظهر للأمير خطأ كان مزماً أن يقع فيه. وما كان هذا يتنافى مع وداعة القديس بولس.

✱ ✱ ✱

*وبنفس الوضع لما أراد فستوس الوالى أن يسلمه إلى اليهود ليحاكم أمامهم. وبهذا يقدم لهم منة (أى جميلاً). فقال له القديس بولس فى حزم - مدافعاً عن حقّه - "أنا واقف لدى كرسى ولاية قيصر، حيث ينبغى أن أحاكم. إلى قيصر أنا رافع دعواى". فأجابه الوالى "إلى قيصر رفعت دعواك. إلى قيصر تذهب" (أع ٢٥: ١٠-١٢).

لم يكن القديس بولس خائفاً من اليهود. لكنه - فى حكمة - طلب هذا، ليذهب إلى رومه - حيث يوجد قيصر - ويبشر هناك. لأن الرب كان قد تراءى له قبل ذلك وقال له "ثق يا بولس. لأنك كما شهدت بما لى فى اورشليم، هكذا ينبغى أن تشهد فى روميه أيضاً" (أع ٢٣: ١١). وهكذا دافع عن حقّه فى وداعة وحكمة دون أن يخطئ. بل تكلم كلاماً قانونياً .

الوداعة أيضاً لا تمنع من تنبيه خاطئ، لإنقاذه من خطأ أو خطر .

تحذير رُوح الخطاة :

كما قال القديس يهوذا الرسول غير الأسخريوطى "خلصوا البعض بالخوف، مختطفين من النار" (يه ٢٣).

فهل إذا رأيت صديقاً أو قريباً على وشك أن يتزوج زواجاً غير قانونى، من قرابة ممنوعة، أو بعد طلاق غير شرعى بتغيير المذهب أو الملة. أو أنه مزعم أن يتزوج زواجاً مدنياً أو عرفياً. أو ما شاكل ذلك.. هل تمتنع باسم الوداعة عن تنبيهه إلى أن ما ينوى عمله هو وضع خاطئ؟! كلا، بل من واجبك أن تنصحه. وليكن ذلك بأسلوب هادئ فى غير كبرياء ولا تجريح. أما إن سكّت، فإن سكوتك سيكون هو الوضع الخاطئ.

* * *

ليست الوداعة أن تعيش كجثة هامدة فى المجتمع. بل تتحرك، وتكون لك شخصيتك. وبأسلوب وديع. قل ولو بكلمة واحدة - كقول المعمدان - "لا يحلّ لك" (مت ١٤: ٤).

بشرط أن ما تقوله يكون هو الحق، وليس مجرد اندفاع متهور بغير معرفة... يقول القديس بولس "اسهروا متذكرين أنى ثلاث سنين ليلاً ونهاراً، لم أفتر عن أن انذر بدموع كل واحد" (أع ٢٠: ٣١). وداعته لم تمنعه عن أن ينذر كل واحد. ولكن بأسلوب وديع، كان ينذر بدموع. حتى لو قال كلمة شديدة، سيقبلونها منه.

هل تظنون أن الوديع قد أعفى من قول الرب لتلاميذه "وتكونون لى شهوداً" (أع ١: ٨).

كلا، بلا شك. فحيثما تلزم الشهادة للحق، لا بد أن نفعل ذلك.

الإِنْمَاز :

هل إذا اتاحت فرصة للوديع أن ينقذ أحداً معتدى عليه مثلاً أو فى خطورة... أترأه يمتنع عن ذلك باسم الوداعة؟

هل من المعقول أن يقول "وما شأنى بذلك؟!" أو يقول "وأنا مالى؟ خلينى فى حالى!!" أم فى شهامة ينقذه، وبأسلوب وديع. كما أنقذ السيد المسيح المرأة المضبوطة فى ذات القفل من أيدى راجمىها. فى هدوء. وقال للراغبين فى رجمها "من كان منكم بلا خطية، فليرمها بأول حجر" (يو: ٨: ٧). وفعل ذلك بوداعة دون أن يعلن خطأياهم "بل كان يكتب على الأرض".

الإِدَانَة :

هل يمكن للوديع أن يدين أحداً. متى؟ وكيف؟

أمامنا أمثلة من الكتاب المقدس، فى مقدمتها السيد المسيح له المجد: هذا الذى قال "لم يرسل الآب ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلص" (يو: ٣: ٧)، والذى قال لليهود "أنتم حسب الجسد تدينون. أما أنا فليست أدين أحداً" (يو: ١٨: ١٥).. هو فى مناسبات عديدة أدان كثيرين: مثلما أدان الكتبة والفريسيين (مت: ٢٣). وأدان كهنة اليهود قائلاً لهم "إن ملكوت الله ينزع منكم، ويُعطى لأمة تصنع أثماره" (مت: ٢١: ٤٣). وأدان الصدوقيين قائلاً لهم "تضلون إذ لا تعرفون الكتاب" (مت: ٢٢: ٢٩). وأدان تلميذه بطرس لما قال له حاشاك يارب (مت: ١٦: ٢٣).

السيد المسيح - مع وداعته - أدان، ولكن بسُلطان، وبهدف روحى .

✱ ✱ ✱

كذلك فإن القديس بولس الرسول قال لتلميذه تيموثاوس "الذين يخطئون وبخهم أمام الجميع، لئى يكون عند الباقين خوف" (١تى: ٥: ٢٠). هنا الإدانة بسُلطان، ومن أجل سلامة الكنيسة.

هناك أشخاص من حقهم - بل من واجبهم - أن يدينوا .

ولا تتعارض إدانتهم مع الوداعة. مثل الوالدين، والآب الروحى، والمدرس بالنسبة إلى

تلاميذه، والرئيس بالنسبة إلى مرؤوسيه.. بل إن عالي الكاهن قد عاقبه الله، لأنه لم يحسن تربية أولاده ويدينهم (١صم ٣).

❖ ❖ ❖

هوذا الكتاب يقول "لا تخالطوا الزناة" (١كو ٦: ٩). فهل تقول: أنا لا أدين هؤلاء! حتى إن لم تقل عليهم أية كلمة إدانة، فإن عدم مخالطتهم وعدم مخالطة مجموعات أخرى من الخطاة (١كو ٦: ١١) تحمل ضمناً إدانتهم. وكذلك بالنسبة إلى المنحرفين في التعليم الديني، يقول الرسول "إن كان أحد يأتيكم، ولا يجيء بهذا التعليم، فلا تقبلوه في البيت، ولا تقولوا له سلام. لأن من يسلم عليه يشترك في أعماله الشريرة" (٢يو ١٠، ١١). فهل باسم الوداعة نقبل هؤلاء؟! كلا. بلاشك.

المسألة ليست حكماً وإدانة. بل يقول الرسول "خطايا بعض الناس واضحة، تتقدم إلى القضاء" (١تي ٥: ٢٤). أنت لست تدينهم، بل أعمالهم تدينهم. وأنت بكل وداعة تبتعد عنهم، كما ينصح المزمور قائلاً "في طريق الخطاة لا تقف، وفي مجلس المستهزئين لا تجلس" (مز ١).

هناك مواقف يجد فيه الوديع نفسه مضطراً أن يتكلم، ولا يستطيع أن يصمت. مثلما فعل اليهو في قصة أيوب الصديق وأصحابه:

كان اليهو وديعاً. ظل صامتاً مدة طويلة. ولكنه أخيراً لم يستطع أن يصمت. وكان الله هو المتكلم على فمه. وهو الوحيد الذي لم يجادله أيوب (أى ٣٢-٣٧).

فهرست

صفحة	
٥	قصة هذا الكتاب
٧	الباب الأول : حياة الاتضاع
٨	الاتضاع بين الفضائل
٩	تطويب التواضع
١٣	ما هو الاتضاع؟ بعض أقوال الآباء عنه
١٦	تطويب الآباء والقديسين للتواضع - بعض أقوال الآباء
٢٤	حث على الاتضاع
٢٨	احذر من التواضع الزائف
٣٠	تواضع الله
٣٦	تواضع الابن، وتواضع الروح القدس
٤١	تواضع الروح القدس
٤٣	الباب الثاني : وسائل الاتضاع وعلاماته
٤٤	وسائل الاتضاع وعلاماته
٥٨	وسائل وعلامات أخرى لحياة الاتضاع
٥٩	الباب الثالث : العظمة والكبرياء
٦٠	الكبرياء والعظمة خطية مركبة تلد خطايا كثيرة - مقاومة الله للمتكبرين
٦٢	تشامخ الروح
٦٣	الإدانة ومسك السيرة - البر الذاتي
٦٤	المكابرة - البدعة أو الهرطقة
٦٦	العناد - نتائج أخرى
	المتكبر يرتفع فيسط والمتكبر دائماً يبرر ذاته
٦٧	المتكبر يفقد حياة الوداعة وحياة التوبة - يرتفع فيسقط
٧٠	المتكبر يبرر ذاته
٧٣	العجرفة
٧٥	التجارب والمواهب

٧٩ الباب الرابع : الذات سبب الكبرياء
٨٠ الذات سبب الكبرياء - تريد أن تكبر
٨٢ الغرور
٨٣ تحقيق الذات
٨٥ السيطرة - الطمع
٨٦ كلمة أنا
٩٠ لا أنا
٩٢ كيف تتخلص من الذات [من الأنا] - قهر الذات
٩٣ محبة الآخرين وخدمتهم
٩٤ التواضع
٩٥ إدانة الذات
٩٧ ضع أمامك مثال المسيح
٩٨ تدريب الميل الثانی
٩٩ الباب الخامس : المجد الباطل ومحبة المديح والكرامة
١٠٠ الكبرياء تلد المجد الباطل والبر الذاتي - البر الذاتي
١٠٥ الكبرياء تلد المجد الباطل والمجد الباطل يلد محبة المديح والكرامة
١٠٥ محبة المديح - الذين يحبون المديح
١٠٩ الخطايا التي تنتج عن محبة المديح والكرامة
١١٤ الهروب من المديح والكرامة - إخفاء الفضائل
١١٥ البعد عن الرئاسة
١١٩ لماذا يهرب المتواضع من حب الرئاسة والرعاية
١٢٤ كيف تهرب من محبة المديح والكرامة
١٢٩ الباب السادس : علاقة الاتضاع بالفضائل والمواهب
١٣٠ النعمة
١٣١ التوبة
١٣٣ الاعتراف
١٣٤ الشفقة على المخطئين
١٣٥ الإيمان والبساطة
١٣٧ التعليم

١٣٩ علاقة التواضع بالصلاة - حاجته إلى الصلاة
١٤٠ طريقة الصلاة
١٤١ عدم الاستهتاق
١٤٢ التواضع في الطلب
١٤٣ يطلب الصلاة لأجله
١٤٤ التواضع واحترام الآخرين - مثال السيد المسيح
١٤٥ احترام الكبار
١٥٠ احترام الأبوة والأمومة - احترام أبوة الله
١٥١ احترام الأبوة الجسدية
١٥٢ احترام الأبوة الروحية
١٥٣ احترام الأمومة
١٥٤ احترام الصغار
١٥٧ هل يمكن للمتضع أن ينتهر ويوبخ ويعاقب
١٦١ الباب السابع : الوداعة
١٦٢ الوداعة - أهمية الوداعة
١٦٤ وداعة الله
١٦٦ صفات الإنسان الوديع
١٧٦ كيف تقتنى الوداعة ؟ ولماذا تفقد - إقتناء الوداعة
١٧٨ أسباب فقد الوداعة
١٨١ الوداعة لا تتعارض مع الشجاعة والشهامة
١٨٢ السيد المسيح
١٨٣ بولس الرسول - أبونا ابراهيم
١٨٤ داود النبي
١٨٥ مواقف لشجاعة الوديع - الغضب المقدس
١٨٦ قوة الشخصية - الدفاع عن الحق
١٨٧ تحذير لأحد الخطاة
١٨٨ الإنقاذ - الإدانة

في هذا الكتاب



بسم الآب والإبن والروح القدس

الإله الواحد أمين

بعضك هذا الكتاب عن:

أهمية التواضع والوداعة.

تواضع الله ، ووداعة الله .

أحوال الآباء عن التواضع .

أحذر من التواضع الزائفة .

وسائل التواضع وعلاماته .

صفات الإيمان الوديع

كيفية إقتناء الوداعة

خطورة التكبرياء والعظمة

المجد الباطل والبر الذاتي

محبة المديح والتكرامة

كيف - تهرب من محبة المسيح

التهروب من محبة الرئاسة

الذات سبب التكبرياء

كيف تتخلص من الذات

علاقة التواضع بالفضائل

التواضع والاعتزاز الآخرين

هل المتواضع يورث ويقتدر

ما هي الوداعة وأهميتها

هل تتعارض الوداعة مع الشجاعة

والشهادة

إنها دراسة مع تمارين

حاول أن تقرأها وتحياها .

الياسا شهوده الثالث